سلسلة السياسة والمجتمع

الماركسيّة والمسألة القوميّة

تأليف

الياس مرقص

دار الطليعة - بيروت

المَـاركسِيَّة
وَالمَسـألة القوَميَّـة

الياس مرقص

الماركسيّة والمسألة القوميّة

By: @SA9BB55

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

حقوق النشر محفوظة

الطبعة الاولى
كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠

توطئة

هذا الكتاب عرض لتعاليم ماركس وانجلز ولينين في « المسألة القومية » من خلال مناقشة الآراء التي بسطها الزميل بسام طيبي في مجلة « دراسات عربية » .

وهو يتضمن :

١ — مناقشتي الأولى المنشورة في عدد كانون الثاني — يناير ١٩٦٩ من مجلة « دراسات » تحت عنوان « ماركس، انجلز، لينين، والمسألة القومية »، تعليقاً على المقال الذي نشره الزميل طيبي في عدد تشرين الثاني — نوفمبر ١٩٦٨ تحت عنوان « القضية القومية في الفكر الماركسي » من ماركس حتى الاممية الثانية » .

٢ — رداً جديداً على المقال الذي نشره الزميل بعنوان « حوار حول المسألة القومية » في عدد نيسان — ابريل ١٩٦٩ . ولم ينشر هذا الرد في المجلة نظراً لطوله وضيق صفحات المجلة . ولقد رأينا ان نناقش كل جملة وردت في حوار الزميل معنا ، دفعاً لاي التباس ، وحرصاً على تغطية جميع المواضيع التي طرقها الزميل في صفحات قليلة : الامة والقومية ، القومية

في القرن التاسع عشر ، مقالة انجاز عن الشاعر القومي الالماني آرندت ، هل « تنبأ ماركس بظهور الفاشية في المانيا » ؟ ، وما هي الفاشية ؟ ، لوكاكش والمانيا، موقف ماركس من وحدة ١٨٧٠ ، وهل خطأ التاريخ آمال ماركس الذي أيد هذه الوحدة ؟، سير الفكر الماركسي الانكلو- أميركي في المسألة القومية ، لينين والمسألة القومية في عصر الامبريالية ، هل عند لينين « صيغ متناقضة » ؟ ، هل انطفأت المسألة القومية في الغرب الصناعي المتقدّم ؟، لماذا نؤيد الوحدة العربية ؟، الاسلوب العلمي في الترجمة والاستشهاد بالنصوص الخ ..

٣ – ملحقاً جمعتُ فيه نصوصاً مختلفة لماركس وانجاز ولينين تتصل مباشرة بمواضيع النقاش ولا سيما بالمسألة الالمانية في ١٨٦٦ وفي ١٨٧٠ ، نزولاً عند الضرورة الملحة وتجاوباً مع رغبة عدد من الاصدقاء .

٤ – نص رسالة شخصية وصلتني من الاخ بسام طيبي مع جوابي عليها . وسيرى القارىء ان هذه الرسالة ليست محض شخصية ما دامت تتضمن ايضاحات إضافية عن أسلوب الاستشهاد والترجمة ، وعن أسلوب عمل الماركسيين بوجه الاجمال . إن الزميل يوجه لي انتقادات مباشرة – لم ترد في مقالاته – واعتبر من واجبي ان أضعها تحت أنظار القارىء ، مرفقة بجوابي عليها .

إن منهج عرض تعاليم الماركسية – اللينينية من خلال نقد كاتب عربي محدّد يستمد تبريره من النقاط الآتية :

١ – لقد عرضنا هذه التعاليم بشكل واضح ، في كتب سابقة . وفي هذا الكتاب ، نواصل عملنا .

٢ – إن الحوار مع كاتب عربي معناه ارتباط المواضيع المتناقش عليها

بالوضع العربي الراهن ، بأزمة الثورة العربية ، وسير الفكر الماركسي في الوطن العربي . وسيرى القارىء هذا الارتباط على طول الخط. وهو تثبيت لشمولية الماركسية ، ودوامها ، وحياتها .

٣ – والردّ على كاتب عربي محدّد عاصم عن الشطط نحو العموميات ، وقيد علمي صارم يفرض على الناقد الاستشهاد الحرفي التفصيلي الكامل غير المبتور بنصوص الكاتب المحدد ، كمدخل طبيعي لتفنيد هذه النصوص المحدّدة كلها ، باعتبار ان هذا التفنيد الفردي هو الطريق الى الاتجاهات العامة ، الى رسم الحدود وتحديد المعسكرات داخل صف المنادين بالماركسية في الوطن العربي .

٤ – الزميل بسام طيبي واحد من أكثر الكتاب العرب غزارة ، لا سيما في موضوع « المسألة القومية » فضلاً عن أنه واحد من اكثرالكتاب العرب تمسّكاً بالماركسية – ذاتياً على الاقل – . وفي نظرنا ، انه نموذج جدير بالتأمّل والاستفادة . وفي اللحظة التاريخية الراهنة ، نتخذه بكل سرور قاعدة انطلاق لتبيان ما هي الماركسية وما ليست هي الماركسية .

اللاذقية ١٩٦٩/٩/١٩

ماركس ، انجلز ، لينين
والمسألة القومية

(١) على سبيل التمهيد

لقد غمرني الرفيق بسام طيبي بلطفه وعطفه واهتمامه ، في مقالات عديدة ، ولا سيما في مقاله الاخير « القضية القومية في الفكر الماركسي ، من ماركس حتى الاممية الثانية »، المنشور في عدد تشرين الثاني١٩٦٨ من مجلة « دراسات عربية». في هذا المقال ذهب الاخ بسام الى حد تقديم فهرس بمؤلفاتي والتنويه الصريح بما يعتبره دوري في عملية التوعية وفي تطوير اليسار العربي (ص ٥١ – ٥٢) .

ولا شك انني ، إنسانياً ، أشعر بالامتنان العميق والسرور والشجاعة عند قراءتي هذا الكلام ، والمسألة هنا تتعدى الشعور العفوي بالفخر والرضى الذاتي، لانها ايضامسألة الحقيقة. فالحقيقة ليست فقط حقيقة «القوانين» و«الافكار» بل هي ايضاً حقيقة الوقائع، وحقيقة الاشخاص (أياً كانوا) الذين يصنعون الوقائع ويحملون الافكار . ولا أقصد من ذلك ان الدور الذي ينسبه إلي بسام طيبي في التوعية والتغيير يتطابق بالضرورة مع الحقيقة ، ولكنني أقصد ان بسام طيبي يتناول هنا نقطة ليست تافهة . ان الاعوام الاخيرة قد حملت معها في الوطن العربي انتشاراً واسعاً للماركسية ، وانتقالاً « عامـــاً » للمفكرين التقدميين من

أشكال « الفكر القومي » واشكال « الفكر الاشتراكي » غير الماركسي الى الماركسية ، وتراجعاً واضحاً للماركسية الستالينية ، وخصوصاً في شكلها المحلي الاكثر ابتذالاً وانحطاطاً (في صورتها البكداشية) ، وانقساماً كبيراً داخل « الماركسيين » في الوطن العربي (و « الماركسية » تبدو اليوم أداة انقسام وتمايز داخل صف المنادين بها اكثر مما تبدو اداة توحيد . تلك كانت الحال ، بدرجة اقل ، في سنوات ١٩١٤ – ١٩١٨) . وفي الظروف التي تصبح فيها الماركسية بضاعة رائجة ، يجب ان توضع النقاط على الحروف ، فى هذه الامور الفرعية و « الشخصية » ايضاً . وإلا ، فإننا سنجد (وقد وجدنا) كتاباً « ماركسيين » مستحدثين ، كانوا في الامس القريب يقفون على ارض اخرى – ارض الاشتراكية الاصلاحية أو ارض الفكر القومي المصبوغ اشتراكياً – يتصدون اليوم لتوجيه الدروس « الماركسية » الى ماركسيين مختبرين ، بعد ان نقلوا بعض افكارهم ! ومن هذه الزاوية ، فان الفقرة التي كرسها الاخ بسام طيبي لي ولغيري من الناس هي بمثابة شاهد تاريخي . ان فهم نشوء وتطور الافكار – افكارنا وافكار غيرنا – عمل لا بد منه لفهم هذه الافكار . وانا شخصياً اعتقد ان كثيرين من الذين رفعوا مجدداً الوية الماركسية ورايتها هم بعيدون عنها بعد اولئك الذين رفعوا الويتها في الماضي .

مرة اخرى ، اشكر الرفيق بسام طيبي ، واشكر جميع الذين اولوني عطفهم فاستشهدوا ببعض آرائي (ناجي علوش ، العفيف الاخضر ، ...) اشكرهم على تأييدهم هذه الآراء – حين يؤيدونها – واشكرهم اكثر على التفاتهم اليها واهتمامهم بها ، واشكرهم ايضاً على ان بحوثهم لا تترك مجالاً للشك في ان افكارهم ليست افكاري وافكاري ليست افكارهم. تلك حقيقة بديهية. في الفكر السياسي ، الافكار تنزل الى « السوق » فيشتريها من يريد ، ويشتري منها ما يريد . صحيح ان افكار المفكر ليست بضائع ، بضائع منفصلة . ومع

ذلك ، فان الاصطفاء ممكن . وهو واقع في كل العهود [1] . والفرصة متاحة للمفكر ان يبدد الالتباس إذا شعر بوجود التباس (بالنسبة لي ولنا جميعاً ، هذه الفرصة هي دائماً مجـــلة « دراسات عربية ») . والفرق كبير بين ناجي علوش وبسام طيبي وبين رئيس حزب لبناني قديم كتب ، قبل ثلاث سنوات ، مقالاً نشر في مجلة تصدر بعشرين لغة عالمية وفي اربع مجلات عربيـة (على الاقل) ، ملأه بشواهد من لينين أخذها من مجموعة « حركة التحرر الوطني في الشـرق » ومن « المؤلفات الكاملة » باللغة الروسية وأعطى فيه بعض الافكار الشخصية ، مع ان هذه الشواهد كلها واردة في ترجمتنا لمجموعـة « حركة التحرر الوطني في الشرق » ، كما أصدرناها في دمشق في أواخر عام ١٩٥٨ . وبشكل أدق انهـا واردة في مقدمتنـا لهـذه الترجمة ، وكذلك الافكار الشخصية في جوانبهـا الايجابية البديهية . ولعل الرفيق نقولا شـاوي لم يطلع على تلك المقدمة ، وعلى تلك الترجمة لا في ١٩٥٨ ولا في ١٩٦٦ . لقد اخطأ . فلو فعل ، لكان وفر على نفسه وعلى غيره تجربة قاسية لا تعوض. ونقول هذا ما دام الاستاذ نقولا شاوي وناشرو مقاله في براغ وبيروت والرباط الخ يعطون هذه الافكار ذاتها قيمـــة فريدة وأهمية استثنائية ، على ما يبدو .. وشكري العميق يتوجه الى الاستاذين ناجي علوش وبسـام طيبي وكل الذين شذوا على ما كان في فترة ماضية « مؤامرة صمت » ، وهي أبشع المؤامرات [2] . وبالطبع ، ان هذا الموقف منهم لم تقرره رغبة في تأييد شخص « مظلوم » ، بل قرره سير الأحداث العربية وسير الماركسية ، سير النضال حول الماركسية وبالأحرى من أجل الماركسية .

---

١ – واذا لم يسبق لي ان استشهدت بأفكار الأخوان ، فهذا لا يعني انني لست مديناً لهم . رغم الاختلافات ، فاننا نشارك في اختيار فكري واحد .

٢ – واشكر ايضاً الاستاذين عزيز الحاج وزكي خيري لأنهما خالفا في ١٩٥٨ سياسة الصمت. ان الرد الذي صدر بتوقيعهما يبقى شاهداً تاريخياً على فهمهما للماركسية وتنظيرهما « للثورة الوطنية الديمقراطية » عراقياً وبرجوازياً .

ان الماركسية عندنا قد ارتبطت (في الماضي) في أذهان « الناس » بأفكار ومواقف قادة الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية ، وهؤلاء القـــادة تصرفوا بوجه الاجمـــال وكأن افكارهم ومواقفهم هي هي الماركسية ، الماركسية – اللينينية. وكذلك فعل خصومهم « القوميون » . ضد هذا التبسيط والتشويه، ضد الالتباس البشع ، وقف ويقف ناجي علوش وبسام طيبي وآخرون . لقد دفعتهم الامانة العلمية والامانـــة الثورية الى تسجيل ان هناك آخرين ينادون بالماركسية – اللينينية ، وان هـــؤلاء الآخرين قد استنتجوا من الماركسية – اللينينية افكاراً ومواقف هي عكس أفكار ومواقف بكداش والحاج ونصار. وكان هذا التسجيل ذاته جزءاً من المخاض الماركسي في الفكر العـربي الثوري . والنضال من اجل الماركسية نضال مستمر وهو بالدرجـــة الاولى نضال داخل الصف « الماركسي » ، أي نضال بين اولئك الذين ينادون بالماركسية . ونحن كماركسيين ما كان يمكن ولا يمكن ان نسكت على ان يتبنى أناس «ماركسيون» مواقف معينة ، اقليمية ، انفصالية ، برجوازية ، يمينيـــة ، وان ينظروا هذه المواقف « ماركسياً » ، أي ان يبرروها بتعاليم او « قوانين » ماركس وانجلس ولينين، أو حتى ستالين وغيره . وبالطبع، ان النضال داخل الصف «الماركسي» من أجل الماركسية الحقيقية ، لا ينحصر في النضـــال ضد المواقف البرجوازية الانفصالية المكشوفة (التي غالبـــاً ما تخلى عنها اصحابها تحت ضغـــط الأحداث وضغط النضال الفكري الماركسي) ، وانما يتضمن - خصوصاً في الأعـــوام الاربعة الاخيرة – نضالاً ضد عدد من التيارات « الماركسية » الجديدة التي هي، في نظرنا ، في حالة قطيعة مع ماركس ولينين .

والمقالات التي سأنشرها في « دراسات عربية »[1] ، ليست هي المنـاظرة اللازمة مع الماركسيين المستحدثين الذين أحلوا ماركسيتهم « اليسارية » المحلية

---

١ – راجع : السنة الخامسة ، الأعداد ٦–٨–١٠ (نيسان ، حزيران ، آب ١٩٦٩).

محل الماركسية الستالينية المحلية . ولكنها توطئة لا غنى عنها . ولنقل انهـا مواصلة لعملية بعث الماركسية الحقيقية ، وهي العمليـة التي بدأناها وشاركنا ويشاركنا فيها بسام طيبي وناجي علوش ، وعلى ما نرجح عدد لا بأس بـه من الماركسيين الجدد والقدامى [1] . وهذه العملية هي من جانبنا عمـل اكتشاف وتعرف على ماركس وانجلس ولينين ، وستالين وتروتسكي وروزا لوكسمبورغ وايضاً « الماركسيين النمسويين » وكاوتسـكي الخ . وبصدد « الماركسيـين النمسويين » في « المسألة القومية » ، أريد ان أسجل تأييدي المطلق لاهتمام الأخ بسام طيبي بهم . ورغم انني لا أعرف آراءهم إلا بشكل محـدود وبصورة غير مباشرة ، ورغم انني أعارض بعض ما أعرفه من ارائهم ، فانني مقتنع تماماً بأن اراءهم ككل ليست هي تلك الصورة الجزئية والمشوهة التي يقدمها لنا كتاب ستالين الصادر ضدهم وضد انصارهم الروس في عام ١٩١٣ . وسـأعود الى هذا الموضوع (في حدود معرفتي) [2] .

---

١ – والقدامى . كتبت هذا الكلام قبل ان اطلع على تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني الى المؤتمر الثاني (١٩٦٨) . وهي وثيقة عظيمة ، سياسياً وتاريخياً ، تفسح المجال لتقدم حاسم في الصعيد النظري والفكري . احتفظ لنفسي بحق التعليـق على هذه الوثيقة الخطيرة . أريد الآن ان اسجل ان النقد الذاتي الجريء للحزب الشيوعي اللبناني يتفق الى حد كبير مع ما قلناه في ١٩٥٧ وفي مؤلفاتنا اللاحقة : في الميدان التنظيمي : المركزية الديمقراطية ، المؤتمر ، انهاء دكتاتورية الفرد . في الميدان السياسي : قضية الوحدة ، فلسطين ، موضوع الجبهة الوطنية ، الاشتراكية ، الاصلاح الزراعي ، انحرافات اليمين واليسار ، تقييم تاريخ الحزب نقدياً بدلاً من اسدال ستار النسيان على هذا التاريخ ، واخيراً كشف دور شخص « الأمين العام » .

٢ – كما انني أرحب أيضاً بما هو عند الأخ بسام (في مقالات أخرى) بمثابة رد اعتبـار ضروري لأحد رواد الفكر الماركسي الحقيقي – تروتسكي – ضد عمليـة التزييف البائوية التي هيمنت في زمن ستـالين (ولا تزال تهيمن) ، والتي دفعت الثورة الاشتراكية العالمية ثمنها في الاستراتيجية والتاكتيك والفكر النظري . وبالطبع ، اني لا اوافق على كل ما ورد في مقالات الاخ بسام . ويديهي (ولا اعتقد أن الأخ بسام يخالفني هذا الاعتقاد) ان الرد الضروري على التزييف الستاليني ليس هو نقطة البداية والنهاية في مسألة « تروتسكي » أو « لينين وتروتسكي » ، التي يجب أن تحل بالاستناد الى تجربة الثورة الاشتراكية العالمية ، كلها .

أريد الآن ان أبدي بعض الملاحظات حول بعض النقاط التي وردت في مقال الرفيق بسام طيبي والتي اعتبرها نقاطاً هامة . وتتخذ هذه الملاحظات ، أحياناً كثيرة وليس في كل الاحيان ، طابعاً نقدياً . اني اعتبرها جزءاً من عملية التعرف المشتركة ، ولا أشك في ان الرفيق بسام طيبي يشاركني هذا الاعتبار .

(٢) هل هناك ثغرة في تاريخ التعرف الماركسي على المسألة القومية ؟ وما هي هذه الثغرة ؟

آ . لينين ومجادلاته وأفكاره بين ١٩١٤ و ١٩٢٣

يقول بسام طيبي : « وفي هذه الدراسة ، سوف نتطرق بشكل عابر إلى كل ما كتب عن القضية القومية في الفكر الماركسي من ماركس وانجلز حتى الأممية الثانية (أي حتى عام ١٩١٤ عام سقوط الاممية الثانية) . ولم يقدم الفكر الماركسي منذ ذلك شيئاً جديداً لهذه المسألة ، الى ان بدأت ثورة العالم الثالث التي ربطت الكفاح الطبقي بالكفاح القومي فنشأت نظريات ماوتسي تونغ وفانون وغيفارا وكاسترو التي لن نتعرض لها في هذه الدراسة » (ص ٣٦) .

هل يصح القول ان الفكر الماركسي لم يقدم شيئاً جديداً في المسألة القومية ، منذ سنة ١٩١٤ وحتى ظهور نظريات ماوتسي تونغ وفانون الخ ؟

كلا . ولقد ذكر الاخ بسام المجادلة بين لينين وروزا لوكسمبورغ حول المسألة القومية ، ولا سيما رد لينين على روزا لوكسمبورغ ، والذي أكد فيه

حتمية الحروب القومية الثورية (ص ٥٠) . وهـــذا الرد بالذات الوارد في مؤلف لينين « حول كراس يونيدس » ، يعود الى سنة ١٩١٦ . يبدو اذن ان بسام طيبي قد تسرع في قوله ان الفكر الماركسي لم يقدم شيئاً جديداً في هذه المسألة القومية بعد ١٩١٤ . ولكن النقص هنا اكبر من مسألة تسرع : ان سير آراء بسام يوحي لي بأنـه لا يعطي أهمية كبيرة للخـــلاف بين لينين وروزا لوكسمبورغ حول المسألة القومية (ص ٥٠) . وأعتقد ان هذا الموقف خطأ جدي في منظور ١٩١٣ – ١٩١٦ ، وخطأ اكبر في منظور الزمن اللاحق كله . ولا ريب ان لينين وروزا والماركسيين الثوريين الاممين كانوا في ١٩١٤ – ١٩١٨ – في صف واحـــد ضد التحريفية وضد « الماركسية المستقيمـة » (كاوتسكي) ، أي ضد معسكر الانتهازية المكشوفة ، والانتهازية المقنعـــة . ولكن لينين كان حريصاً على تثبيت افكاره ضد حلفائـــه من ماركسيي « اليسار » أيضاً ، وليس فقط ضد كاوتسكي ومارتوف وهيلفردنغ .

ضد « الوسط » الماركسي – كاوتسكي ، هيلفردنغ ، مارتوف – اكد لينين على مفهوم الامبريالية ، وعلى الانشقاق والقطيعة داخـــل حركة العمال : أن الرأسمالية عالمية . والعصر الامبريالي يقوي هذه العالمية . وعالمية الامبرياليـة تعني ان حفنة من الامم المستعمِرة والمسيطرة تستغل وتضطهد الامم المستعمَرة والمغلوبة . وهذا الاستغلال هو الاساس الاقتصادي لظاهرة الانتهـــازية في حركة العمال في البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة ، الخ [1] .

ضد « اليسار » الماركسي ، أكد لينين ان العصر الامـــبريالي لا ينهي ، ولا

---

١ – منذ ١٩٠٧ ، في تعليق شهير على مؤتمر شتوتغارت الذي كشف قوة تيار « الاشتراكية الاستعمارية » وضع لينين اصبعه على تلوث البروليتاريا الاوروبية بالشوفينية الاستعمارية . وبحث مراراً وتكراراً آراء ماركس وانجلس في العمال الانكليز ونقاباتهم .

يلغي مسائل العصر « السابق » (الذي يستمر ويتغير داخل العصر الجديد) ، وقد كان الماركسيون « اليساريون »– روزا لوكسمبورغ، تروتسكي ، بوخارين وبياتاكوف من البلاشفة الروس ، وطائفة من الاسماء في شتى البلدان – يميلون الى أن عصر الامبريالية يذوب أو ذوّب المسائل القديمة : المسائل « السياسية » والقومية والفلاحية . في الدراما الكبيرة القائمة بين البروليتاريا او «البروليتاريا وسائر الكادحين » وبين الامبريالية ، لا مكان جدي لكل الباقي . وفي نظر روزا ، الحروب القومية التقدمية التحررية غدت مستحيلة «في عصر الامبريالية المنفلتة من عقالها » . وفي نظر لينين ، الامور بالعكس : الامبريالية، إذ تشدد الاضطهاد القومي، تشدد الثورة القومية . ومن الواضح ان تجربة الزمن اللاحق كلها تبرر منظور لينين وتخطىء منظور الآخرين . ولا نقصد من ذلك ان كل كلمة قالها لينين في هذا المضمار صحيحة ،وكل كلمة قالها سواه خاطئة .بل نقصد المنظور الاساسي . ان منظور لينين في المسألة القومية هو المنظور الصحيح . ومنظورات روزا والآخرين (ستالين ١٩١٣ وبعدها أيضاً) خاطئة . ومنظور لينين واضح من سير مجادلاته ، كل مجادلاته ، ولا سيما مجادلاته مع حلفاء « اليسار »[1] . وهذه المجادلات غنية بالدروس التي تتعدى « المسألة القومية » الى صميم مفهوم الثورة الاشتراكية ، ومنهج الديالكتيك الماركسي .

ويبدو لي ان الرفيق بسام طيبي – وان كان يعرف مناظرة لينين مع روزا لوكسمبورغ – يجهل مناظرة لينين مع تيار « الاقتصادية الامبريالية » . وهذه المناظرة التي تملأ عام ١٩١٦ حلقة حيوية حاسمة في تاريخ تكون اللينينية، عشية الانعطاف التاريخي الكبير « ثورة اوكتوبر » . وقد احتجبت هذه

---

١ – ومن المفيد ان نذكر ان لينين ينتقد ايضاً تروتسكي ، في هذه المسألة القومية المرتبطة مع منظورات الثورة الاشتراكية . ويسميه « وسطياً » (في هذه المسألة) الى جانب مارتوف وكاوتسكي .

المنـــاظرة في الزمن الستاليني ، لصالح تضخـــيم خلافات أخرى ، ولصالح أشياء اخرى . وطالما ان الماركسيين الشبان (وارجو ان يؤخذ هـــذا التعبير بمعناه الحرفي البسيط) يجهلون هـــذه المناظرة ، فانهم سيعتـبرون أنفسهم « ماركسيين ثوريين » وحسب ، او « ماركسيين يساريـــن » وحسب ، يثمنون لينين ويثمنون تروتسكي وروزا لوكسمبورغ الخ الخ ، وقد يثمنون لينين اكثر مما يثمنون تروتسكي وروزا لوكسمبورغ ، ولا يعتـبرون أنفسهم لينينيين . وهنا نقطة افتراقنا .

« الاقتصادية الامبريالية » تعبير اطلقـــه لينين على آراء رفيقه البولشفي بياتاكوف (كيفسكي) ورفيقـــه البولشفي بوخارين ، وسلسلة من الاشخاص والهيئات في بولونيا والمانيا وسويسرة والسويد وهولندة واليابان الخ . ولم يكن هؤلاء الاشخاص انصاراً للامبريالية . بالعكس، كانوا ماركسيين ثوريين اممين يساريين الخ . ولكنهم يبعثون النزعة « الاقتصادية » القديمة في العصر الجديد ، الامبريالي ، على أساس مفهوم « الامبريالية » والثورة المعادية للامبريالية . وقـد كرس لينين لمكافحة هذا التيار الذي اسماه ايضاً « كاريكاتور الماركسية » عدداً من المؤلفات والمقالات وعشرات من الرسائل يعود معظمها الى سنة ١٩١٦ : كما ان «الاقتصاديين» القدامى في أواخر القرن التاسع عشر كانوا يقولون : الرأسمالية انتصرت في روسيا ، ولذا فان المسائل السياسية لم يعد لها شأن يذكر ، والمهم هو نضال الطبقـة العاملة ضـد البورجوازية ، كذلك ، فـ « الاقتصاديون » الجدد يقولون : الامبريالية انتصرت في العـــالم ، ولذا فان المسائل السياسية ، مسائل «العصر السابق» لم يعد لها شأن، والمهم هو نضال البروليتاريا و «الجماهير شبه البروليتارية » (او سائر المضطهدين) ضد الامبريالية . ولينين يعترض بقوة وثبات على هذا الابتذال ، وعلى هذه « الماركسية الكاريكاتورية »[1] . وأهم

---

١ – ويسخر لينين من تكرار لفظ « الامبريالية » الذي يكرره هؤلاء على الطالع والنازل. ويسخر من ميلهم الى حل المسائل بالشعارات والهتافات ، ويقرنهم بالاورتوذوكسي آلكسنسكي صاحب القول المأثور : «لنغرس خازوقاً في جسد البرجوازية الحقاق» .

« المسائل السياسية »التي يهملها « الاقتصاديون » الجدد او يعلنون احتقارهم لها، والتي يدافع عنهـــا لينين بشكل متعاظم ويثبت وينمي آراءه حولها : المسألة القومية . ولا أقول « المسألةالكولونياليـــة » (مسألة المستعمرات) او مسألة « العالم الثالث » ، بل المسألة القومية . وقد كان « الماركسيون اليساريون» و « الاقتصاديون الامبرياليون » يتعاطفون بصدق مع شعوب المستعمرات بل يمكن القول ومع الشعوب المضطهدة داخل اوروبا أيضاً ، وكثيراً مـــا كانوا يعقدون بعض الآمال على الحركة التحررية لشعوب المستعمرات ، ولكنهم كانوا دائماً يرفضون اعطاء أية قيمـــة لامكانيات الشعوب المضطهـدة في اوروبا . ومجادلة لينين تتوجه نحو تثبيت هذه الامكانيات ونحـــو تأكيد التشابه (رغم الفرق) بين حركة القوميـات المضطهدة في اوروبا وحركة شعوب المستعمرات وانصاف المستعمرات . وهذه الحركة الاخيرة هي ايضاً حركة قومية . والمسألة كلها هي المسألة القومية والكولونيالية ، وليست فقط المسألة الكولونياليـة . وقد جاءت الانتفاضة الايرلندية القومية لعام ١٩١٦، لتسوغ منهج لينين وتخطىء المنهج الآخر . ومن وحي هذه الانتفاضة ، كتب لينـــين يقول : ليس من ثورة اجتماعية خالصة . و « من ينتظر ثورة اجتماعية خالصة، سوف ، لن يراها أبداً . ذلك ثوري في الكلام لا يفهم مـــا هي « الثورة الاجتماعية »[1] . وهذا ليس قولاً عابراً ، بل هو بمثابة مبدأ اساسي عند لينين ، تؤكده كل كتابات لينين في ١٩١٦ وفي سنوات لاحقة . وموضوعه هو مفهوم الثورة الاشتراكية ذاتـه مفهومها الماركسي – اللينيني .

وبعد ثورة اوكتوبر ، في مناظرات المؤتمر الثاني للكومنترن ، وفي مؤلفات

---

١ – أنظر مجموعة لينين : « حركة التحرر الوطني في الشرق »، ترجمة الياس مرقص، دار دمشق ، ١٩٥٨ . او طبع موسكو ، بالعربية : ١٩٦٥ (؟) .

لينين الأخيرة تحقق اللينينية ، نظرية الثورة الاشتراكية العالمية ، تقدماً حول (المسألة القومية) .

في هذه السنوات ، وضع لينين الفكرة القائلة بأن شعوب الشرق تستطيع في بعض الظروف ان تتجنب المرحلة الرأسمالية من التطور (١٩٢٠) ، وسوغ الشعار القائل « يا عمال جميع الاقطار وابتها الامم المضطهدة اتحدوا ! » ، وأكد « ان هذه الحركة التي تقوم بها غالبية سكان العالم والتي كانت في البدء تهدف الى التحرر القومي ، ستتحول ضد الرأسمالية والامبريالية ، وقد تلعب دوراً اكثر ثورية بكثير مما كنا نتوقع » (١٩٢١) ، ولاحظ « ان الثورات القادمة في الشرق . سوف يكون لها من السمات الخاصة والاصيلة اكثر مما كان للثورة الروسية بكثير » ، وأكد ان نتيجة الصراع العالمي سيقررها في نهاية التحليل « كون روسيا والهند والصين الخ تؤلف الغالبية الساحقة من سكان المعمورة » (١٩٢٣) ...

هذا كله معلوم جيداً لدى قرائنا (وهو وارد في ترجمتنا ومقدمتنا لمجموعة « حركة التحرر » ، وفي « تاريخ الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي » ، وفي « الماركسية في عصرنا » ، وفي دراسات اخرى) . ونحن لم نزعم ولا نزعم ان هذا التشخيص اللينيني الجوهري يحل كل المشاكل ، ولكننا زعمنا ونزعم ان الابتعاد عن هذا التشخيص كان خطأ فادحاً ، لا يقل فداحة بأي حال عن موقف « الثورة الوطنية الديمقراطية » الستاليني اليميني (وبالاحرى عن موقف « الثورة الوطنية البرجوازية » العادية وغير الديمقراطية ، الستاليني المحلي) الذي يشكل ابتعاداً عن نهج لينين في نمو وتحول الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية ، وهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع هذا الخطأ : ان « الثورة الدائمة » اللينينية ليست تجريداً في الزمان للعلاقة بين الثورتين ، تجريداً « يسارياً » ، وركضاً وراء تجاوز قاصر . بل هي تتخذ مضامينها على ضوء كل « فروع » اللينينية ، ولاسيما

هذا الفرع « القومي » الممتاز [1] .

(ب) لينين ، المانيا ، الشرق ، ستالين ، ماوتسي تونغ

هذا كله واضح — على ما اعتقد — في مؤلفاتي السابقة . ولن أعود اليه هنا. ولكني اريد التوقف عند نقطتين :

اولاً : في هذه السنوات (١٩١٨ — ١٩٢٣) ، أعطى لينين قيمة كبيرة لالمانيا المسحوقة قومياً (صلح فرساي الامبريالي) .والمانيا بلد رأسمالي صناعي متقدم . بلد اوروبي كبير . كان قبـــل قليل صاحب مستعمرات وصاحب أسلاب قوميـــة في اوروبا . ولكنها سحقت وامتهنت قومياً ، « في زمن الامبريالية المنفلتة من عقالها » . ولينين يسجل هذه الحقيقة ويعول عليهـــا ، في عشرات النصوص ، ولاسيما في مؤلفاته الاخـــيرة . وكذلك يفعل كتاب « الفباء الشيوعية » الذي وضعـــه بوخارين وبريوبراجنسكي ، وكذلك يفعل الكومنترن [2] .

ان بعض الخبراء يسخرون اليوم من الخط « الالماني » الذي طبقه الكومنترن والشيوعيون الالمـان في تلك الاونة ، والمعروف باسم « خط شلاغيتر » [3] .

---

١ — بالطبع ، ان تروتسكي ، في « الاساس » و « التفاصيل » ، افضـــل بكثير من تروتسكيي اليوم، والعلاقة بينه وبين تلامذته العرب تكاد تنعدم ، ومع ذلك ، فالفرق واضح على طول الخط بين لينين وتروتسكي ، بعيداً عن كل تزييفات زمن ستالين التي الحقت ضرراً بالغاً بالعمل والفكر الماركسيين .

٢ — وكذلك فعل ستالين في كتاب « مبادىء اللينينية » ، ١٩٢٤ .

٣ — شاب وطني الماني قام بعمل تخريب ، فأعدمته سلطات الاحتلال الفرنسي . واتخذه الشيوعيون الالمان رمزاً للنضال الوطني ضد الاحتلال والامبريالية.

ترى ، ألم يكن لينين ورفاقه يعلمون ان المانيا « قومية برجوازية استعمارية» وان القومية الالمانية « قومية همجية بربرية »،ما دام ماركس ، على ما يبدو من أقوال الرفيق بسام طيبي ، كان يعلم هذه الحقيقة وقد ذكرها منذ سنة ١٨٤٦ [١] ؟ألم يكن لينين يعلم مستقبل هذه القومية الالمانية « الهمجية البربرية » هو النازية ؟ كلا . لم يكن يعلم . ولو عدنا اليوم الى سنة ١٩٢٢ ، لما كنا نعلم . ونحن على حق . ومن يعلم على باطل . وماركس ايضاً لا يعلم . ان تطور المانيا بين ١٩٢٣ و١٩٣٣ ، الى النازية ، انطلاقاً من هذه القومية ومن أشياء اخرى ،ليس تطوراً محتوماً .

وهذه المسألة الكبيرة حقاً لا يجوز ان تبتذل حسابياً في شكل حكم على « خط شلاغيتر » لالمانيا ١٩٢٣ (كما يفعل بعض الخبراء)، ومن زاوية ما حدث في ١٩٣٣ – ١٩٤٥ . بل يجب الانتقال من هذا الحساب الى علم الجبر ، ومن « مفردات » المواقف الى المنهج ، والحكم على المنهج من وجهة نظر كل مفردات التاريخ وخطه الاساسي . ومنهج لينين ، ويؤيده (مبدئياً على الاقل) بوخارين وبريوبراجنسكي وستالين وتروتسكي والبلاشفة الروس («يساريون»و«يمينيون») هو ، في هذه النقطة ، منهج تأكيد المسألة القومية ، في اوروبا،ايضاً ، وربطها مع كل معادلة الثورة الاشتراكية العالمية . فهل يسوغ التاريخ اللاحق هذا الخط اللينيني ام انه يسوغ الخط المعاكس ، خط روزا لوكسمبورغ ، بله خط « الاقتصادية الامبريالية » الماركسي الكاريكاتوري ؟ بدون ان نطيل الشرح ، نلاحظ ان تجربة الحرب العالمية الثانية تسوغ خط لينين ، وتخطىء كل صنوف

---

١ – يقول بسام ان ماركس قد « أظهر الصفات الهمجية البربرية للقومية الالمانية بشكل خاص » (ص ٤٣). وعن هيلر (١٩٢٠ – ١٩٣٤) : « لو قرأ هيلر تحليل ماركس للقومية الالمانية جيداً لما وقع بما وقع فيه ...».الخ.الحملة على هذه القومية خط ثابت في مقال بسام.سنعود إلى هذه النقطة في حينها . نسجل هنا أن بسام تكلم عن هيلر والمانيا ، ولكنه لم يتكلم عن لينين والمانيا .

« الاقتصادية الامبريالية » ، التي تظهر في مظهر « ماركسية اقصى اليسار » ، ماركسية « طبقية » قطرية و« عالمية » ، تذوّب كل شيء في الدراما الثنائية المانوية ، وتذوّب بشكل خاص هذه المسألة القومية . ومما لا ريب فيه ان هذه الحرب العالمية الثانية هي في معطياتها واتساعها ونتائجها حدث بارز في عهد الثورة الاشتراكية العالمية ، انه واحد من الاحداث الثلاثة العظيمة الاهمية في هـــذا العهد (الى جانب ثورة اوكتوبر ، والثورة الصينية ونصرها المبين بعد انتهاء هذه الحرب) . فما هي هذه الحرب العالمية الثانية . هل كانت حرباً بين الاشتراكية والرأسمالية ؟ نعم و لا . لقد كانت حرباً بين الاشتراكية والرأسمالية وتحولت الى حرب بين الرأسمالية وحلف اشتراكي–رأسمالي . كانت حرباً بين الديمقراطية والفاشستية . وكانت حرباً بين الامم. لنقل انها كانت حرباً بين الامم الديمقراطية والامم الفاشستية . وابتداء من ١٩٣٨ ، قامت احدى الدول الامبريالية –المانيا الفاشستية – باستعباد وسحق امم أوروبا : التشيك والسلوفـــاك ، والبولونيين والهولنديين والفرنسيين والدانمـــاركيين والنرويجيين والصرب والكروات واليونان والاوكرينيين والليتوانيين والروس .. ومن النضـــال القومي – في اوروبا ! – انطلقت الاحزاب الشيوعية في فرنسا واليونان وبلجيكا وتشيكوسلوفاكيا والنرويـج وايطاليـا الخ ، واصبحت البروليتاريا او كادت ان تصبح ولاول مرة في التاريـــخ « الطبقة القائدة قوميـاً » في أمم اوروبا المسحوقة قوميـــاً ، وأصبحت الطبقـــة الحاكمة في سلسلة من بلدان اوروبا الشرقيـــة والوسطى . وأصبح زعمـاء البروليتـــاريا ، تيتو وخوجـــه وماركوس وتوريز ولارسن وديمتروف الخ ، زعماء للشعب وزعماء للأمـــة (بدرجات متفاوتـــة وأشكال مختلفـة) ، بله ستالين وماوتسي تونغ . هل كانت هناك اخطاء يمينية في الخـــط ؟ هذا ما اعتقده ، شخصياً . ولكن أن ينتقل الماركسي من تحديد الاخطاء اليمينية الحقيقية او المحتملة (وأن يضيف الى الاخطاء الحقيقية أخطاء وهمية) الى نبذ او عدم فهم

أو عدم تقييم الخط الاساسي – الخط القومي المناهض للاحتلال الفاشستي – فهذا بمثابة قطيعة مع اللينينية ومع الماركسية ، والواقع التاريخي . ان الشيء « المؤسف » ، النقص الفادح ، في تطور الماركسية – اللينينية ، هو – في جملة اشياء ، وبالارتباط مع جملة الاشياء – ان تجربة الحرب العالمية الثانية ، تجربة النازية ونضال الأمم ضد النازية، لم « تؤخذ » في النظرية ، بل وكأنها شيء في التاكتيك وحسب . انها – في رأينا – شيء في الستراتيجية وفي النظرية ، في المعادلة التاريخية للثورة الاشتراكية العالمية ، كما بدأ صياغتها لينين، بالاستناد على ماركس وانجلس (وجميع من قدموا شيئاً مفيداً في تراث الماركسية الخالد) وعلى تحليل واقع الامبريالية (وليس فقط هيكلها الاقتصادي) . وحين تهمل تجربة النازية والنضال القومي ضد النازية ، من السهل ان تهمل تجربة الصهيونية والنضال القومي ضد الصهيونية ...

ولقد ذكرت ستالين . لا ريب ان الستالينية ظاهرة انحطاط وابتذال في الماركسية . وهي في المسألة القومية (منذ انطلاق فكر ستالين « القومي » في ١٩١٣) قصور عن اللينينية (يبقى ثابتاً رغم التطويرات اللاحقة) قصور في الجدل والشمول والترابط والتشخيص والاحكام . ومع ذلك ، نصادف عند ستالين وشراحه نقاطاً ايجابية كثيرة . وقد أشرت مراراً الى ان ستالين قد عدل في ١٩٢٥ الصيغة الاطلاقية الكئيبة القائلة « ان النضال القومي نضال بين الطبقات البرجوازية » . وذهب في ١٩٢٩ ، في اتجاه تأكيد العمق التاريخي للامة ، (مؤكداً قدم عناصرها الاولى : اللغة ، الارض) ، فاسحاً المجال لمقولة « النارودنوست » (الشعب ، القومية ، ما قبل الامة « تمهد الامة » في زمن ما قبل الرأسمالية) على يد المؤرخين السوفيات . وأريد ان اشير ، هنا ، الى خطب ستالين في اعقاب العدوان الالماني على شعوب الاتحاد السوفياتي (١٩٤١) ؟ هل النازيون قوميون Nationaliste ؟ كلا ، انهم ليسوا قوميين . انهم امبرياليون . بالامكان تسميتهم قوميين عندما

كانوا يعملون على جمـــع الاراضي الالمانية (لغوياً وقومياً) . ولكنهم الان امبرياليون ، يريدون سحق الامم الاخرى : الفرنسيين والروس والاذربيجانيين الخ ... وقد ذهب ستالين الى تمجيد أمـــة غوته وبيتهوفن وهيغل وهاينـه وماركس . ودعا الروس الى الاقتداء بأجدادهم العظام : الكسندر نيفسكي ، مينين وبوجارسكي ، كوتوزوف ... لقد حرص ستالين في ذروة العدوان الالماني على حجب الصفة « القومية » Nationaliste عن النازية . هـل كان ذلك مجرد « تاكتيك » . ؟ [1] كان من الاسهـــل والابسط ان يكتفي ستالين بتسعير الشعور الروسي والسلافي ضد الالمان . وقد فعل ذلك ايضاً (ضد الالمان الغزاة) . وفعـله (بدون قيد) الكتاب السوفيـــات (آليكسي تولستوي ، ا هرنبرج ، سيمونوف ، الخ .. ومجد بعضهم شعب المسيح وتولستوي ولينين واهان شعب لوثر وهتلر والشيطان . وانا شخصياً اوافق على ذلك كله (بدون تدقيق زائد) ، واعطي كلام ستالين عن النازية والقومية قيمة مبدئيـة ايضاً وليس فقط تاكتيكية) .

وذكرت **ماوتسي تونغ** . في زمن الحرب القومية الصينية ضد الامبريالية اليابانية ، وحرب حلف الامم الديمقراطية ضد حلف الامم الفاشستية ، وصل ماوتسي تونغ الى اطروحته الاساسية القائـــلة بأن التناقض الرئيسي الاول هو التناقض بين الامبريالية والامة الصينية [2] ، وهو في زمن الغزو الياباني للصين،

---

١ – و « التاكتيك » عند البعض هي « تكتكة » ، شيء مبتذل ، اما عند لينين ، فهي الذروة التشخيصية والشمولية والاحكامية التي يصل اليها المنهج الماركسي .

٢ – التناقض الرئيسي الثاني هو التناقض بين الشعب والاقطاعية . وهناك تناقضات اخرى ثانوية في مرحلة « ثورة الديمقراطية الجديدة » .

بالنسبة لهذه القضايا كلها، انظر ترجمتنا لماوتسي تونغ: الثورة الصينية (١٩٥٥ و١٩٥٨) ، وهو كياومو : ثلاثون عاماً من حياة الحزب الشيوعي الصيني (١٩٥٧) ، دار دمشق .

التناقض بين الامة اليابانية والامة الصينية . وعلى الصعيد النظري ، أكد عراقة الأمة الصينية وشعب هان ، قاطعاً مع تعريف ونظرية ستالين للأمة، فاسحاً المجال للخروج من الماركسية الستالينية ، من نظرية المادية التاريخية الهيكلية والمعممة قسراً، المتخذة شكل هيغلية – مقلوبة (تعاقب الانماط التاريخية الخمسة ، والامة كمقولة تاريخية لعصر الرأسمالية الصاعدة ، تقع على درب اندثار الاقطاعية وانتصار الرأسمالية) .

وماوتسي تونغ يعيدنا الى لينين، وينقلنا الى النقطة الثانية التي اردنا تسجيلها بشأن لينين والمسألة القومية . في ١٩٢٣ في مؤلفه الأخير (الذي اكد فيه ان مستقبل الثورة يتوقف على حجم الروس والهنود والصينيين الخ) ، ذكر لينين «الصدام القادم بين الشرق الثوري والقومي والغرب الامبريالي والمعادي للثورة » .

مرة أخرى ، هذا الشرق ، اي هذه الحركة التحررية لشعوب الشرق ، ليست حركة تحررية وحسب ، او حركة ثورية ، او تقدمية ، او ديمقراطية ، او اشتراكية ، وحسب ، بل هي ايضاً حركة قومية . وهذا اللفظ يتكرر مئات المرات عند لينين ، وهو يميز لينين عن طائفة اخوانه وخصومه « الماركسيين الثوريين » غير اللينينيين في مجادلات ١٩١٦ ، وغيرها .

ولا بأس ان نتوقف عند آراء الشيوعي الهندي الكبير ن . م . روي (١٩٢٠ – ١٩٢٣) لأنها درس ثمين للماركسيين العرب . انها شكل آسيوي شرقي لافكار الماركسية اليسارية « الاقتصادية الامبريالية » .

في المؤتمر الثاني للكومنترن (١٩٢٠) تقدم روي بموضوعات مغايرة لموضوعات زميله لينين حول « المسألة القومية والكولونيالية » . والمشهور ان موضوعات روي تختلف عن موضوعات لينين في ان روي يمحور الثورة العالمية

على آسيا ، على الشرق ، (مبرزاً الانقسام الامبريالي للعالم ودور الامبريالية في شل تقدم الشعوب) ، ويرفض أي نوع من التحالفات مع البرجوازية الوطنية ، مع « الحركة القومية البرجوازية » في بلدان الشرق . ولكن ما هو اقل شهرة من ذلك ان هذا الموقف « الآسيوي – اليساري » لروي يرتبط عنده صراحة بموقف هو اقرب الى « العدمية القومية » . ففي نظره ، الحركة القومية ليست شعبية ، والحركة الشعبية ليست قومية . هناك من جهة الحركة القومية (البرجوازية) ، ومن جهة ثانية حركة « الجماهير » ، حركة « العمال والفلاحين ». روي يسوق هذا الكلام عن الهند وعن الشرق عموماً . ولينين ، واضع نظرية الانقسام الامبريالي للعالم الى امم مستعمَرة وامم مستقرة ، يرد عليه : ما هي قوة الحزب الشيوعي عندكم ؟ ولقد كرر روي آراءه في المؤتمر الخامس للكومنترن (١٩٢٤) . فرد مانويلسكي (وهو من قيادة الكومنترن) ان روي متأثر بالعدمية القومية .

وذكر بأن لينين والبلاشفة الروس في ١٩١٩ رفضوا موقف بوخارين ورفاقه حين دعا هؤلاء الى صيغة « حق الشعوب في تقرير مصيرها » أو « حق تقرير المصير للطبقات الكادحة في كل قومية » ، بدلاً من صيغة « حق الامم في تقرير مصيرها » . وعلى اي حال ، كما يقول مانويلسكي ، كان موقف بوخارين ورفاقه مقتصراً على اوروبا المتقدمة ، اما روي فيضاعف هذا الخطأ اضعافاً بنقله الى بلدان الشرق .

يمكن القول ان روي يتبنى منظور « الاقتصادية الامبريالية » « اليساري » وبطوره « آسيوياً » و (شرقياً) . والقاسم المشترك بينه وبين بياتاكوف ١٩١٦ هو الانطلاق من مفهوم الامبريالية تجريدياً ، و (اليسارية) ، واسقاط المسألة القومية . والفرق هو في ان روي يحول هذا المنظور المشترك « آسيوياً ». واعتقد ان روح روي تخيم على كتابات ومواقف كثيرين من الماركسيين

الجدد في بلادنا العربية [1] .

(ج) عودة الى لينين وروزا لوكسمبورغ

ان اللينينية ، داخل الماركسية الثورية في ١٩١٣ – ١٩٢٣ ، تتميز في هذه المسألة القومية ، بشكلين متكاملين : اولاً ، تأكيدها على المسألة القومية ، وثانياً ، ربطها هذه المسألة باستراتيجية وتاكتيك الثورة الاشتراكية . والستالينية ، عملياً ورغم الالفاظ ورغم مآثرها الحقيقية ، تتراجع في النقطتين معاً ، وتجنح هي ايضاً نحو نفس الماركسية « الطبقية » الهيكلية (التي نصادفها عند معاصري وخصوم لينين « اليساريين ») وان كانت تعطيها لوناً يمينياً (واحياناً تعطيها لوناً « يسارياً ») . وفي زمن ستالين وحتى عام ١٩٥٦ ، احتجبت مناظرات لينين مع «الاقتصادية الامبريالية» وبعض مؤلفاته الاخيرة . بينما مناظرة لينين مع تروتسكي حول الثورة في بلد واحد شوهت وضخمت وخفضت في آن واحد . ليس هنا المكان لدراسة عملية التضخيم والتخفيض والتشويه . ولكنني اريد ان اسجل موقفي كلينيني : ليس صحيحاً ان لينين كان السباق الى اكتشاف كل الحقائق الجوهرية والتفصيلية ، وانه لا فضل لتروتسكي وطائفة ماركسيي اليسار والوسط . تلك حماقة لا يقبلها لينين . ولكن الصحيح ان لينين هو واضع النظرية والستراتيجية والتاكتيك بتكاملها وترابطها وتناميها [2] . فلينين وحده يرفع منهج ماركس الجدلي المادي الى ذروته المنشودة ، كمنهج للشمولية والتشخيص ، يجمع الصفاء العلمي الكامل في تحليل

---

١ – في سنة ١٩٢٥ – ١٩٢٧ – ، طبق روي في الصين سياسة ستالين اليمينية... ثم غادر صفوف الحركة الشيوعية العالمية، وانتهى الى مثقف هندي لامع .

٢ – وهذا ايضاً يصح بالنسبة لماركس والماركسية كلها .

الحالة الموضوعيـــة والتطور الموضوعي ، والايمان القاطع بدور الطاقة الثورية للجماهير وبالتالي للافراد والمنظمات والاحزاب القادرة على تحقيق الارتباط مـع هذه الطبقة أو تلك .

وفي المسألة القومية ، ان الفرق بين لينين وروزا لوكسمبورغ اكبر واعمق واثبت مما يعتقد بسام طيبي . ليس هو فقط في ان روزا « تفصل ميكانيكياً بين الحروب القوميـــة والحروب الامبريالية » ولم تلاحظ « امكانية تحويل الحروب الامبريالية الى حروب قومية تحريرية » (ص ٥٠) - ولينين يؤكد هذه الامكانية حتى بالنسبة للحروب الامبريالية الراهنـــة [١] - بل ايضاً في انها تجنح وتجمح الى الامـــام وراء عصر امبريالي تفهمه تجريدياً (وان كانت آراؤهـــا افضل من آراء « الاقتصاديين الامبرياليين » بكثير) . في نظر لينين ، الحروب الامبريالية يمكن ان تتحول الى حروب قوميـــة ، ولكن الحروب القوميـــة الثورية « تنبثق » أيضاً من العصر ، بدون الانطلاق من الحرب الامبريالية ، وليس ابـــداً من الضروري او من المحتوم ان تتحول الى حرب امبريالية. روزا تفصل ميكانيكياً بين الاثنين (لا ترى امكانية التحول القائمة بالاتجاهين وليس باتجاه واحد فقط) ، وروزا تخلط ولا تميز بين الاثنين. بينما لينين يميز ويربط .

يقول بسام : « وهذه النقطة بالذات (امكانية تحول الحرب الامبريالية الى حرب قومية) لم ترها روزا . ولم تستطع روزا التعمق في دراسة نقد لينين لهـا لانها اغتيلت بقذارة بعد خروجها من السجن بفترة قصيرة وعلى ايدي البرابرة القوميين الالمان » . (ص ٥٠) .

---

١ - ويراسله بعض الرفاق ليقولوا له : « زودتها » فيجيبهم : نعم . امكانية ضعيفة جداً ، كما سبق أن قلت . ولكن ، ماركسياً ، لا استبعدها ولا أنفيها نفياً .

يبقى ان روزا ، وهي في السجن، ألفت كتابها الشهير عن«الثورة الروسية» ومحتواه بعد تأييد البلاشفة الروس ومبادرتهم العظيمة نقد سلوكهم في ثلاث نقاط كبيرة ، احداها مسألة « تقرير المصير » : روزا تعترض على هذا المبدأ بشدة (لا مكان له في العالم الاشتراكي وتحت قيادة البروليتاريا،على حدزعمها)، وتتهم لينين بأنه يصطنع ويخترع قومية اوكرينية وامة اوكرينية مستنداً في ذلك على شاعر شعبي عامي هو تاراس شفتشنكو وبعض الطلبة الاوكرانيين ذوي الرؤوس الساخنة . ولست ادري ما اذا روزا لوكسمبورغ ، لو عاشت سنوات اخرى ، كانت ستغير رأيها . (لا أرى ما يبرر مثل هذا التصور) . ولكنني أعلم ان لينين ، في ديسمبر ١٩٢٢ ، رد بأقصى ما يمكن من الشدة على سلوك بعض رفاقه في المسألة الجيورجية ، وعلى مشروع ستالين حول « الاستقلال الذاتي »، وأسس « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية » المتساوية في الحقوق (بما في ذلك حق الانفصال) ، مثبتاً مرة أخرى ان « تقرير المصير » ليس في نظره شعاراً تاكتيكياً وحسب ، أو انه ليس شعاراً « تاكتيكياً » كما يفهم الاخ بسام هذا اللفظ (ص ٥٠) . ان الكلمة الاخيرة للينين كانت «تقرير المصير»،والكلمة الأخيرة لروزا لوكسمبورغ كانت لا . الاعتقاد ، بعد مضي نصف قرن من التجارب ، بان هذا كله شيء تافه ، يبدو لي بمثابة اذلال للماركسية وللتاريخ . وفي نهاية المطاف ، اذا كانت روزا لوكسمبورغ « من الذع نقاد القومية » (ص ٤٩) ، فان هذا النقد الالذع لا يحل المسائل ، ولا يؤلف الوجه الاوحد ولا الوجه الرئيسي في افكار لينين في المسألة القومية ، ولا في افكار ماركس والمجلس .

والحال ، ان الأخ بسام يعرف كتاب روزا « الثورة الروسية » . ويستشهد بثلاثة نقاط منه (ص ٤٩ ، ٥٠) . ولكنه ، الا يلاحظ ان هذه الحملة كلها التي تسوقها الماركسية الثورية العظيمة على « الامم والشعيبات (تصغير شعب) » التي « ترفع رأسها مطالبة بحقها بتأسيس الدول » ، وهذه الحملة على « الامم

اللاتاريخية التي لم يكن لهـــا قط دولة قومية » ، وهذا الجمع بين « البولونيين والاوكرينيين والليتوانيين والتشيكيين واليوغسلاف وعشرة امـم اخرى في القوقاز » وبين « الصهاينة الذين يبنون مؤقتاً غيتو فلسطين في فيلادلفيا » ، وهذه الحاقة اللاذعـــة المرة القائلة « اننا اليوم نعيش على الجبل القومي ليلة فالبورغيس (فالبورغيس هي ليلة الشهوات والجنون والسكر والبغي في رواية فاوست للشاعر الالماني غوته) » « ص ٤٩ — ٥٠ » هي تمهيـد وتبرير لمعارضة روزا لسياسة لينين والبلاشفة الروس وحكومتهم في المسألة القوميـــة ، وهي تتعدى كثيراً نطاق مأثرتهـــا في معارضة « التفرغ للقضية القومية والاشتراك بالمنازعـات القوميةبين الطبقـــات البرجوازية الاوروبية من قبـــل القوى الاشتراكية » وفي تأكيـــد « ان فكرة الصراع الطبقي تستسلم امام الفكرة القومية » ، وهي المأثرة التي بدأ بسام طيبي بتسجيلها في مستهل المقطع الطويل ذاته ، وكان المقطع كله توضيح وبسط وشرح لهذه المأثرة ؟!

وهذا يذكرنا بما قاله لينين في مساجلته مع روزا لوكسمبورغ في ١٩١٤ حول « حق الامم في تقرير مصيرها » : ان روزا لا ترى سوى الفراك (وهو حزب اشتراكي قومي بولوني برجوازي — صغير ، ومتأثر بالماركسية ، كان يصر على ابقاء منظورات زمن ماركس ، ويصر على تفسير حق تقرير المصير لبولونيـــا بمعنى وجوب انفصال بولونيا) . يكفي ان تقول صحيفـة الفراك « نعم » ، حتى تقول روزا « لا » . ان الفأر لا يعرف عدواً اقوى من الهر (مثل روسي شهير) . وهذا دليل على الاستقلالية ..[1] ولا نعتقد ان لينين — الذي يرفض

---

١ — ولينين لم يكن يخضع للابتزاز الثوري اليساري . فحين كان بعض زملائه من اليسار يقولون له : انك تتكلم مثل كاوتسكي أو مثل مارتوف ، مثل البرجوازية الصغيرة (المغرمـة بحق تقرير المصير بشعارات الديمقراطية ، التي يبتزونها ويشوهونها) كان يرد عليهم : في هذه النقطة ،كاوتسكي على حق، وروزا على خطأ . في هذه النقطة مارتوف على حق ، وبياتاكوف على خطأ . الخ . .

مع المجلس وماركس « مبدأ القوميات البونابرتي » الذي يضع أية أمة صغيرة مع الامم الكبرى أمـام حركة التاريخ الواقعية ، ولكنه في الوقت نفسه يؤيـد « شعار حق تقرير المصير » كجزء من خطة الثورة الديمقراطية والاشتراكية — يوافق روزا على حملتها على « الشعبيات » . ولا نعتقـد ان « ليلة فالبورغيس » القومية تحل المسائل ، أو تساعد في حلها ، بل على العكس من شأنهـا في بعض الاحيان ان تلفلف المسائل .

وكما كان لينين حذراً تجاه الالفاظ الادبية والبديعية (وهي نادرة في اسلوبه) كذلك كان حذراً تجاه الفاظ « العنف » الثوري الكلامي .

ولقد سخر من عبارة رفيقه بياتاكوف ، منظّـر « الاقتصادية الامبريالية » ، حيث قال البولشفي الشاب في تبرير سياسة تأييد نضال الشعوب المضطهـدة (مع رفضه شعار حق الامم في تقرير مصيرها وحق الاوطان المسلوبة والمقهورة في « الدفاع عن الوطن ») : اننا حين نؤيد هذه الشعوب نكون قد كافحنـا « عدونا اللدود : الامبريالية » . ولينين يرد ساخراً : « ان نقطة القوة في هذه الحجة هي في لفظة « لدود » .. إن « قذارة » « البرابرة القوميين الالمان » الذين اغتالوا الماركسية الثورية العظيمة في السجن أو عند نقلها من السجن لا تساعدنا قيد شعرة في فهم الخلاف بين الماركسية الثورية العظيمة وبين الماركسي الثوري العظيم منشىء ماركسية عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالمية ، واضع معادلة الثورة التاريخية. هذه الماركسية ، وهذه المعادلة، يضعها لينين بالاستناد الى تراث ماركس والمجلس الذي يبعثه بصورة دائمة متكررة ، لا سيما في هـذه المسألة القومية . وفي هذه المسألة القوميـة ، تشكل افكار روزا لوكسمبورغ ابتعاداً عن تراث ماركس والمجلس[1] . والى هذا التراث ننتقل الآن .

---

١ — ليس هنا المكان لبحث المجادلة بين فواز طرابلسي وجورج طرابيشي حول لينين —

(٣) انجلس ، ماركس ، السلاف ، الالمان ، الانتاج العالمي والأمم

أ – ما هو خطأ انجلس ؟ الماركسية والبرودونية .

لقد خصص الرفيق بسام طيبي صفحتين أو ثلاثاً لماركس وانجلس والمسألة القومية (ص ٣٧ – ٣٩) مع بعض الملاحظات الإضافية العابرة (ص٤٣). وفي هذه الصفحات يظهر ماركس بالدرجة الاولى كمحلل للانتاج البرجوازي العالمي الكوسموبوليتي ، وكناقد للقومية ، وكمدو للقومية الالمانية « الهمجية البربرية». أما انجلس فقد ارتكب أخطاء فاحشة وسقط في النعالي القومي الالماني وتجنى على الشعوب السلافية . ذلك موضوع يعرفه قراؤنا . لا ريب ان انجلس وقع في

– وروزا لوكسمبورغ والعلاقة بين الوعي الاشتراكي والحركة العفوية (تطرق بسام طيبي الى هذا النقاش بين الكاتبين العربيين بشكل عابر) .ومن المعروف ان تأكيد لينين على الوعي وعلى ان الوعي الماركسي لا ينبثق من الحركة العفوية لا ينفصل عن نضال لينين ضد تيار «الاقتصادية»، هدف كتاب « ما العمل ؟ » ، ١٩٠٢ . كيف لا نربطه إذن بنضال لينين ضد « الاقتصادية» الجديدة ، « الاقتصادية الامبريالية » ؟! الوعي الذي لا ينبثق إنبثاقاً من حركة العمال العفوية ليس هو الوعي الماركسي الهيكلي لفواز طرابلسي ، إنه وعي العادلة المعقدة للثورة الاشتراكية (بما فيها فرعها الممتاز ليلينياً : المسألة القومية ، الذي ينكرها وبشوهها فواز ، الممثل العربي الحديث لتيار « الاقتصادية الامبريالية » ، المطعم تروتسكياً و « صينياً » والتوسريا . والجماهير العربية التي لا يحب فواز وعيها الحاضر هي أبعد منه عن « الاقتصادية الامبريالية » وأقرب إلى منظورات الماركسية – اللينينية ، مادامت هي تتمسك بالمسألة القومية .

أخطاء [1] . ولكن هل هذه الاخطاء التي وقع فيها المجلس اخطاء « فادحة » تكشف « غباء » صاحبها ، على حد تعابير بسام طيبي (ص ٣٩) ؟ وبشكل أدق : ما هو الخطأ الذي وقع فيه المجلس في المسألة القومية ؟ في موضوع الالمان والروس والتشيك والكروات الخ ؟

هل هو في ان المجلس كان ، إبان ثورات ١٨٤٨ ، مع « الالمان » ضد « الروس » و « التشيك » و « الكروات » ؟ أو مع « الغرب » الديمقراطي والبروليتاري – مع الفرنسيين والالمان والطليان والبولونيين والمجريين – ضد روسيا القيصرية و « مخافرها الأمامية » ؟

من الممكن مثلاً ان نفكر كما يلي : كان ينبغي على المجلس ان يؤيد العمال والفلاحين في المانيا وروسيا وكرواتيا الخ ضد الرأسماليين والاقطاعيين في المانيا وروسيا وكرواتيا الخ. ولكن ذلك سيكون تحايلاً على الموضوع الواقعي بشكل قطيعة صريحة مع كل نصوص ماركس ولينين . فقد كانت هناك في ١٨٤٨ وبعدها ثورة ديمقراطية اوروبية ، تحرك ديمقراطي للألمان واللاتين والبولونيين يحابيه الروس ومخافرهم الأمامية. والاختيار واجب بين المعسكرين الحقيقيين (لا بين « الطبقات » و « الايديولوجية » نقصد الوهمية !) في هذا المنعطف التاريخي الكبير ، حيث كان السلاف (باستثناء البولونيين) ذلك الجليد الذي قتل ربيع الشعوب (على حد قول كاوتسكي ، ولينين) .

نعود اذن الى السؤال : هل كان المجلس مخطئاً حين أيد الألمان وشجب « الشعوب الرجعية »؟ اذا كان المجلس مخطئاً في ذلك، من حيث الخط الأساسي، وجب علينا ان ننسب الخطأ الى ماركس ايضاً، والى ماركس أولا ، والى لينين

---

١ – وماركس ولينين وقعا في أخطاء . ولكنني لا أشك في ان اخطاء المجلس أكبر من أخطاء سلفه وخلفه .

ثانياً ، والماركسية – اللينينية كلها .. وان نعطي الحق لبرودون والبرودونية . فقد كانت هذه الخطة ، هذا التكتيك وهذه الستراتيجية ، هي خطة ماركس وجريدته ومجلته « نومي راينشه تسايتونغ » ومقالاته في هذه الجريدة والمجلة في سنوات ١٨٤٨ ، ومقالاته في جريدة « نيويورك ديلي تريبيون » في الخمسينات الخ . وقد أيد لينين خطة المجلس وماركس مراراً وتكراراً ، في ١٩١٤ و ١٩١٦ الخ . بينما عارضها برودون ودافع عن « السلاف » ، عن الشعوب التي « ظلمها » ماركس والمجلس . وليس ما يهمني الآن ان أنحاز على حق وبرودون على باطل . بل الذي يهمني اولاً ان الموقف هو موقف ماركس والمجلس ، وليس موقف المجلس وحده .

وهو ثانياً موقف صحيح [1] . ان البرودونية – هذا الشاهد بالعكس – تقيم تعادلاً تجريدياً بين الامم والقوميات الواقعية . والحال، ان الامم والقوميات ليست متعادلة أمام حركة التاريخ الواقعي . وليس المجلس وحده يدين « مبدأ القوميات » ، بل يدينه أيضا لينين ، أكبر مدافع عن « حق الامم في تقرير مصيرها » . كما يقول لينين ، أن « مبدأ القوميات » يعمل لصالح القيصر ونابوليون الثالث .

أما الرفيق بسام طيبي فلم يذكر خطة المجلس (وماركس) في زمن ثورات ١٨٤٨ (مع الالمان ضد الروس والقوميات السلافية الصغيرة) – ولا ندري بصورة قاطعة ما اذا كان يرفضها – ولكنه ذكر رأياً لانجلس عن التشيك ورأياً « غبياً » لانجلس ضد « مبدأ القوميات » ، وأكد ان انجلس سقط في التعالي القومي الالماني ، وان ماركس قد أدان القومية الالمانية ، وكشف « صفاتها

---

١ – صحيح من حيث الجوهر . وهذا لا يعني أن كل كلمة كتبها أنجلس أو ماركس في تبرير خطة مساندة الألمان وإدانة « الشعوب الرجعية » وتحرك براغ السلافي صحيحة . ولكن يعني أن الخطة ذاتها صحيحة ، وهي الخطة الوحيدة الصحيحة ، من حيث الجوهر .

الهمجية البربرية » . وهي أشياء تدفعنا الى الاعتقاد بأن بسام طيبي يرفض خطة انجلس في تأييد الالمان ضد الروس ومخافرهم الامامية (ان هذه القوميات السلافية ليست « همجية بربرية ») . وهذا رفض لخطة ماركس ايضاً ، ولخطة يؤيدها لينين ، ولمبدأ في ماركسية ماركس ومقالاته الكثيرة في « نيويورك هيرالد تريبيون » (مع الغرب الديمقراطي ضد روسيا الاستبدادية) . وهذا كله قد يكون من حق الماركسي بسام طيبي ، ولكن ليس من حقه ان يحمل المواضيع بهذا الشكل السريع ، وان يقيم هذا التعارض بين ماركس وانجلس . ان ليلة فالبورغيس القومية في أواسط القرن التاسع عشر اسهمت اكبر اسهام في احباط ربيع الشعوب (مؤتمر براغ ووراءه جيش القيصر ، قوات الزعيم الكرواتي جيلاشيش ، ثم لعب عدد من الزعماء القوميين مع نابليون الثالث) . ولكن بطولات التشيك والايرلنديين والبلجيكيين الخ . في زمن الحرب العالمية الاولى (١٩١٦) أسهمت في زعزعة الاوضاع الامبريالية ، وكان يمكن ان تلعب دوراً هائلاً في انفجار الثورة الاشتراكية البروليتارية ، لو جاءت في اللحظة المناسبة ، ولو كانت الماركسية الوسطية واليسارية مستوعبة لمنظورات لينين . ذلك هو موقف لينين الذي أدان « مبدأ القوميات » البونابرتي ، ودافع عن شعار « حق الامم في تقرير مصيرها » ، وهو الشعار الذي أقرته الاممية الثانية (في ١٨٩٦) ، دون ان تتقدم الى ربطه بمنظورات الثورة الاشتراكية لزمن الامبريالية ، لانها سقطت في الانتهازية ولم تفهم العصر الجديد الامبريالي ، بينما رفضه الماركسيون « اليساريون » في رد فعل على الانتهازية و « الاشتراكية القومية » ، وانساقاً وراء مفهوم « الامبريالية » التجريدي والاقتصادي و « الطبقي » واللاقومي .

اذن ، أين كان خطأ انجلس ؟ خطأه الجوهري الاساسي ؟ انه في تأكيد انجلس ان القوميات التشيكية والكرواتية الخ غير قابلة للحياة على المدى الطويل ، وان حركة الصهر الطبيعية التي تلازم التقدم الاقتصادي والحضاري للرأسمالية

ستذوب هذه القوميات الصغيرة « اللاتاريخية » على المدى الطويل (١٨٤٩ - ١٨٥١) . وقد أثبت التاريخ ان الرأسمالية والتقدم والحضارة تبعث هذه القوميات ايضاً وتنميها . وتعلم الماركسيون هذا الدرس : ان صهر الامم ليس بهذه السهولة [١]! وانجلس قد اشتط . ولا اعتقد أن انجلس قد تمسك برأيه حول انصهار التشيك أو سواهم ...

ولكن ما هو مصدر خطأ انجلس ؟ هل كان انجلس في ١٨٤٨ — ١٨٥٢ متأثراً بالتعالي القومي الالماني ؟ حتى وان كان جوابي على هذا السؤال سيثير غضب « المؤمنين » (مؤمنين بماذا!) فإني ابدأ الجواب بالقول : انني لااستبعد ان يكون انجلس ١٨٤٨ أو بعدها متأثراً بالتعالي القومي الالماني . ان انجلس وماركس كانا متأثرين باشياء كثيرة ، عظيمة وغير عظيمة ، ايجابية وسلبية ، وقد يكون من جملتها « التعالي القومي الالماني ». والماركسية كانت قيد التكون، خصوصاً في هذا المضمار . والماركسية ، نوعاً ما هي دائماً قيد التكون . ولكن ان نكتفي بهذا التحليل، وبهذا المصدر للخطأ المذكور هو اهمال لمصادر اخرى، هي الاهم على صعيد المعرفة . والمصدر الذي أقصده هو المصدر المعرفي ، أو النظري ، أو الفكري. ان سير التعرف على الحقائق كان ناقصاً وناقصاً بشكل أساسي . بفضل قوة التجريد العظيمة ، كان ماركس وانجلس قد وضعا مبادىء المادية التاريخية : نمو الرأسمالية ، وصراع الطبقات الحديث ، ومستقبل البروليتاريا، وثورتها . وانها لمأثرة ثانية ، مرتبطة أشد الارتباط بهذه المأثرة الاولى ، ان ماركس وانجلس لم ينسيا، حتى في تلك الفترة الاولى من تاريخ الفكر الماركسي، الثورة الديمقراطية ، والمسألة القومية ، وقضايا أخرى ، وانشآ خطة صحيحة في موضوع الثورتين الديمقراطية والبروليتارية (ظرف اجتماع الثورتين ،

---

١ - الباسك (في جبال البيرينه) موجودون ويتحركون كقومية في أيامنا هذه . والبريتون (في فرنسا) والغايل (في بريطانيا) لم يذوبوا تماماً إلى الآن .

وفكرة « الثورة الدائمة » الخ) . ولكنهما في كل هذه المآثر ، ومع كل هذه المآثر ، اندفعا الى بعض الاحكام المتسرعة ووضعا بعض الصيغ الخاطئة [1] . والحكم المتسرع الذي أصدره انجلس حول مستقبل بعض القوميات السلافية الصغيرة ناجم عن نزعة « وضعية » Positiviste ، « اقتصادية »، « طبقية »، « ديمقراطية »، عند صاحبه. التقدم الغربي سينتصر على التأخر السلافي والشرقي. وهذا صحيح . ولكن هذا التقدم لا يستطيع ان يلتهم القوميات السلافية الصغيرة (والتشيك بالذات كانوا قومية متقدمة حضارياً) . وخطأ انجلس يقودنا – وقد قاد انجلس ! – الى تأكيد اهمية الواقع القومي والمسألة القومية.

ولقد ذكرت ان الأحكام الخاطئة هي اخطاء لانجلس . ولكنني لا انسى ان هذه الاخطاء صدرت في مجلة ماركس ، وان مقالات انجلس عن « الثورة والثورة المضادة في المانيا » صدرت في جريدة « نيويورك تريبيون » بتوقيع ماركس . واذا كنت لا أجد في هذا التوقيع مبرراً لان ننسب رأي انجلس الى ماركس، فإنني بالمقابل لا أجد مبرراً لأن نعتبر ان ماركس كان بعيداً عن رأي انجلس . لسوء الحظ ، ان الرفيق بسام طيبي يجمع هذا الموضوع مع موضوع آخر مختلف، هو احتقار ماركس وانجلس للأوضاع الألمانية والذهنية الالمانية في مؤلفها « الايديولوجيا الالمانية » (١٨٤٦) ، ويتصور ان النص الذي يستشهد به من هذا المؤلف المشترك يجب ان يكون من وضع ماركس ، مادام ماركس كتب معظم نصوص هذا المؤلف (ص ٣٨) . مهلاً يا أخ بسام ! كم أود ان تعود الى مؤلف « الثورة والثورة المضادة في المانيا » لانجلس ١٨٥١ ، حتى ترى ان انجلس ، في هذا الكتاب ذاته الذي « سحق » فيه التشيك

---

١ – يكفي أن نذكر أن ماركس كان يتصور أن الثورة البروليتارية ستنتصر « غداً » . وهذا شيء « معترف » به لدى الماركسيين . ونترك للأعداء أن يهزأوا بكلمة « معترف » ، ونهزأ معهم إذا شاؤوا ، (ونهزأ منهم) .

والكروات والجامعة السلافية ، لايتسامح ابداً مع الاوضاع الالمانية والذهنية الالمانية .

وأود أن ابدي ملاحظة بشأن مؤلف « الايديولوجيا الالمانية » لماركس وانجلس . هذا المؤلف الذي وضعه مؤسسا الماركسية في ١٨٤٥ مؤلف ثمين في تراث الماركسية الخالد . انه أول مؤلف « ماركسي » (المؤلفات السابقة هي مؤلفات « الشباب » ، مؤلفات الاختمار والنشوء ، قبل تكون مبادىء المذهب الجديد) . انه أول مؤلف ماركسي ، او .. تقريباً . ومن الخطأ ان نقدس كل نصوصه ، وان نعتبر أن اية فكرة وردت فيه عن موضوع من المواضيع ، هي الحكم الاخير لماركس وانجلس في هذا الموضوع . ولقد حدث ان آلتوسر (الفيلسوف الماركسي الفرنسي الكبير الذي يستشهد به فواز طرابلسي وكأنه من أعلام الماركسية ، الى جانب ماركس ولينين وماوتسي تونغ) استشهد بمقطع من هذا الكتاب موجه ضد « الفلسفة » و « تاريخها » ، ثم عاد وتراجع معلناً ان هذا الحكم لم يكن حكم ماركس الأخير وهو مخالف للماركسية [1] . ولنقل أن حكم الماركسية في موضوع علاقة المانيا والفلسفة والثورة وهيغل والماركسية الخ لا يمكن ان نكونه من نصوص « الايديولوجيا الالمانية » وبعض المؤلفات اللاحقة ، بل علينا الوصول الى « رأس المال » (١٨٦٧) وما بعد « رأس المال » . ان المانيا هي وطن الماركسية و « لولا الفلسفة الالمانية ، لولا هيغل ، لما كانت هناك إشتراكية المانية ، الاشتراكية العلمية الوحيدة » ، على حد تعبير انجلس ولينين . والماركسية ولدت في ألمانيا لان ألمانيا كانت ايضاً حبلى بثورة ديمقراطية ، والمسألة القومية الالمانية (الوحدة !) جزء من هذه الثورة الديمقراطية . وألمانيا هذه تعيسة وسخيفة (برجوازية – صغيرة الخ) وعظيمة . وليس عبثاً ان ولد

---

١ – هذا التأكيد والتراجع وردا في كتاب آلتوسر « من أجل ماركس » ، وهو سلسلة دراسات نشرها آلتوسر في مجلة « الفكر » وغيرها .

ماركس وانجلس في وطن غوته وبيتهوفن وفيخته وهيغل وفويرباخ . في مرآة الرفيق بسام طيبي ، لا تبدو ألمانيا هذه إلا في صورة بلد تعيس برجوازي صغير ، سكانه قوميون ضيقون ومؤهلون أو تقريباً للنازية . وهذا خطأ كبير .

ولقد تجنب ستالين هذا الخطأ. وذكر ان اللينينية ولدت في روسيا التي كانت حبلى بثورتين ديمقراطية وبروليتارية ، كما ان الماركسية ولدت في المانيا التي كانت حبلى بثورتين ديمقراطية وبروليتارية [1] .

ب – ماركس والمانيا والوحدة البسماركية

والشيء الذي يؤسف له أكثر من ذلك ان الرفيق بسام طيبي ، عدا هـذا الهجوم على انجلس وهذا التنديد بالقومية الالمانية البربرية المنسوب الى ماركس ، (وبالارتباط معها) ، قد اكتفى ، بالنسبة لموقف البروليتاريا السياسي من المسألة القومية ، بصيغة « البيان الشيوعي » : « ان العمال لا يعرفون وطناً لهم ، ولا يستطيع الانسان أخذ شيء منهم هم لا يملكونه » . (وجاءت هذه الصيغة ، بعد نقل بسام لجمل موجهة ضد ضيق الفكر القومي والتعالي القومي والبرجوازية الصغيرة) .

هل هذا كل شيء في موضوع موقف البروليتاريا من المسألة القومية عند ماركس ؟ هل ينتهي هذا الموضوع عند « البيان الشيوعي » وسنة ١٨٤٨ ؟ [2] إن الصيغة المذكورة صيغة أساسية ، صائبة ، .. وتجريدية . تجريدية بأي معنى ؟

---

١ – أنظر « مبادىء اللينينية » ، الفصل الأول .

٢ – هذا السؤال ذاته يطرحه لينين على رفاقه الذين استشهدوا بصيغة البيان (في مناظرات ١٩١٦) .

ان ما يتبادر الى ذهن قرائنا وقراء الرفيق بسام طيبي هو « العالم الثالث »، أو عالم المستعمرات في آسيا وافريقيا الخ ، وربما ايرلندة (التي ذكرها بسام في مكان آخر ، بشكل عابر) . ولكن نريد شيئاً آخر . نريد أن نعود إلى المانيا.

ماذا كان موقف زعيم البروليتاريا العالمية، رئيس الأممية الاولى ، من الوحدة القومية الالمانية ؟ لا سيما في سنة ١٨٧٠ ؟ هل كان معها ؟ هل كان ضدها ؟ هل كان بين الموقفين ، أو ضدها ، أو فوقها ؟

لا ريب ان القارىء الذي طالع مؤلفات لينين الكلاسيكيـــة (تكفي الكلاسيكية !) عن المسألة القومية يعلم مبدئياً ما هو موقف الماركسية الحقيقي من الحركة القومية .

ان دور صعود الثورة الديمقراطية البرجوازية هو دور صعود حركات قومية جماهيرية تقدمية ، من أجل الاستقلال والسيادة والوحدة القومية . والماركسية تساند هذه الحركات وتنتقدها ، تساندها أولاً وتنتقدها ثانياً . ولا حاجة هنا لأن يكون الأمر شرقياً أو ايرلندياً . يمكن ان يكون ايطاليـاً أو ألمانيـاً أو فرنسياً . وهناك كتابات أخرى للينين تلقي ضوءاً اضافياً .

فلنرجع إلى سؤالنا : ما هو موقف ماركس من الوحدة الألمانية ؟

ان انجلس في كتابات ١٨٤٨ — ١٨٥٢ دعا الى هذه الوحدة بأقصى مايمكن من الحماس ، حمل بشدة على التجزئة الألمانية التي « تمزق جسد الأمة وتبـــدد طاقتها » ، ودعا الى الحرب ضد اعدائهـا ، واستثار في ١٨٥٩ الحمـاس القومي للالمان ضد نابوليون الثالث والقيصر الروسي (على حـد تعبير لينين في رسائل ١٩١٦) الخ .

ولكل هل كان ماركس مخالفاً لذلك ؟

ان الرسائل المتبادلة بين ماركس وانجلس أيام حرب ١٨٧٠ تبدد كل التباس

حول إمكانية وجود أي خلاف بين الصديقين ، في هذا الموضوع . على حد تعبير ماركس وانجلس :« ان المانيا تلعب في الحرب وجودها القومي » (ضد باريس وضد بطرسبرج عدوتي الوحدة الالمانية) . « إن بسمارك يقوم بجزء من عملنا[1]. ويسخر ماركس وانجلس من مواقف صديقهما فيلهلم ليبكنشت (« الحياد » ، وضع محاربة بسمارك فوق الوحدة القومية للالمان، مفهومه عن الهجوم والدفاع).

ترى هل انساق ماركس ، بشكل عابر ، وراء التعـــالي القومي الالماني ، تحت تأثير عنجهية نابوليون الثالث ورجاله و « جمهور باريس » (حكومة باريس أصرت على اذلال برلين في قضية خلافة العرش الاسباني) ؟

كلا ، على ما يبدو ، ان هـــذا الموقف الالماني « القومي » (!) هو الموقف الثابت لماركس في مقالاته في جريدة « نيويورك تريبيون » في الخمسينات حتى ان صاحب الجريدة كتب إلى ماركس يشكره ويثني على مقالاته ثناءاً كبيراً ولكنه يأخذ عليها « شيئاً واحداً فقط » هو «ان ماركس يبدي اهتماماً زائداً بأمتـــه الالمانية ويتحامل على الفرنسيين والروس » . وكان ماركس قد كتب ذات مرة يعرف «سياسة فرنسا التقليدية منذ عهد ريشوليو إلى عهد نابوليون الثـالث » : هذه السياسة هي منع وحدة المانيا ووحدة ايطاليا ، المحافظـــة على أوضاع التجزئة البغيضة التي تمزق الأمتين العظيمتين في وسط اوروبا ، على حدود فرنسا

---

١ – أنظر ماركس وانجلس : الرسائل المختارة ، جزء واحد ، طبع موسكو ، باللغـــة الانكليزية، ١٩٥٥ (؟)، مطابق للطبعة الروسية ١٩٥٣ . أن رسائل ١٨٧٠ غنية بالمضامين: بسمارك والبلاط البروسي والاقطاعيون والرأسماليون وجمهور الشوفينيين شيء ، ومصلحة الأمة الالمانية شيء آخر . ومصلحة الأمة الألمانية هذه هي الوحدة . وإذا التقى الشيئان على الوحدة ، فهذا لا يغير شيئاً في كون الوحدة ضرورية لألمانيا وللتقدم . ولقد كان ماركس داعياً لاحتمال أن تقوم المانيا المنتصرة بضم الالزاس – لورين ، ولكن هذا الأمر الذي يعارضه ماركس وانجلس منذ البدء لا يعادل قضية التجزئة والوحدة القومية الألمانية .

الغربية[1] . وقد كان صاحب الجريدة الاميركية « لطيفاً » بالمقارنة مع باكونين وبعض البرودونيين الفرنسيين الذين روجوا في ١٨٧٠ شائعة مفادها ان «ماركس عميل لبسمارك » . . .

ان الرفيق بسام طيبي يجهل هذا الموضوع . وقد أفهم منطق مجادلته ولكنني لا أبرره . ان بسام طيبي يتجادل مع الستالينية المحلية (وبعض خصومها الذين ليسوا بعيدين عنها في هذه المسألة القومية ، وفي قضية الوحدة العربية) . وهو يقول لهم : ان الحركة القومية العربية ليست الحركة القومية الألمانية . حركات الامم المستعبدة في العالم الثالث تختلف جوهرياً عن الحركات القومية الاوروبية . القومية في الشرق تقدمية ثورية موجهة ضد الاستعمار والامبريالية . والقومية في اوروبا القرن التاسع عشر قومية برجوازية ، خدعة و « تعويض ».

والرفيق بسام طيبي على حق ، الى حد كبير ، وقد كتبنا ذلك أو مايشبهه مراراً ويجب ان نكتبه ايضاً وايضاً . ولكن هذا الشيء الصحيح — بعد تهذيبه — لا يكفي . الحركات القومية (البرجوازية) في اوروبا (في اوروبا الغربية والوسطى) لم تكن دائماً خدعة وتعويضاً . هناك دوران تاريخيان في تاريخ هذه الحركات القومية ، وكل حركة منها . ووجود عناصر الخداع البرجوازي والتعويض في الدور الاول ايضاً (ضد الانقسام الطبقي داخل الامة) لا يسقط الطابع التقدمي الجوهري العظيم عن الحركة القومية في هذا الدور[2].

---

١ — على ما يبدو ، ان ماركس ، زعيم البروليتاريا العالمية ومؤلف « رأس المال » ، لم يكن يترفع على حقائق التاريخ القومي، على حقائق التاريخ . ولو كان يترفع لما كانت هناك ماركسية. وهذا ، في نظرنا، جزء مكون في الماركسية ، مثله مثل « رأس المال » أو « البيان الشيوعي».

٢ — معارضة التشيك والكروات في ١٨٤٨ (ورفض « مبدأ القوميات » البونابرتي) نبعت من وجوب إخضاع الجزء (مسألة القوميات) للكل (الثورة الديمقراطية الأوروبية) . وماركس والمجلس يؤيدان وحدة ايطاليا، رغم لعب نابوليون ، وضد لعب نابوليون. ويؤيدان الوحدة الألمانية ، رغم زعامة بسمارك لها، وضد تقاعس بسمارك(تؤدده لبطرسبرج وباريس)،—

والصفة البرجوازية للحركة القومية (ولكل حركة قومية ، نوعاً ما ، حتى الفترة الأخيرة من التاريخ) ليست مرادفة للشيطان أو لخمرة مالك .

وحين يكتب عزيز الحاج (١٩٥٨) ضد « الوحدة العربية البسماركية » بزعامة (الطامح البروسي المصري) ، فإنه يرتكب خطأ كبيراً : لا مجال لبسمارك في الشرق العربي والقرن العشرين . وبسمارك الرجعي الاقطاعي الرأسمالي الخ لم يكن، على حد علمنا، عميلاً للاستعمار الانكليزي أو الفرنسي أو الروسي . ولكن يجب ان نقول ايضاً: ان ماركس لم يكن ضد الوحدة الالمانية البسماركية . كان معها . « ان بسمارك يقوم بجزء من عملنا ». ولا أشك ان هذا كله يفاجيء عزيز الحاج . ان « عملنا » (عمل ماركس وانجلس) ليس عملاً . ولعله الآن صحح معرفته لماركس والماركسية في هذه النقطة ايضاً . ليس ذلك بالأمر السهل .

ورب قائل : ان ماركس كان مع الوحدة الالمانية وضد بسمارك . أجل ، أجل ما في ذلك ريب .. ولكن علينا ان لا نتحايل على الموضوع، وان لا نهرب من السؤال المحدد : هل كان ماركس مع هذه الوحدة الالمانية البسماركية القذرة الخ لعام ١٨٧٠ ، هذه الوحدة الملموسة غير النظرية ، بحسناتها وسيئاتها ، بتقدميتها ورجعيتها الخ الخ ، أي هل كان ماركس مع مبدأ الوحدة حتى البسماركية ؟ لا مفر من الجواب: ان بسمارك الرجعي جداً الاقطاعي ـ الرأسمالي ـ العسكري الخ لم يكن على ما يبدو رجعياً على طول الخط . فهو يحقق جزءاً من عملنا . وعلى كل حال، وأياً كانت نوايا ومصالح السادة رجال برلين وشوفيني الجنوب وكبار كبار الرأسماليين ، نوايا ومصالح الحكم الاقطاعي والرأسمالي ، فإن المانيا لا تلعب في الحرب مصالحها القومية وحسب ، بل تلعب ايضاً

ـ « مبدأ القوميات » هو « حق تقرير المصير » لصالح القيصر وناپوليون الثالث. وحق تقرير المصير بند من بنود الأممية الثانية والبلاشفة الروس ، في زمن جديد .

وجودها القومي.. ونحن مساكين، خصوم بسمارك و « عملاؤه » ! ان وحدتنا في ١٩٥٨ – ١٩٦٨ – ١٩٩٩ ليست كالوحدة الالمانية السافلة الخ لعام ١٨٤٨ – ١٨٧٠ . وماركس كان حتى مع تلك الوحدة الالمانية السافلة . وأنا شخصياً مع حتى وحدة محمد علي باشا وابراهيم باشا وضد اتحاد « السنة والشيعة والدروز والمسيحيين » في كنيسة مار الياس في بلدة انطلياس ، ووراءهم ومعهم انكلترة والسلطان وكل « الدول » أو تقريباً ، في وقت لم يكن فيه لا بترول ولا قناة السويس ولا اسرائيل ولا بروليتاريا عربية [1] .

كلمة أخيرة : ان المانيا ١٨٥٠–١٨٧٠ ليست عرب القرن العشرين، فالوطن العربي وطن مضطهد مسحوق . ولكن المانيا ١٨٥٠–١٨٧٠ ، في عرف ماركس وانجلس ومفرداتهما ، هي ايضاً مضطهَدة « قومياً » ، ولو بشكل غير مباشر. التجزئة الالمانية ، لا سيما في القرن التاسع عشر ، ليست بنت « قوانين التاريخ الموضوعي » ، بل هي ، او هي ايضاً ، بنت السياسة الدولية ! وهذه التجزئة وضع اضطهاد قومي . والتجزئة العربية واحوال العرب وضع اضطهاد قومي اكبر بمدة اضعاف . وكل تحليلات ومواقف واقوال ماركس وانجلس تثبت صحة الشعور الغريزي والفهم الاولي للعرب : التجزئة وضع اضطهاد قومي تفرضه الامبريالية ، وانصارها « التقدميون » و «الثوريون» و « الماركسيون»(!!)، ايا كانت حججهم ، اعوان للامبريالية «موضوعيون»، لانهم حملة نزعة « ماركسية كاريكاتورية » دونها تيار « الاقتصادية الامبريالية » لعام ١٩١٦ .

---

١ – جريدة « النور » ، في أوائل عهد الوحدة (١٩٥٨) ، كرست مقالا تاريخيا لحملة ابراهيم باشا : كيف ان الشعب السوري حمله على الأكف ثم طرده بالحجارة . ليس رجماً بالغيب، بل استنطاق لرفات مار الياس الحي ، أو بالأحرى لعظام السر ريتشارد وود (خبير لغات وسياسات الشرق الأدنى ، بين الأستانة وكردستان وبيروت) .

جـ – ماركس والانتاج العالمي : هل الامة مفهوم سوسيولوجي لا وجود له في الحقيقة ؟

لقد كرس الرفيق بسام طيبي لماركس والقضية القومية صفحة واحدة (ص٣٧–٣٨) وبالحقيقة تضمنت هذه الصفحة أشياء اخرى ايضاً – وفي هذه الصفحة ، ذكر أقوال ماركس العظيمة الأهمية حول الصناعة الحديثة والانتاج الحديث الذاهب في اتجاه العالمية (الكوسموبوليتية) . ولكن ما دام الأخ بسام قد تطرق الى هذه العالمية ، أما كان من المفيد ان يشير إلى وجه آخر في كتابات ماركس ؟

ان « العالمية » تأخذ عند غالبية الماركسيين في بلادنا معنى ناقصاً وخاطئاً (معكوساً) ، حيث تؤول باتجاه التساوي والتماثل داخل العالمية ، داخل « الانتاج العالمي » و « التاريخ العالمي » . والمعروف ان لينين في خطه الرئيسي ذهب في اتجاه تأكيد جانب عدم التساوي (« ان قانون تفاوت النمو .. قانون مطلق للرأسمالية » ، وهو يظهر بشكل حاد في عصر الامبريالية ، ولينين يؤكده في عام ١٩١٥ وعام ١٩١٦ [١]) . ولكن كتابات ماركس لا تخلو من هذا الجانب ذاته . وما دام الرفيق بسام قد تطرق الى هذا الموضوع في كتابات ماركس ، وبصدد المسألة القومية (وهو على حق) كان يجب عليه – بصدد هذه المسألة القومية ! – ان يأخذ الوجه الآخر :

---

١ – ضد تروتسكي وشعار « الولايات المتحدة الأوروبية » وضد اتجاه تقليدي في الماركسية . عند ستالين ، هذا التفاوت يسند فقط مبدأ انتصار الثورة وبناء الاشتراكية في بلد واحد . عند لينين ، انه أوسع بكثير ... وترتبط به المسألة القومية ايضاً .

١) تفنيد ماركس السافر لمنطق دعاة نظام التبـــادل الحر في ١٨٤٨ [١] حيث قال ماركس : ان هؤلاء يتصورون ان هذا النظام يقيم لكل أمة الانتاج الذي يتلاءم مع طبيعة بلادها . والحال ، قبل قرنين ، لم تكن الطبيعة التي لا تعنى بالتجارة قد وضعت في تلك البلاد (الهندالغربية) لا شجرة البن ولا قصب السكر .

٢) تحليل ماركس لظاهرة الاستعمار ـ كجزء من عمليـة التراكم الأولي لرأس المال ـ في الجزء الأول من« رأس المال » الخ . هذا التفنيد وهذا التحليل وكتابات أخرى « تكمل » بشكل طبيعي صورة آراء ماركس في موضوع تأثير الانتاج العالمي على الأمم ، أي صورة عالميـة الانتاج الرأسمالي الحقيقية في الفكر الماركسي ، وهي منطلقات لا غنى عنها في ما يسميه الرفيق بسام (ونسميه معه) « ثورة العـــالم الثالث » . والاستغناء عن هذا الجانب يساعد على النزوح نحو صيغ العدمية القومية في زمن عالمية الانتاج وصراع الطبقات الحديث .

وهذا ، على ما اعتقد ، ما حصل مع الرفيق بسام طيبي .

يقول الرفيق بسام طيبي في معرض حديثـه عن آدلر ، ان الماركسي النمسوي الكبير قد اعاد الحياة الى النظرية القائلة ان مفهوم « الأمـــة » كمصطلح سوسيولوجي لا وجود له في الحقيقة ، بمعنى انه لا توجد وحدة قومية للامة لان الامة تتألف من طبقات عديدة متصارعة ولا تشكل وحـــدة قومية واذا كانت هناك وحدة فانها وحدة المتناقضات وليست الوحدة القوميـة التي يدعي بها حملة الفكر البرجوازي الذين يريدون اظهـار مصالح طبقتهم كمصالح

---

١ ـ ذكرت ذلك في نهاية دراستي « الستالينية والمسألة القوميـــة » ، في الفكر السياسي ، شباط ١٩٦٣ .

الامة بأجمعها » (ص ٣٩) .

أقف عند هذه الصيغة ، ما دامت تتعلق بالماركسية ، أي بماركس ، وليس بآدلر وحده ، وأحاول ان أتميز فيها الخطأ والصواب .

لا أعتقد ان ماركس قال ذات مرة « ان مفهوم « الامة » كمصطلح سوسيولوجي لا وجود له في الحقيقة ... » . فالامم موجودة في الواقع ، « في الحقيقة » ، وموجودة تماماً [١] . واذا كان هناك مثل هذا القول عند ماركس ، فانه سيكون في رأيي قولاً خاطئاً ، ويتعارض مع أقوال كثيرة لماركس ، ومع كل خط تفكيره وعمله . وقد أدان ماركس موقفاً شبيهاً عند صهريه الفرنسيين لا فارغ ولو نفه (ونص هذه الادانة يذكرنا بأن حكم ماركس على سخافات الفرنسيين ليس أقل شدة من حكمه على سخافات الالمان ، ١٨٦٦ . وقد ذكر لينين هذه الادانة مراراً) . وهذا القول هو موقف العدمية القومية : الامم لا وجود لها . الوجود هو للطبقات الاجتماعية . وهذا انسياق خاص وراء عالمية الانتاج والعصر ، ولكنه في جوهره مناقض لهذه « العالمية » مفهومة فهماً صحيحاً ، ماركسياً — لينينياً ، على ضوء كتابات ماركس ولينين . كما ان الاطار القومي للانتاج يحدد الاختلاف بين مصالح الطبقات داخل الامة ، كذلك فان الاطار العالمي للانتاج يحدد الاختلاف أيضاً بين مصالح الأمم داخل العالم [٢] . وعناصر أو علائم الامة (اللغة ، الارض ، التكوين النفسي ، الخ) ليست مجرد مصطلح سوسيولوجي الخ ، بل ان هذا المصطلح السوسيولوجي (ككل مصطلح علمي) يتطابق مع شيء في الواقع الموضوعي . و« الطبقات العديدة المتصارعة » « تشكل وحدة قومية » . وكل وحدة هي « وحدة المتناقضات .. » ولا معنى اذن بـ « اذا »

---

١ — اذا انتقلنا من أرض « الكينونة » الى ارض « الصيرورة » ، لاحظنا ان هذه الكينونة — الصيرورة القومية او الصيرورة — الكينونة القومية تعيش مئات السنين .

٢ — على وجه الضبط ، التوحيد العالمي الرأسمالي هو الذي يطرح هذه المشكلة ، ابتداء من القرن الخامس عشر ، وبالاحرى في القرنين التاسع عشر والعشرين . ويطرحها على نحو متزايد .

في العبارة القائلة « اذا كانت هناك وحدة فانها وحدة المتناقضات ..» فالمطلوب ان نقول ما اذا كانت هناك وحدة أم لا . والجواب : هناك وحدة « قومية »من هذه « المتناقضات » .. والماركسية في فهمها للواقع وفي خطتها التاريخية ،تعطي الاولية للطبقات ، للانقسام الطبقي، ولكنها لا تنفي الامم والانقسام الى أمم. والماركسية ، وبالاحرى اللينينية ، لا تفهم هذه الاولية بشكل تجريدي ،وهي يمكنها ان تعطي ، في بعض الاحيان ، الاولية للامة (ماوتسي تونغ ،١٩٣٩). واذا كان « حملة الفكر البرجوازي يريدون اظهار مصالح طبقتهم كمصالح الامة بأجمعها » فإن حملة الفكر البروليتاري لن يخدموا البروليتاريا ما لم يتبينوا ويبينوا ان مصالح البروليتاريا هي أيضا مصالح الامـــة ، مصالح ٩٥ ٪ من أبنائها في « شرقنا » (تعبير « شرقنا » للينين) ، أي المصالح القومية (على ما في هذه المصالح القومية من تناقضات)[1] . والمجلس قد فهم هذه الحقيقة في مواقفه ونصوصه (ولاسيما في مقدمتـــه الاخيرة للطبعة البولونية عن « البيان الشيوعي ») .

واذا كانت البرجوازية تجعل من « المصلحة القومية » خدعة للبروليتاريا ، واذا كانت البرجوازية الصغيرة تزيف « المصلحة القومية » بنسيانهـــا الطبقات داخل الامة ونسيانها صراع الطبقات كله والامبريالية وواقعها الجوهري ، فان ذلك لا يعني بأي حال – وفي اطار الانتاج العالمي الواحـــد ، والدخل العالمي الواحد ، الموزع على الامم أيضاً ، وليس فقط على الطبقات – انه ليست هناك « مصلحة قومية » في الوجود الحقيقي ، وان المصلحـــة هي فقط للطبقات (والطبقات مفهومة قطريا وحسب !) . ان نصوص ماركس والمجلس ولينين وماوتسي تونغ وعشرات الاخرين تتحدث عن« المصلحة القومية »، وليس فقط في شكل نقد وفضح للمصلحة القومية البرجوازية ، التقدمية (مع عنصر التزييف والخداع اللاطبقي) ، ثم الرجعية (على أساس هذا العنصر ذاته ، وعلى أساس

---

١ – واذا كانت صيغة« الصراع الطبقي الدولي »تحجب عنا هذه الاشكالية وحلولها ، فالافضل ان نتخلى عن هذه الصيغة .

التوسع الاستعماري والامبريالي) بل أيضاً في شكل مفهوم ايجـــابي موضوعي وحقيقي للمصلحة القومية . واذا كانت هذه العناصر الموجودة بشكل واضح في فكر ماركس وانجلس ولينين لم تعط الاهتمام الذي تستحقه في زمن سابق ، فان الزمن الحاضر يفرض علينا بعثها دون تلكؤ ، بدلاً من دفنهـــا انجراراً وراء ماركسية الغرب بما فيها (وربما خاصة) مجلات الجماعات الصغيرة التي ترفع لواء « الماركسية اليسارية » ضد « الماركسية الرسمية » واحزابها الكبيرة .

(٤) ملاحظات أخرى

أ – هل كان انجلس الكهل اصلاحياً ؟

لقد تحامل الرفيق بسام طيبي على انجلس . وأنا اعتقـــد ان انجلس له اكثر من خطأ . وهو مقصر عن صديقه ومعلمه ماركس في الديالكتيك [1] واشياء أخرى ... ولكن فضله في الماركسية ، في نشوئها وتطورهـــا ، فضل لا يمحى . ان روزا لوكسمبورغ وكاوتسكي وريـــنر وتروتسكي وستالين الخ ماركسيون ، ماركسيون جيدون وسيئون. ولكن ، أياً كانت مآثر هذا وذاك في هـــذه القضية وتلك من قضايا الماركسية (وفي الماركسية ككل) ، فان انجلس أعلى منهم جميعاً : انه أحد أعلامها الثلاثة ، بين ماركس ولينين ، واحد مؤسسيها. واحدى مآثره الخالدة اهتمامه بالمسألة القومية ، بالالمان والايرلنديين والبولونيين الخ ، اهتمامه بالأمة من حيث انها عامل تقدم واعاقة في التاريخ ، اهتمامه بتاريخ الامم . ذلك ميدان واسع ولجه انجلس ، وولجه اكثر من زميله

---

١ – ولينين ملاحظة بهذا الشأن ،عن انجلس وبليخانوف .أنظر مقاله الكلاسيكي « حول الديالكتيك » (في ترجمتنا : لينين : مختارات ، دار دمشق ١٩٥٧ ، أو لينين : ماركس ، انجلس ،الماركسية ، موسكو ، باللغة العربية) .

ومعلمه . وأحد جوانب المأثرة كونـــه ربط – في حدود ممارسة العصر – ديناميكية المسائل القومية الساخنة باحتمالات الثورة الاشتراكية في اوروبا ، ربطا سار صعوداً وتصويباً . وهذا العنصر الثمين تلقفه لينين ونشره بصورة ثابتة متكررة وطوره و « أخذه » في نظرية تحول الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية ، في نظرية الثورة الدائمة المنبسطة في المكان والزمان ، تاريخياً وعالمياً ، في زمن الامبريالية وحربها العالمية والثورة الاشتراكية .

ولقد اشار الرفيق بسام طيبي الى ان انجلس الكهل قـــد مال الى النزعة الاصلاحية ، ولكن دون ان يتوقف عند هذا الموضوع لأنه « ليس بموضوعنا هنا » (ص ٣٩) ومن الواضح ان هـــذا الموضوع اخطر من أن تساق بصدده ملاحظة عابرة . « ان انجلس ألف بعد وفاة ماركس عدة كتب كانت منطلقاً نظرياً للحركة الاصلاحية في الاشتراكية الاوروبية » (ص ٣٩) .

هل المقصود رسائل انجلس الموجهة ضد الابتذال «الاقتصادي» للماركسية؟ لا أعتقد ان هذه الرسائل تشكل تراجعاً عن الماركسية الثورية . وبالعكس ، وبقدر ما هي ضد الابتذال « الاقتصادي » . وواقع ان التحريفيين اتخذوها منطلقاً لا يبرر هذه التهمة . فالرسائل شيء وتأويل التحريفيين لها شيء آخر . واذا كان بعض التحريفيين قد انطلقوا في مسيرتهم التمريفية من تأكيـد أهمية « العوامل » الأخرى ، «غير الاقتصادية » (بالاستناد الى رسائل انجلس) ، فان ذلـــك لا يمكن ان ينسينا ان الماركسية عانت الأمرين على يد اولئك الماركسيين الذين نزحوا باتجاه الحتمية الاقتصادية (مثلاً لا فارغ) . ولينين لا يمتاز بتأكيد على « العامل » الاقتصادي في مواجهـــة هؤلاء التحريفيين (ولاتروتسكي !) . ولعل افضل ما قيـــل عن « العوامل » ما كتبه جورج بليخانوف . وبالطبع ان رسائل انجلس لم تحل كل المشاكل النظرية . ولكن ، هذا موضوع آخر .

لعل ما يقصده الرفيق بسالم طيبي الوثيقـــة التي تعرف أحيانا باسم وصية انجلس ، وهي المقدمة الاخيرة التي كتبها في أوائل ١٨٩٥ لمؤلف مـــاركس

القديم عن « صراع الطبقات في فرنسا » . من المعلوم ان هـذه الوثيقة قد شوهها اصدقـــاء انجلس (من الماركسيين غير التحريفيين) الذين كانوا يشرفون على صحيفة الحزب في المانيا ، حيث بتروا منها بعض المقاطع والجمل قبل نشرها في الصحيفة ، مما اظهر انجلس بمظهر رجل محب للسلم والشرعية بعيد عن الثورة والعنف الثوري . والمعلوم ايضاً ان انجلس قد احتج على هذا البتر والتشويه . وأكد ان التاكتيك السلمي الذي يقول به هو تاكتيك لالمانيا وفي اليوم الحاضر ، ومن الممكن ان تتغير الظروف في صباح اليوم التالي ... وأنا اعتقد ان هـذه الوصية او الوصية المزعومة ليست من افضل ما كتبه انجلس . ولكن نقطة الضعف فيها ليست « الاصلاحية » . واشكالية الثورة الاشتراكية لا تنحل في ثنائية « الاصلاحية » و « الثورية » . والتحريفية والانتهازية كلها ليست محض « اصلاحية » . ان نقطة الضعف في مـــا يسمى « وصية » انجلس هي سقوط فكرة الثورة الدائمة واشكاليتها المعقدة ، نقصد فكرة نمـــو وتحول الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية . هذا التراجع من انجلس ١٨٩٥ عن منظورات ماركس وانجلس ١٨٤٨ – ١٨٥٢ يحدث في اطـار تاريخي جديد ، في ظرف المانيا (واوروبا الغربية) التي اكملت ثورتهـا الديمقراطيـــة البرجوازية او تقريباً . والخطأ قائم بقدر ما تشكل هذه الوثيقة « تنظيراً » « وتعميماً » .

اذا كان هناك مشكلة اسمها انجلس الكهل [1] ، فان هذه المشكلة ترتبط بتطور الرأسمالية العالمية والمجتمعات الاوروبية وحركة العـــمال ، وحملة بسام العابرة لا تساعد على حلها .

ب – هل كان جوريس اليميني « قومياً استعمارياً » ؟

حمل الرفيق بسام طيبي بصورة متكررة على جان جوريس . انطلـق في

---

١ – التحريفيون الذين حاولوا الاستناد على انجلس وأحياناً ماركس (ومحاولتهم عابرة-

مقال سابق [1] من استشهاد الأخ جورج حداد بقول لجوريس حول الوطنية والاممية ، ليهاجم هذا القول وصاحبه ، وليشرح لجورج حداد مواقف اليسار الماركسي واليمين الاصلاحي من قضية المستعمرات . وعاد من جديد الى هذا الموضوع في مقاله الاخير .

والمعروف ان جان جوريس كان قائد الجناح اليميني الاصلاحي في حزب العمال الفرنسي . ولقد كان خطيب الاشتراكية الاكبر مفكراً مثالياً وانسانياً فذاً ، سلط هجومه على الاستعمار وعلى « الرأسمالية حاملة الحرب » . وبالطبع ان هذه المواقف الانسانية النبيلة لا تشكل استراتيجية ثورية عالمية لا من قريب ولا من بعيد . وهي ليست ما نسميه الاممية البروليتارية المكافحة ، بل هي تحمل أحياناً مواقف من الترفع الأبوي على «الامم» التي «استيقظت من رقدة العدم» . والمعروف ايضاً ان لينين كان يميز في الحزب الفرنسي وفي الاممية الثانية ، يميناً تحريفياً واصلاحياً ويساراً ماركسياً ثورياً . واليمين يتمثل في برنشتاين وجوريس وفاندرفيلد واليسار يتمثل في كاوتسكي وغيسد ودوبروكير . تلك كانت الحال في فترة ما قبل الحرب الامبريالية العالمية وبالاحرى في فترة ما قبل ١٩١٢ ... ولكن كيف ننسى ان جوريس اليميني دفع حياته ثمناً لقناعاته الانسانية (بل اقول « الاممية » !) في الوقت الذي اصبح فيه غيسد اليساري وزيراً في حكومة « الدفاع عن الوطن » ، أي في حكومة الامبريالية الفرنسية المحاربة (١٩١٤) ؟

وهناك في تاريخ جوريس وغيسد حادثة جديرة بالاهتمام . في ١٩١٢ ، كاد حزب العمال الفرنسي أن يتقدم إلى البرلمان بمشروع اقامة «مستعمرة اشتراكية»

– وقتية) زعموا ان المجلس نزح بين الثانينات والتسعينات من «اقصى اليسار» الى الاصلاحية. والمجلس الثانينات هو ايضاً المجلس الكهل . وهناك قول لماركس في آمستردام ، « اصلاحي »(!) واقوال اخرى .

١ – « دراسات عربية » نيسان ١٩٦٨ .

في المغرب في اخصب بقعة من المملكة المغربية التي سقطت تحت نير فرنسا . فمن أيد هذا المشروع داخل الحزب ، ومن عارضه ؟ أيده غيسد ومارسيل كاشان ، وكان صاحب المشروع واحداً من جناح غيسد . بينما عارضه اليميني والتحريفي جوريس ، وحمل عليه بشدة فايان الذي كان في الوسط بين جوريس وغيسد . وهذا يعني ان « الماركسية » لا تعصم أحداً من الخطيئة الاستعمارية ، ولا تعصم أحداً من وعي هذه الخطيئة . ولئن كان صحيحا ان خط الفصل بين « السياسة الاستعمارية الايجابية » وبين الموقف المادي للاستعمار كان يوجه الاجمال موازيا لخط الفصل بين الماركسية والتحريفية ، بين الثورية والاصلاحية ، بين اليسار واليمين ، في الاممية الثانية واحزابها ، فان هذا التوازي ليس أكثر من قانون اجمالي ووسطي يقبل استثناءات كثيرة وغير تافهة . هناك « ماركسيون » وقادة ماركسيون معترف بهم أيدوا « السياسة الكولونيالية الايجابية » المزعومة أو تساهلوا معها ، وتحريفيون أو مثاليون يمينيون عارضوها وبشدة . بينما أجمع الروس (ماركسيون وغير ماركسيين) على رفض هذه السياسة في مؤتمر شتوتغارت ١٩٠٧ . وكذلك اجمع البولونيون (أنصار روزا لوكسمبورغ ، و « الماركسيون القوميون » خصومها ، ..) تلك « تفاصيل » لا يمكن ان يهملها الماركسيون العرب ، اذا كانوا لا يريدون ان يحلوا « الايديولوجيا » محل الوقائع والالفاظ محل الافكار ، وان يحولوا الماركسية من منهج للتحليل الى جمل دعائية .

ويقول الأخ بسام « ان جوريس كان يدافع دائماً عن افكاره تحت اسم الماركسية . وكان يرفض قول نقاده بأن الافكار التي يقدمها لا علاقة لها مطلقاً بالماركسية » . لا استطيع ان اقطع بقول الاخ بسام حول وعي جوريس الذاتي لموقفه من الماركسية . غير ان هناك بعض المسافة بين الجملة الثانية والجملة الأولى في هذا القول : أن يرفض جوريس قول نقاده بأن افكاره « لا علاقة لها مطلقاً بالماركسية » شيء ، وان يدافع جوريس « دائماً عن افكاره

تحت اسم الماركسية » شيء آخر. ومهما يكن من أمر، فلا اعتقد ان الماركسيين كانوا يعتبرون جوريس ماركسياً حقيقياً ، حتى نؤيد قول بسام بأن « جوريس هو من المفكرين الفرنسيين الذين سموا الفكر الماركسي الاوروبي لعديد من السنين » . والخطر الاول على الماركسية كماركسية ، على الصعيد الفكري ، يأتي من الماركسيين الارثوذكس ، مثلاً من جول غيسد ومن طوائف ماركسيي الوسط واليسار ، حين يرتكبون حماقات باسم الماركسية . ولا أشك في ان الحزب الشيوعي الفرنسي قد تخطى الموقف الصحيح في تمجيده لتراث جوريس. ولكنه أخطأ ايضا في تمجيده لتراث غيسد ، دون تمحيص[1]. غير انه لا يجوز ان ننساق الى مواقف هي، اقرب الى ردود الفعل . والحقيقة ان الحزب الشيوعي الفرنسي وفرعه الجزائري قد تخطى ، عملياً ، تراث جوريس في الاتجاه السيء في أوائل العشرينات ، وفي فترات اخرى حديثة. الامر الذي دفع مانويلسكي (وهو من قيادة الكومنترن) إلى تأنيب هذا الحزب ودعوته أياه إلى الاقتداء بجوريس في قضية الجزائر وتونس والمستعمرات [2] . والرفيق بسام يخطىء حين يقول « ليس من العجيب ان يقدم الفكر الماركسي الحقيقي احتقاره لهـذا الجوريس ». ويخطىء حين يسمي جوريس ، اليميني وغير الماركسي بالتأكيد ، « اشتراكياً شوفينياً » .

ولكن ماذا عن صيغة جوريس حول « الوطنية والأممية » ؟ اعترف بأنني حين قرأت هذه الصيغة (منذ ٢٢ سنة في كتـاب « الاخلاق » ، البكالوريا

---

١ – مع السكوت عن حادثة ١٩١٤ . أما حادثـة ١٩١٢ فهي مجهولة (ما عدا على الأرجح من كاشان . وهو أحد المعاصرين المشاركين) .

٢ – « اتمنى من كل قلبي للحزب الشيوعي الفرنسي أن يعـود في هذه النقطة الى التراث الجوريسي » (١٩١٤) . في نفس الجلسة ، ادان مانويلسكي الشوفينية في الحزب الشيوعي الفرنسي ، والعدمية القومية عند روي .

الفرنسية ، القسم الثاني ، فرع الفلسفة) ، أعجبت بها ، بجمالها ، دون أن أفهم معناها كثيراً ... وقـــد خدمت هذه الصيغة ، في صحف الحزب الشيوعي الفرنسي ، مواقف صحيحة ومواقف خاطئة . ولعـل الرفيق بسام قد وضع أصبعه على النقطة الجوهرية حين ذكر – بصدد هيلر قرين جوريس الالمـــاني في تحليل بسام – « ديالكتيك الايديولوجيا البرجوازية » على قاعـدة الانتاج البرجوازي القومي والعـــالمي (الكوسموبوليتي) . وجوريس وسواه من اشتراكيي اليمين وغيرهم يكملون هذا التراث البرجوازي . والماركسية تتجاوز هذا التراث . ولكن التجاوز ليس الغاء أو محض الغاء. ان الامية البروليتارية ، والنزعة القومية للشعوب المضطهدة كجزء من هذه الامية البروليتارية المكافحة في سبيل أهداف محـددة ، ليست الايديولوجيا البرجوازية حتى الاكثر ثورية . ولكني لا اعتقد أن البروليتاريا وماركس ولينين يلغون تراث البرجوازيـــة الثورية ، في هذا المجال أو غيره . ولا اعتقد ان « شعوب العالم الثالث » تكسب شيئاً من هذه الحملة المتكررة على جوريس . بل أعتقد ان العالم الاشتراكي – اوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي والصين والشرق الاقصى ، وعالم الغد الاشتراكي – يحتاج إلى موضوع « الوطنية والاممية » . وهذه الحاجة ، على ضوء التجربة التي ليست كلها اشراقاً ، لن تختفي غداً . وحملة بسام على جوريس لا تدفع هـذه القضية إلى الامام .

ولقد ذكرت انني لم أفهم صيغة جوريس التي أعجبت بها ، ولا يهمني اليوم ان اكمل هـذا الذي فاتني[1] . ولكن لعلنـا اذا نظرنا الى واقع العديد من

---

١ – أذكر أن صيغة جوريس تقول : قليل من الأممية يبعدنا عن الوطن ، وكثير من الاممية يعيدنا اليه. والارجح اني مخطىء : جورج وبسام ذكرا الصيغة بالعكس ، وبسام استند على المرجع . والمهم أن جوريس يؤكد أرتباط الوطنية والاممية ، بطريقته المثالية.

« اليساريين » في بلادنا ، وجب علينا القول : كثيرون من يساريينا ليست خطيئتهم هي مبالغة في الوطنية وان اممي آخر زمان يبتعدون عن الوطن . واممي آخر زمان ليسوا اممين كثيراً . في نهاية المطاف ، قد لا تكون صيغ جوريس (بالاتجاهين) سيئة الى هذا الحد .

ج — لينين : لماذا ؟

يقول الرفيق بسام طيبي « ان لينين تعلم من الماركسية النمسوية التفريق بين قوميات الامم الحاكمة وقوميات الامم المحكومة »[1] . وأنا لا استبعد مبدئياً مثل هذا التأثير[2] . وعملية التعرف على الحقائق ترتبط بالممارسة السياسية : في امبراطورية النمسا — المجر ، المسألة القومية مسألة ملحة وبارزة . في روسيا ، لم تبرز هذه المسألة إلا بعد فشل ثورة ١٩٠٥ ... ومع ذلك ، فاني أريد أن أسجل نصاً كلاسيكياً للينين يعود الى سنة ١٨٩٩ : « على البروليتاريا ... ان تساند الطبقات والاحزاب التقدمية ضد الطبقات والاحزاب الرجعية ، وان تساند كل حركة ثورية ضد النظام القائم ، وان تأخذ على عاتقها الدفاع عن كل قومية أو عرق مضطهد ، عن كل دين مضطهد .. ». وهذا يقوله لينين في النضال ضد « الاقتصاديين » القدامى . ولقد كان لينين منذ بداية عمله متعاطفاً مع القوميات المضطهدة في روسيا القيصرية ... ثم ألا نجد التمييز بين قومية الامة الحاكمة وقومية الامة المحكومة عند ماركس وانجلس ؟ في موقف ماركس وانجلس من ايرلندة ، ومن بولونيا ؟ أيا كانت مأثرة « الماركسيين النمسويين » في تأكيد أو بلورة التفريق بين النزعتين القوميتين ، فان بذرة هذا التفريق (وأساسه المادي والتاريخي)

---

١ — القومية : النزعة القومية .

٢ — مرة أخرى : ان مواقف لينين في مجادلة البلاشفة الروس في المسألة القومية تختلف عن مواقف زميله ستالين . وهناك نص لاوتو باور يستشهد به لينين مع المديح في ١٩١٦ .

موجودة عند ماركس وانجلس .

ان ستالين في ١٩١٣ لا يرى الاضطهاد القومي في وجهـــه الاقتصادي والمعاشي والطبقي . ولينين يرى ذلك . كما يراه الماركسيون النمسويون . وبسام طيبي يضع اصبعه على هذه الحقيقة الهامة الخطيرة . ولكن هذا القاسم المشترك بين لينين والماركسيين النمسويين يجب انلا ينسينا الخلاف الكبير ، وهذا الخلاف يحتاج الى مواجهة وحل . أولاً ، ان المـاركسيين النمسويين اصلاحيون ولينين ثوري . وبسام يبين ذلـك . وذلك يعني ، في نظرنا ، ان لينين يربط المسألة القومية بالثورة الديمقراطية والثورة الاشتراكية . وثانياً ، على صعيد تعريف الأمة ، يؤكد لينين مع كاوتسكي «النظرية التاريخية ــ الاقتصادية» ضد النظرية المثالية والنفسية . وستالين يتبع لينين ، بصعوبة . انه يفند بنجاح الجوانب المثالية في افكار باور ورينر ، ولكنه ، وهو المادي الذي يؤكد التعريف التاريخي ــ الاقتصادي للأمـــة (وشرط) الحياة الاقتصادية المشتركة ، بشكل اطلاقي ، قاطعـــاً مع جدل الشمول الحسي ، معطياً صيغ ماركس ولينين اتجاهاً « تطهيرياً » ازاء (المواقع) ، يهمل العنصر الاقتصادي في الاضطهاد القومي ، ويحذف كل مضمون غير برجوازي من نضال الأمة المغلوبة ويبسط افكارخصومه النمسويين ويبسط افكار الماركسية . يجد هذا التبسيط تعبيره في الصيغة القائلة ان « النضال القومي نضال برجوازي » و « التي يعطيها ستالين معنى سلبياً على سبيل الحصر او الاولية ، معنى تحقيرياً . ويتخذ ستالين من اذلال النضال القومي التحرري على يد برجوازية الامة المغلوبة (التي تحط هذا النضال إلى مستوى مشاجرة أو « مناقرة ») ذريعة لاذلال هذا النضال من قبله نفسه أيضاً ، من قبل حزب البروليتاريا [1] . بينما يسير لينين ،

---

١ ــ ولكن ستالين يتمسك ببرنامج لينين والحزب : حق الامم في تقرير مصيرها ، الثورة الديمقراطية .

ويسير صعوداً ، في الاتجاه المعاكس (١٩١٣ — ١٩١٤ ، وخصوصاً ١٩١٦) : ان برجوازية الامـــة المغلوبة تذل النضال القومي وتحطه إلى مستوى مناقرة ، ولكن الجماهير الشعبية تعارض هذا الاذلال . ان برجوازية الامة المغلوبة تميل إلى الاصلاحية في المسألة القومية ، ولكن الجماهير الشعبية تتبنى الحل الجذري والثورة القومية (١٩١٦) . ويرحب لينين بذلك ويأخذه في استراتيجية الثورة البروليتارية الاشتراكية المناهضة للامبريالية والاضطهاد القومي . منذ ١٩١٤ ، لاحظ لينين ان الطابع البرجوازي للحركة القومية لا ينفي مضمونهـــا الشعبي وطابعها الثوري (مع حديث ثمين عن بولونيا) ، ولاحق منطق روزا لوكسمبورغ واحصاءاتها حول ليتوانيا ، مبيناً ان التقـــدم الرأسمالي لم « يصهر » الامم في ليتوانيا ولم يجعل حق الامـــة في تقرير مصيرها شيئاً بالياً ومستحيلاً بالنسبة لليتوانيا... وفي ١٩١٦ ، تدور مجادلات لينين حول المسألة القومية والامبريالية معاً وفي آن واحد . وهـــذا كله يقيم خطاً فاصلاً بين لينين وجميع الآخرين : روزا لوكسمبورغ ، اليسار الماركسي « الاقتصادي الامبريالي » ، وستالين (ستالين كما يظهر في مؤلف ١٩١٣ ، وفي مواقف لاحقة ايضاً) .

وقد نختلف اليوم على تقدير فضائل الماركسيين النمسويين وكاوتسكي وروزا لوكسمبورغ في المسألة القومية . ولكن لا يجوز ان نختلف على النقطة الآتية : ان النظرية الماركسية الحديثـــة في المسألة القومية قد وضعها لينين ، بالاستناد إلى افكار ومواقف ماركس وانجلس .

وقد نختلف أيضاً على تقدير فضائـــل هوبسون وهليفردنغ وبارفوس وروزا لوكسمبورغ وتروتسكي الخ في مسألة « الامـــبريالية » ، أساس ماركسية العصر الجديد . ولكن لا يجوز ان نختلف على النقطة الآتية : ان لينين هو الذي فهم العصر الامبريالي الجديد من حيث الجوهر ومن حيث « التفاصيل » ، هو الذي شخصه ليس في عظمه وحسب بل ايضاً في لحمه وشحمه ودمه . والمسألة القومية هي من هذا اللحم والشحم والدم ، ومن هذا العظم أيضاً .

ان الماركسيين — المنـــادين بالماركسية — في الوطن العربي يتبنون مواقف مختلفة حول هذه النقطة : لينين والآخرون . وهـذا الاختلاف يرتبط ارتباطاً وثيقا باختلاف المواقف السياسية والعربية .

« الماركسيون اليساريون » يعتبرون لينين أحد رواد « الماركسية الثورية » الى جانب تروتسكي أو روزا لوكسمبورغ (وأحيـــانا قبلهم) . ولكنهم لا يعتبرون ان هناك لينينية متمايزة . وهم غالبا ما ينقلون تحليلات وأقوال مجلات الجماعات «الماركسية الثورية » الصغيرة في فرنسا والغرب (+ بعض المعطيات الصينية أو الكوبية) .

كتّاب الاحزاب الشيوعيـــة الرسمية يرفعون لواء لينين . ولكنهم لا يبينون : لماذا لينين ؟ وهم ينقلون مواقف المؤلفين السوفيات ، ويبسطونهـــا (أو ينقلون بعضا منها) ، ولا يرون شيئا سواها . ويغرق ذلك كله في دعائية مملة فارغة .

ان المقالات التي سأبدأ نشرها في العدد القادم من « دراسات عربيـــة » هي محاولة للاجابة على هذا السؤال : لينين . لماذا ومن اجل ماذا ؟

وبالنسبة لهذه المسألة القومية ، يجب أن نعود الى الفقرة الأولى التي اخذناها من مقال الرفيق بسام طيبي .

قال الأخ بسام :

« وفي هـــذه الدراسة سوف نتطرق بشكل عابر إلى كل ما كتب عن القضية القومية في الفكر الماركسي من ماركس وانجـلز حتى... عام ١٩١٤ ... ولم يقدم الفكر الماركسي منذ ذلك شيئاً جديداً لهذه المسألة ، الى ان بدأت ثورة العـــالم الثالث . . . فنشأت نظريات ماوتسي تونغ وفانون وغيفارا وكاسترو . . . » .

في رأيي ، ان الأخ بسام لم يتطرق حتى بشكل عابر الى بعض كتابات

ومواقف ماركس وانجلس الاساسية في القضية القوميـــة . وبشكل خاص ، ترك موضوع موقف ماركس وانجلس من الوحدة الالمانية يفلت من مرآته تحت ثقل موقف هجومه على « القومية الالمانية الهمجية البربرية » وعلى « غبـــاء » فريدريك انجلس .

وفي رأيي ، بين ١٩١٤ وثورة العالم الثالث وفرسانها ، احتجب فارس الثورة الاشتراكية العالمية وفرعها « القومي » : فلاديمير ايلتش لينين.

اللاذقية ٣٠ / ١١ / ١٩٦٨

(٥) اضافة : الحوار المطلوب

١ – قال الرفيق بسام طيبي في جملة مـــا قاله من مديح : « وقامت محاولة وحيدة بالعودة الى الينبوع ... وذلك بالتذكير بالمواقف الحقيقيـــة للفكر الماركسي من القضايا القومية . وكانت هذه محاولة الرفيق الياس مرقص في عدد من الكتابات القيمة . وان كان الرفيق مرقص لم يتطرق الى التفصيلات النظرية وهذا ما حاولناه اعـــلاه » . ان المقاطع الكثيرة التي خصني بها في خاتمـــة مقاله – حيث ارى اسمي الى جانب هربرت ماركوز والثورة الصينية والثورة الكوبية وريجيس دوبريه ... وهذا كثير حقـــاً ! تتركني حائراً لأكثر من سبب .

ان قول الأخ بسام انني لم اتطرق الى « التفصيلات النظرية » يجعلني أتصور ان الأخ بسام يقدر ان بيننا خلافات حول بعض هذه « التفصيلات » . وهـذا يشجعني ويقلل من حيرتي بعض الشيء .

ومع ذلك ، فان حيرتي تبقى كبيرة . هـل هناك التباس ؟ لا اعتقد ان في مقالي هذا ما يخالف مؤلفاتي السابقة التي نالت ثناء الأخ بسام . ولعلي مخطىء في هذا الاعتقاد . وسأكون في غاية الامتنان اذا ما بين لي الأخ بسام في أية نقاط غيرت فهمي لآراء ماركس ولينين (« الينبوع » ، « المواقف الحقيقية للفكر الماركسي من القضايا القومية ») . سأكون سعيداً اذا ما أعانني على وعي هـذا التغيير ، ووعي أخطائي الحاضرة أو السابقة ، او كلاهما . لا أشك في ان في مقالي الحاضر بعض النقاط الجديدة ، أقصد الجديدة نسبياً وجزئياً . مثلاً : ماركس

والمانيا ١٨٧٠، لينين والمانيا صلح فرساي ... ولكن الى أي حد هذا جديد ؟ في كتابي « الماركسية في عصرنا » (ص ١٦٤) ، ولم اذكر ان ماركس كان حق مع الوحدة البسماركية (وهذا نقص) ، ولكني لم اقل مايوحي بعكس ذلك، بل ان ماركس وانجلس « أيدا المانيا في المرحلة الاولى من حرب ١٨٧٠ » (أليس ذلك من أجل الوحدة القومية الالمانية ؟) في ترجمتي لمجموعة لينين « حركة التحرر الوطني في الشرق » (دار دمشق ، ١٩٥٨) نقلت بأمانة اقوال لينين عن الاضطهاد القومي النازل بألمانيا صلح فرساي وعن أهمية هذا الواقع بالنسبة لتشخيص العصر الامبريالي وحركة الثورة الاشتراكية العالمية . في خاتمة بحثي « الستالينية والمسألة القومية » ، (في « الفكر السياسي » ، ١٩٦٣) ، ذكرت رأي ماركس ضد منطق أنصار نظام التبادل الحر ، وهو الرأي الذي يؤكد الواقع القومي على أساس الاقتصاد العالمي .

ولعل الأخ بسام لم يتم بهذه النقاط في مؤلفاتي (لأنه لا يؤيدها ، واعتبرها ثانوية) وهذا حقه ويزيد ! وحقي الحوار (ما دمت اعتبرها غير ثانوية) . ومسألة كونها ثانوية او لا موضوع للحوار .

ورجوعاً الى « سوق الافكار » ، اقول : ان حق الأخ بسام هو حق الشاري ، يتوقف عند الشراء ، ولا يتعداه الى هذا البيع ، قصدت الى هذا المديح .

٢ – في كل مؤلفاتي ، ايدت خطة ماركس وانجلس في زمن ربيع الشعوب الاوروبية ، ومواقف ماركس وانجلس الاساسية من المسألة القومية ، واعتبرتها واحدة في الجوهر ، وغالباً في التفاصيل . خطأت انجلس في نقطة واحدة فقط « نبوءته » عن انقراض القومية التشيكية والقومية السلوفاكية .. وعارضت « مبدأ القوميات » البونابرتي والبرودونية في

المسألة القومية [1].

وفي كل مؤلفاتي ، كافحت العدمية القوميـــة ، بشتى اشكالها ودرجاتها ، وبينت ان الامم لها وجود حقيقي ووجود حقيقي كبير ، متفقاً في ذلك مـع ماركس وانجلس ولينـــين وستالين وروزا لوكسمبورغ وتروتسكي وكاوتسي وباور وبليخانوف الخ [2] مؤكداً هذا الجانب في تعاليمهم ، ايدت ثناء لينين على روزا لوكسمبورغ التي قالت« ان شعوب المستعمرات هي أيضاً أمـــم » . ونقدي لستالين ذهب دائماً باتجاه اتساع وقدم هذا الوجود القومي . ونقـدي للفكر القومي ذهب دائماً باتجاه تأكيد الصيرورة القومية ، وايضاً باتجاه تأكيد قدم هذا التكون وهذه الكينونة ، وقدم تأثيرها وفاعليتها (أسبقية هذا التأثير ، في التاريخ الاوروبي ، على عصر « الآلة البخارية » ونيشته و « حق الشعب » ضد « حق الملوك ») . في كتابي « نقـــد الفكر القومي لساطع الحصري » (١٩٦٦) ، بينت ان اللوحة القومية لاوروبا ، وخريطة الامم الاوروبية ،الاسبان والانكليز والفرنسيين والالمان والطليان والمجر والروس الخ مبلورة جوهرياً قبل الآلة البخارية بثلاثة قرون [3] . وذكرت اكثر من مرة ان الوجـود القومي الغربي والصيرورة القومية التاريخيـة للأمة العربيـــة يبدآن قبل الإسلام ، مستنداً في ذلـــك على رسائل انجلس لعام ١٨٥٣ . وكان أول كتاب ترجمته الى العربية (١٩٥٥) هو كتاب ماوتسي تونـــغ

---

١ ــ هذا لا يعني ان كلمة قالها برودون خطأ وكل كلمة قالها انجلس او ماركس صواب بل الخط الاساسي في المسألة القومية المرتبطة بالثورة الاوروبية .

٢ ــ وماوتسي تونغ ١٩٣٩ و ١٩٢٤ و ١٩٦٩ .

٣ ــ ضد ما يتصوره الاستاذ ساطع الحصري (وآخرون) عن الماركسية ، على الأرجـــح بقناة الدكتور جورج حنا (وآخرين) .

« الثورة الصينية ـ الحزب الشيوعي الصيني » الذي يتضمن في جملة ما يتضمن فكرة عراقة الامة الصينية .

٣ ـ في كل مؤلفاتي ، بينت الاختلاف الكبير بين تاريـــخ الشرق وتاريخ الغرب ، والاختلاف الجوهري الهائل بين « عصر البرجوازية الصاعدة » (القرن الثالث عشر ـ القرن التاسع عشر) وعصر الامبرياليـــة والثورة الاشتراكية البروليتارية (القرن العشرين) ، في ما يسمى تجريدياً وأنموذجياً « التاريـــخ العام » ، الذي كان « تاريخ أوروبا » ثم صار ، في عصر الرأسمالية وخصوصاً في عصر الامبريالية ، التاريخ العام العالمي ، تاريخ الانسانية الواحـــد التناقضي ، وبينت على أساس هذا الاختلاف الجوهري بين العصرين التاريخيين ، الاختلاف الجوهري الكبير بين حركة القومية العربية وحركة القومية الالمانيـــة أو حركة القومية الفرنسية . بينت ان هذه الحركات القومية الاوروبية كانت في جوهرها حركات برجوازية ذات مضمون وطابع وقيادة برجوازية . ولكنني بينت دائماً ان هذه الحركات القومية الاوروبية ، حركات تكوّن الأمم والدول القوميـــة المستقلة الموحدة ، ليست حركات رجعية ، بل حركات تقدمية وجزء لا يتجزأ من التقدم البرجوازي العظيم المناهض للاقطاعية وعالمها الواقعي والعقـــلي . واستندت في ذلك على ماركس وانجلس ولينين [1] .

---

١ ـ يبدو لي أن بـــام طيبي قد أدرك ان هذا الصعود التقدمي البرجوازي لأوروبا قد تحقق منذ « بزوغ فجر الرأسمالية » في القرن السادس عشر على ظهر شعوب القارات الأخرى (وبعض الآخرين) . ولكنه في رد فعل على المنظور البرجوازي ـ القومي للفكر الستاليني المحلي وللفكر القومي المحلي ، ينفي الطابع التقدمي لهذا التاريخ الأوروبي البرجوازي القومي الديمقراطي الخ ، ويقيم علامة تعارض مطلقة بين حركة القومية العربية الحديثة والحركات القومية الأوروبية القديمة . هذا الموقف (الذي هو أفضل من المنظور البرجوازي ـ القومي التكراري في شكليه المحليين) يمكن أن يستند على بعض أقوال روزا لوكسمبورغ وسواها من ماركسيي اليسار الجانحين نحو عصر امبريالي جديد بصورة مطلقة تجريدية وصوفية ، ولكنه لا يمكن أن يستند على لينين ولا على ماركس .

الحركة القومية العربية ليست، من حيث الجوهر، جزءاً من تقدم «برجوازي» عربي ذاتي مناهض لـ « الاقطاعيـة » . إنها أولاً حركة تولدت وتتولد من غزو الرأسمالية ، من الاستعمار والامبريالية ، وكرد عليها . وهي تدخـل في اطار الثورة العالمية الموجهة ضد هذا الغزو ، ضد « الرأسمالية العالمية » . وهذا لايعني أن الجانب التقدمي ـ البرجوازي غائب كلياً من هذه الحركة . ولكنه يعني انه ليس ولن يكون ولايمكن ان يكون هناك مرحلة اسمها «المجتمع القومي البرجوازي الرأسمالي الصناعي الديمقراطي البرلماني » بالنسبـة للعرب ولشعوب الشرق . ان تاريخ العرب في القرن العشرين لا يمكن ان يكرر تاريخ المانيا في القرن التاسع عشر أو فرنسا في الأزمنـة الوسطى الواطئة والأزمنة الحديثة . مصيبة الفكر الستاليني ، المحلي خاصة ، انه آمن بهذا التكرار ، لأنه أهمل عملياً مفاهيم لينين عن الامبريالية والعالمية والتفاوت، وحول المادية التاريخية والجدلية الى «فلسفة» للتاريخ هيغلية ـ مقلوبة ، وعلم التاريخ الواقعي الى « فيزياء مرفوعة الى مرتبة ميتافيزياء » . واذ كان يصطنع، على أساس هذا التشويه ، « مرحلة برجوازية » وهمية ، كان في الوقت ذاته ينسى المضامين الايجابية الثمينة في حركة التاريخ الاوروبي البرجوازي الصاعد، أي المضامين الصالحة للشرق ايضاً (بعدالتعديل المناسب) ، الكونية الشمولية فعلاً (الوحدة القومية ، الديمقراطية ـ في شكل جديد ـ الموقف العلمي والنقدي ..) بالاستناد الى مفهوم للتاريخ ، فقير ومفرغ من لحمـه ، يسند مفهوماً للثورة مخصيـاً (وهذا اللفظ لماركس ولينين : Châtré, émasculé).

ولئن كانت كل مؤلفـاتي السابقة موجهة نحو « رد الاعتبـار » الى مفهوم « الامبريالية » (وواقعها !) ، كمنطلق لا غنى عنه في كل استراتيجية وفي كل نظرية ماركسية تتعلق بعصرنا ، إلا أنني لم أقل في يوم من الأيام ان هذا المفهـوم يلغي من واقعنا المحلي والعالمي العصر « السابق » وقضاياه . وليس هناك مؤلف تحدثت فيه عن الامبريالية ، الا وتحدثت فيه ، مع الامبريالية ، عن الأمة ، عن

الأمم[1]، وعن الثورة الديمقراطية القومية ونموها وتحويلها الاشتراكي (=الثورة الدائمة ، كما أفهمها) . ومن هذه النواحي ، فإن مقالتي « الامبريالية والوحدة العربية والثورة الاشتراكية » المنشورة في عدد تمـوز ١٩٦٧ من مجلة « دراسات عربية » هي تعبـير « نموذجي » عن خطي النهاجي والفكري والسياسي[2] .

٤ – في كل مؤلفاتي ، عارضت الخط اليميني البرجـوازي ، الذي يتمسك بـ « مرحلة » الثورة الديمقراطية البرجوازية (البرجوازية كثيراً والديمقراطية قليلاً) والذي يستبعد من برنامج حزب البروليتاريا الاشتراكية و « الطبقات » بل والاصلاح الزراعي، وعارضت التبسيط والتشويه الستاليني (المحلي والعالمي) للماركسية ، ولكنني بالارتباط مع ذلك ذاته ، عارضت دائماً آراء العدميـة القومية وما يشبهها . وان عملي كله ما كان ليكون ذا معنى ، لو تساهلت مـع هذه العدمية .

وأنا لا اعتقد ان هذه العدمية القومية غير موجودة في فكرنا « الماركسي »

---

١ – وفي كتابي « موضوعات إلى مؤتمر اشتراكي عربي » (دار دمشق ١٩٦٣)، وعلى ما اعتقد ، في مؤلفات أخرى ، تحدثت بصراحة عن النزر الذي يتعرض له الوطن العربي، على يد شعوب وقوميات وعناصر أخرى ، في الغرب والشمال والشرق وفلسطين . ولم أقل في يوم من الأيام شيئاً ضد هذا الحديث، باسم مفهوم « الامبريالية » و « عصرها » ، مثلاً . بالعكس . انه ، في كتاباتي ، « جزء من التشخيص الليليني العربي » لـ « عصر الامبريالية المنفلتة من عقالها » .

٢ – هذه المقالة ألقيتها في ندوة الجزائر (أيار ١٩٦٧) . وهي ، في ظروف النـدوة المذكورة ، تكاد تكون مرتجلة . وبعض صيغتها قد تحتاج إلى تعديل. ولكن تعديلي لها لا يمكن ان يكون إلا في اتجاه تأكيد وتشديد النقاط المذكورة أعلاه : سير التعمق الاقتصادي للتجزئة العربية ، ارتباط الثورتين الديمقراطية والاشتراكية خلال تاريخ قرن وربع ، وارتباط الوحدة والاشتراكية في الوطن العربي ، حتمية سقوط الاشتراكية إذا ما استمر التحايل على الهـدف القومي .

الجديد والقديم . (بل ولعلها ايضاً موجودة عملياً عند أناس لا يتـــاجرون بالماركسية أو هم يكرهونها، ويحبون التاريخ العربي ـ العربي، ويمقتون الشعوبية). وبالطبع ان العدمية القومية « الماركسية »، في ظروفنا العربي، لا تفصح عن نفسها بوجه الاجمال في قول من نوع « الأمة مصطلح لا وجود له في الحقيقة » ، بل ولا في معارضة القول بأننا « أمة عربية » ، و « أمة عربية واحدة » ، من فضلك . وإنما تفصح عن نفسها في « طبقية » آخر زمان التي تقول ان « معركة فلسطين معركة طبقية » وتكرس يمينياً كل من لا يردد وراءهـــا « ان معركة فلسطين معركة طبقية » . ترى أيراد منا ان نصدق ان اكثرية « البروليتاريا اليهودية » في الارض المحتلة هي معنا ضد « الامبريالية » ، وان أكثرية البرجوازية العربية (بل البرجوازية الصغيرة العربيـــة) هي ضدنا مع « الامبريالية » (التي باتت لفظاً) ؟ ا حق اذا [1] تخـــلى آخر برجوازي عربي وآخر « بروقراطي عسكري يميني » عن فلسطين ، واذا أيد الكفاح ضد الامبريالية نصف العمال اليهود ، وانضم آخر « ثوري » « يســـاري » عربي الى الكفاح الفعلي ضد الامبريالية والصهيونيـــة (بلا مزدوجات) ، حق في هذه الحـــال ، فإن معركة فلســـطين ستكون معركة قومية أولاً . وإذا لم تكن معركـة فلسطين قوميـــة ، في هـــذه الحال ، ليس هناك في العـــالم الحاضر والماضي معركة قومية (ولكن هـــؤلاء « تجاوزوا » الحاضر الى المستقبل !) .

بتعبير آخر : ان موقف الأخوان من « ماركسيي اليسار » المستحدثين هو موقف « الاقتصادية الامبريالية » : بياتاكوف وروي في المشرق العربي في عام ١٩٦٨ ، في مواجهة اسرائيل الكبرى وقضايا عـــالم الامبريالية والاشتراكية

---

١ ـ بالطبع ، « لو » أصح من « إذا » . ولكني قصدت اللفظ الأقل صعة ، وقصدي منه تاكيد الشطر الثاني من الجملة : جواب الشرط .

والانقسامات والكتل الدولية وتدهور حدود التبادل في السوق العالمية وتعمق التجزئة العربية الخ . وبكل صدق ، أدعو جميع الأخوان الى دراسة رد لينين على هذا التيار . لا سيما وان هذا الرد لا يطرح فقط موضوع الامبريالية والأمم والثورة الاشتراكية ، بل يطرح ايضاً ، وبالارتباط مع هذا الموضوع وفي ضوئه وعلى أساسه ، كل قضية المنهج الماركسي ، منهج الشمولية والعيانية والتناقض (وقبل هذا الرد بعامين ، إبان نشوب الحرب العالمية الاولى المبشر بالانعطاف التاريخي الكبير ، عاد لينين الى هيغل !) . وبالمناسبة ، مع احترامي الفائق لكل مفكري الماركسية الحقيقيين ، فأنا أدعو جميع الاخوان الى دراسة « لينين : المختارات ». هذا لا يكفي ؟ Sans doute . ولكنه ضرورة اولية ، وفي نظري بديهية .

٥ — ان الرفيق بسام طيبي لم يقل ان « معركة فلسطين ليست معركة قومية » ولكنه قال « ان قضية فلسطين ليست قضية الأمة العربية » .

جاء قوله هذا في بحثه « ماذا تعلمنا من النكسة الاخيرة ؟ » في عدد نيسان ١٩٦٨ من « دراسات عربية » ، في معرض تقييمه لمقال الاستاذ حسن فخر (المنشور في عدد ايلول ١٩٦٧ في نفس المجلة) حيث كتب يقول :

« يأتي الاستاذ حسن فخر في مقاله بآراء معادة ولم تعد جديدة ولكنني أرغب بالتعرض لبعض هذه الآراء رغم قدمها ، وذلك بسبب أهميتها البالغة . الفكرة الرئيسية - هي ان الصراع مع « اسرائيل » ليس إلا صراعاً بين قوة امبريالية وبين اليسار العربي ، وبعبارة أخرى قضية فلسطين ليست قضية « الامة العربية » بل قضية اليسار العربي ، اذ ان الرجعية العربية لا مانع لها من وجود اسرائيل ، وانا اوافق دون تحفظ على هذه الفكرة » (ص ٣٧) .

وانا اوافق مع التحفظ على بعض هذه الصيغ ، واعارض بدون تحفظ الصيغة القائلة ان « قضية فلسطين ليست قضية « الامة العربية » » (بزدوجين او

بدونها) . ان هذا المقطع مثال نموذجي لصيغ الاخ بسام وغيره ، حيث يختلط الصواب والخطأ ، ويمرر الصواب والخطأ ، وهناك أمثلة اخرى عديدة ونكتفي بواحد منها . بعد قضية فلسطين ، قضية الوحدة العربية . « ان الوحدة العربية مفهوم مادي اقتصادي وهي ليست وحدة «الامة العربية» ، بل وحدة الطبقات البروليتارية » (ص ٣٨) .

وانا الذي اتهمت احياناً [١] بالتركيز على الاقتصاد (؟) اكثر مما يجب [٢] والذي ملأت مؤلفاتي بالتحليلات الاقتصادية ، لا أعلم ماذا تعني هذه الصيغة « مفهوم مادي اقتصادي » بصدد الوحدة العربية ؟ اليست مفهوماً سياسياً وفكرياً ، ايضاً ؟ ولا اذكر انني قلت في احد الايام ان الوحدة العربية ليست هي وحدة « الامة العربية » حتى موضوعة بين مزدوجين ، وكلام الرفيق طيبي يذكرني بالرفيق خروشوف حين قال في القاهرة (١٩٦٤) ما معناه ان الوحدة ليست مع شيوخ الكويت (صح ! ولا مع المرحوم خالد العظم ، من فضلك) ! ولكنها وحدة العمال أو العمال والفلاحين ، على حد علمي ، ان وحدة البروليتاريا يجب ان تتحقق على النطاق العالمي ايضاً ، والوحدة العربية هي الوحدة العربية القومية ، شأنها شأن الوحدة الصينية والوحدة الالمانية والوحدة الإكرونية والوحدة البولونية ، حتى اذا كان « ينبغي » ان تقوم كل هذه الوحدات القومية وفي كل الظروف تحت قيادة البروليتاريا او « الطبقات البروليتارية » . على حد علمي ، عند ماركس وانجلس ولينين ، الاممية البروليتارية

---

١ – تعليق صدر في جريدة « الحرية » البيروتية عن كتابي « الماركسية في عصرنا » ، قبل زهاء أربع سنوات .

٢ – اين يمكن أن تكون النزعة « الاقتصادية » و « الاقتصادية الامبريالية » اليوم في وطننا العربي ، ان لم تكن هذه الصيغ ؟ وعلى حد علمي ، ان التهمة الرئيسية التي وجهتها للفكر الستاليني الحالي في صدد الوحدة العربية على وجه التحديد انهم « يلشدون » (وبالاصح ينتظرون) الوحدة العربية من التطور الموضوعي « الاقتصادي المادي » .

لم تكن بديلاً عن الوحدات القومية ، ولكنها كانت كذلك عند بعض خصوم لينين الايديولوجيين . « البديل » عن الوحدة العربية هو الكيانات القائمة وليس البروليتاريا والكادحين او الاشتراكية ، بل الامة السورية والامم العربيـــة او الامة العالمية او اللامم . تلك بديهيات الحس السليم ، وبديهيات الماركسية ايضاً ، ورائد الماركسية والحس السليم : ف. ا. لينين .

مسكين انجلس ! لأنه هاجم «مبدأ القوميات» ، وأخطأ بحق التشيكيين ، فقد أتهمه بسام بـ « الغباء » !

ان دراسة مقال حسن فخر وتعليق بسام طيبي والمقـالات الاخرى عن النكسة ، تخرج من اطار هذا البحث .

٦ – من حق الاخ بسام ان يهمل هـــذه النقاط في مؤلفاتي السابقة ، وان يعتبرها ثانوية وان يسكت عنها ، وان ينشر باسمـــه الشخصي آراء معاكسة ، وان يكيل المديح الدائم ، على « بقية » آرائي (؟) التي يعتبرهـــا جوهرية . هـــذا كله من حقه ، ومن حقي الحوار ! لا سيا وانني لا اعتبر هذه النقاط ثانوية .

ارجو الاخ بسام ان يعتبر مقالي هذا بداية لحوار طويل يجب ان يغطي اكثر من التفصيلات بكثير . بامكاننا ومن واجبنا ان نتقدم معاً بالحوار نحو فهم أفضل وأكمل للماركسية ولكل قضاياها وللواقع العربي الراهن .

وانني لا ارى للحوار المثمر أي شرط يتعلق بالأسلوب والالفاظ ، في محاورات البلاشفـة الروس والماركسيين الثوريين عامة ، كثيراً ما كانت الألفاظ بالغة العنف ، لان الاسلوب كان بالغ الصدق والحرارة . وارجوك ، ايها الرفيق ، ان لا تبخل علي بالنعوت (« المثالية » ، « الميكانيكية » ، « التعـــالي القومي البرجوازي» ، «الغباء» ، «الاصلاحية» وان شئت «التراجع» ، « خيانة المواقف الثورية » الخ وكل قاموس المفردات في تاريخ مساجلات الماركسيين) كلما رأيت

ذلك متفقاً مع اعتقادك وميلك ، اني اتحملها .

« الشرط » (!) الذي اراه يتعلق بالموضوع والمضمون ،هو ان يغطي الحوار كل المسائل المطروحة والآخذة دوماً في التجديد والتحديد (مثلاً قضية بسمارك وانجلس والمانيا ، قضية ماركس والوحدة البسماركية ، قضية لينين والمانيا صلح فرساي ، قضية الامة عند ماوتسي تونغ..) ، كل النقاط والصيغ المختلف عليها (معركة فلسطين ، الوحدة العربية . . .) .

واعتـــذر لأنني لم استطع ان أغطي موضوع « الماركسيين النمسويين » في المسألة القومية ، نظراً لجهلي بالموضوع ، ولكنني سأسعى إلى سد هـــذه الثغرة (ليست الوحيدة ، لسوء حظي !) .

واشكرك مرة أخيرة ، لان مقالاتك تساعدني على سد هذه الثغرة وغيرها ، بحثي وحثنا جميعاً على مزيد من الانفتاح على كل الفكر الماركسي الحقيقي ، بما فيه حق اولئك اليمينيين ، حق نستفيد من أفكار الماركسيين العظام ، وحق لا نترك هذا الموضوع لفئة من الماركسيين المستحدثين ، همهـــا ان تستخلص من هؤلاء الرواد ما يمكن ان يسند مواقفها « اليسارية » المعادية لوحـــدة العرب القومية الثورية .

٣ / ١٢ / ١٩٦٨

حوارٌ حول المسألة القوميّة

(١) مقدمـــة

في عدد نوفمبر ١٩٦٨ من مجلة « دراسات عربية » ، نشر الأخ بسام طيبي مقالاً عن « القضية القومية من ماركس حتى الأممية الثانية » (ص ٣٥ – ٥٨)، تطرّق فيه ايضاً إلى لينين . ولما كانت المسائل التي طرحها الزميل بالغة الأهمية ، ولما كانت معالجته لهذه المسائل خاطئة في مواضع كثيرة ، ولما كان الأخ بسام قد أثنى عليّ مراراً في هذا المقال ، بينما كانت مواقفه مغايرة جوهرياً لموقفي في عدد من المسائل ومناقضة لها في عدد من النقاط، فقد رأيت ان أفتح معه حواراً أخوياً صريحاً مفصلاً حول هذه المسائل والنقاط . وجاء مقـــالي المنشور تحت عنوان « ماركس ، إنجلز ، لينين والمسألة القومية » في عدد يناير ١٩٦٩ (ص ٧٧ – ١٢٣) يتضمّن عرضاً لنصوص مقال الزميل بصدد هذه المسائل ، ونقداً لها من وجهة نظري . ثم جاء رد الزميل تحت عنوان « حوار حول المســـألة القومية » في عدد نيسان ١٩٦٩ (ص ١٠٩ – ١١٤ + ص ١١٥ ، ١١٦ لقائمة المراجع) .

وحين قرأت هذا المقال القصير ، ترددت حول مواصلة الحوار على صفحات المجلة . فقد وافقني الأخ بسام طيبي – بصدق وأمانة دونما التباس – على النقاط التي يمكن ان يعتبر القارىء انها هي مواضعُ الخلاف . ومن جهة ثانية ، قال ان

الخلاف بيننا أكبر مما كان يظنّ ، وانني أبالغ في أهمية المسألة القومية .

بالطبع ، ليست هذه « تهمة » . ليس هذا ليزعجني أو يحزنني .

***

اني مضطر لنقل كل نصوص الأخ بسام قبل ان أبدي رأيي فيها ومعالجتي للمسائل التي تطرحها. يحفزني الى هذا الأسلوب ملاحظته الثمينة في العدد العاشر من « الآداب » (١٩٦٨) : « اختفت الأفكار التي قدمتها على صفحات الحرية، كما تختفي معظم الكتابات العربية المعاصرة ، وذلك لعدم رغبة معظم الكتاب العرب المعاصرين للدخـــول في حوار علمي » (ص ٢٧ ، هامش ٢). لا يمكن أن أسلـك سلوك هؤلاء . ومن حاورني ، حاورته بمثـــل ما حاورني ، والى النهـاية وفي كل التفاصيل ، بصدق وصرامـة ، سعياً وراء الحقيقـــة والتفاهم .

(٢) نقاط الخلاف

لنحدد أهم نقاط الخلاف في الحوار الذي انفتح منذ شهور .

آ — كان الزميل طيبي قد حمل على انجاز بعنف . اتهمه بالغباء ، وبالاصلاحية (في مرحلته الأخيرة [١]) ، وبالتعالي القومي الالماني والشوفينية القومية الالمانية ، والعداء للقوميات السلافية الصغيرة (كالتشيك) ولمبدأ القوميـات ، بينما وعى ماركس وكشف الطابع البربري الهمجي للقومية الألمانيـة . ولم يذكر الزميل

---

١ — « انجاز الكمال » .

أي شيء عن موقف ماركس من الوحدة الالمانية .

وقد انتقدت الزميل على هـذه النقاط واحدة واحـــدة ، وبيّنت له رأيي فيها :

١ – إن خطأ انجاز بصدد التشيك ينحصر في انه توقـع في ١٨٤٩ – ١٨٥١ انقراض القومية التشيكية وذوبانها في الأمة الألمانية خلال تاريخ طويل، انطلاقاً من حملة انجاز وماركس على هذه القومية التي كانت مخفراً أمامياً لروسيا القيصرية التي تزن بكل ثقلها ضد الثورة الالمانيـــة والثورة الديمقراطية الاوروبية، وعلى أساس ما يمكن ان يكون نزعة «وضعية» « علمية » « موضوعية » « اقتصادية » في المعرفة . وكان هذا الخطأ دافعاً لانجاز الى التصحيح والى الاهتمام بالمسألة القومية أكثر مما اهتم بها شريكه ماركس . والأرجح ان تشخيص ماركس لكل المسألة القومية كان واحداً في الجوهر والأساس وفي ٩٩٪ من المسائل العيانية المطروحة. وقد كان لينين مؤيداً كل التأييد لخطة انجاز وماركس في زمن ثورات ١٨٤٨ : مع الالمان والبولونيين ضـــد الروس والتشيك . وهـذه الخطة صحيحة تماماً . والموقف الذي يضع علامـــة المساواة بين هـذه الأمم هو في عرف ماركس وانجاز ولينين موقـــف البرودونية .

٢ – ليس انجاز وحده معادياً لمبدأ « القوميات » ، بل انجـــاز وماركس معاديان لـ « مبـــدأ القوميات » البونابرتي الذي « يضع أيـــة أمم صغيرة على قدم المساواة مع الأمم الكبرى، خدمة للقيصر ونابوليون الثالث ». ولينين مع ماركس وانجاز ، يؤيد هذا الخطّ، تأييداً كاملاً، في إطار العصر السابق وثورته .

٣ – ليس ماركس وحده نقد الجوانب البربرية أو السخيفة في الاوضاع الالمانية والنزعة القومية الالمانية ، بل كذلك انجاز (وأضيف : ربما أكثر من ماركس) . و « تقدير » الأخ بسام حول مقطع من مؤلف « الايديولوجيا الالمانية » موجه ضد هذه الاوضاع (تقدير مفاده أن هذا المقطع من وضع ماركس وحده) تقدير شخصي لا يستند على أساس .

٤ – ماركس وانجاز أيدا الوحدة الالمانية تأييداً لا يتصوره ولا يعرفه احد من ماركسيي البلاد العربية . وقد نسي الاخ بسام هذه النقطة كلياً . ماركس كتب يقول : إن سياسة فرنسا التقليدية ، من عهد ريشوليو إلى عهد نابوليون الثالث هي منع وحدة المانيا ووحدة ايطاليا . وفي ١٨٧٠ ، أيد ماركس وانجاز «حتى الوحدة البسمارکية» : «المانيا تلعب في الحرب وجودها القومي » ، و«بسمارك يقوم بجزء من عملنا ».

٥ – انجاز المرحلة الاخيرة ، «انجاز الكهل » ، لم يكن اصلاحياً . صحيح ان ما يسمى وصيته (١٨٩٥) يطرح مسائل ، مسائل تتعلق بالستراتيجية والنظرية ، ولكن ان نتصور ان هذه المقالة الاخيرة اصلاحية خطأ فادح . (الاخ بسام لم يحدد متى وعلى اي موقف استحق انجاز تهمة الاصلاحية ، فضلاً عن انه نسي تصريحين لماركس « إصلاحيين » !) . ولو كانت ثنائية « الثورية » و « الاصلاحية » هي الف وياء مفهوم وستراتيجية الثورة في الماركسية ، لما كانت هناك ماركسية .

ب – انتقدت الزميل على أحكامه في بعض المواضيع الأخرى .

١ – كان الزميل قد كتب في بداية مقاله « ان الفكر الماركسي لم يقدم

شيئاً جديداً للمسألة القومية منذ عام ١٩١٤ عام سقوط الأممية الثانية الى أن بدأت ثورة العالم الثالث حين نشأت نظريات ماوتسي تونغ وفانون وغيفارا وكاسترو » . وبينتُ للزميل انه يناقض نفسه ما دام قد تحدّث عن مساجلة لينين وروزا لوكسمبورغ حول كراسة كتبتها روزا ورد عليها لينين في ١٩١٦ . وأبديت له اعتقادي في ان أغنى وأهم وأخطر فترة في تاريخ تعرف الفكر الماركسي على المسألة القومية هي فترة ١٩١٥ — ١٩٢٣ ، فترة لينين ومساجلاته ضد روزا لوكسمبورغ وضد سلسلة من ماركسيي « اليسار » و « الوسط » . وعرضتُ عليه وعلى القارىء هذا الموضوع مع بعض الصيغ اللينينية العائدة لهذه الفترة والتي أعتبرها بالغة الاهمية ، والتي يجهلها الاخ بسام وغالبية الماركسيين العرب (او يخرجونها من حقل بصرهم) . وبينت في جملة ما بينت ان لينين وغالبية البلاشفة الروس وقادة الكومنترن اللينيني (١٩١٦ — ١٩٢٤) كانوا يعتبرون ان المسألة القومية وامكانياتها الثورية قائمة في قلب اوروبا واوروبا الغربية المتقدمة في زمن الامبريالية وحربها العالمية وما بعد الحرب العالمية ، اي في زمن الثورة الاشتراكية العالمية (تحضيرها ، ثم بدايتها) ، وان التاريخ اللاحق كله (ولا سيما فترة الحرب العالمية الثانية ومقاومة الشعوب الاوروبية للاضطهاد القومي الذي سلطته الامبريالية الفاشستية النازية الالمانية ونتائج ذلك في انتصار المد الثاني للثورة البروليتارية العالمية) ، يسوّغ كلياً منظورات لينين ويخطّىء كلياً منظورات خصومه الفكريين المتنوعين في صف ماركسي ١٩١٦ وبعدها .

حاولت ان أقنع الاخ بسام وكل شبابنا الماركسيين الجدد والماركسيين القدامى بقراءة ودراسة لينين وبينت لهم : « لماذا لينين ! »

٢ — وقد وردني في مقال الزميل طيبي ان « مفهوم الامة مصطلح سوسيولوجي

لا وجود له في الحقيقة ..» . فتوقفت عند هذه الاطروحة وبيّنت ان مفهوم الامة باعتباره مفهوماً سوسيولوجياً واقعياً وحقيقياً موجود عند ماركس وانجلز من البداية . وبينت ان عالمية الانتاج الرأسمالي والاستعماري والامبريالي المتعاظمة لم تذهب في اتجاه إلغاء مفهوم الأمة ، بل في اتجاه تأكيده على أساس اللامساواة بين الأمم واستغلال أمم لأخرى باعتباره مضمون العالمية . كما أشرت إلى ان لينين قد أكد وأنمى وطوّر هذا الجانب في الماركسية ، وجعله في صلب واساس مفهومه للثورة الاشتراكية العالمية (وهذا المبدأ الاخير ليس غائباً عن كتابات الزميل طيبي . كلا ! وهذه من أهم مآثره . غير انني اختلف معه على بعض معطيات هذا المبدأ ، على تحديده التفصيلي الواقعي ، كما رأى القارىء وسيرى في هذا المقال) .

٣ – اعترضتُ على قول الزميل طيبي ان جوريس «سمّم الفكر الماركسي» و« دافع دائماً عن افكاره تحت اسم الماركسية » ، وحاولتُ ان اخفف من حملة الاخ بسام المتكررة على هذا «القومي الاستعماري»، ومن احتقاره ، من « احتقار الفكر الماركسي الحقيقي لهذا الجوريس » .

قلت : جان جوريس كان زعيم الجناح اليميني التحريفي الاصلاحي في حزب العمال الفرنسي . كان اشتراكياً انسانياً مثالياً ، رغم إحترامه لماركس وتأثره بالماركسية[1]. ولم يُمسّ بضاعته «دائماً تحت اسم الماركسية». أما مواقفه في مسألة الاستعمار والمستعمرات ففيها الجيد والجيد جداً والسيء والقاصر . فهو ليس ثورياً بل اصلاحي . وذكرت حادثة كان

---

١ – كل انسان يحترم نفسه فكرياً او سياسياً متأثر بالماركسية .

فيها موقف جوريس التحريفي الاصلاحي أفضل من موقف غيسد زعيم اليسار والماركسيين في الحزب (مشروع إقامة مستعمرة اشتراكيـــة فرنسية في جزء من مراكش ! ١٩١٢) . وقد دفع جوريس في ١٩١٤ حياته ثمناً لقناعاته الأممية ، بينما أصبح جول غيسد وزير دفاع في حكومة « الدفاع عن الوطن » أي حكومة الامبرياليـة الفرنسية المحاربة .

٤ – اعترضتُ على صيغ قديمة للأخ بسام طيبي :« الوحدة العربية » مفهوم مادي اقتصادي وليست وحدة « الأمة العربية » ، بل وحدة الطبقات البروليتارية » . اعترضتُ على هذه الصيغة في كل أجزائها . انها تذكرني بدءاً من شطرها الاول بمنطق « الاقتصادية » الروسية لاعوام ١٨٩٨ – ١٩٠٣ وتيار الاقتصادية الجديدة الروسية والاوروبية لاعوام ١٩١٥ – ١٩١٧ ، وهي التيارات التي فندها لينين . الوحدة العربية هي قطعاً وحدة الامة العربية (بلا مزدوجين). ووحدة البروليتاريا أو وحـدة الطبقات الكادحة كلها ليست بديلة عن وحدة الأمة العربيـــة ، عن التوحيد القومي للأقطار العربية .

وهناك نقاط أخرى يجدها القارىء في مقالي السابق .

(٣) نقـاط أثارها الزميل على هامش الحوار

إن المقال الجديد الذي نشره الزميل بسام طيبي في عدد نيسان ١٩٦٩ في ست صفحات تضمّن ، في رأيي ، بعض الأمـــور التي لا تمت بصلة لمواضيـع الخلاف . ولا أستطيع أن أخوض فيها طويلا .

في البند (١) (ص ١٠٩) يعلمنا الأخ بسام ، بصدد أسلوب الاستشهـــاد

بالآخرين ، حرصه على هذا الاسلوب الذي لامه عليه الدكتور سهيل ادريس « لوماً شديداً » . ولعله حصل التباس بيني وبين الأخ بسام . ليس لي أي مأخذ عليه من هذه الناحية ، مبدئياً . بالعكس ! أنا شكرته من كل قلبي لأنه أثنى على مؤلفاتي واهتم بها واستشهد ببعض نصوصها . وانا احترم كلياً اطلاعه الواسع وقائمة مراجعه الطويلة التي ليس عندي منها سوى القليل. وأنا أتمنى أن يستشهد الاخ بسام دائماً بمؤلفاتي . أتمنى ان يذكر النصوص سواء كان في معرض المدح أو الذم ، أو لنقل في معرض التأييد أو « الرفض » . مأخذي الوحيد كان انه أثنى على كتاباتي كثيراً كثيراً في الوقت الذي تبنى فيه مواقف مغايرة كثيراً لهذه الكتابات . وأعلم من مقاله الجديد ، انه كان على علم « بالخلافات النظرية العديدة » بيننا ! (ص ١٠٩ السطر الاخير). كما أعلم أنه هو الذي « دخل في حوار معي » (ص ١٠٩ ، السطر ٢ و ٣) . وهذا صحيح من حيث الجوهر. ولكنّه أفضّل لوكان صحيحاً من حيث الشكل ايضاً. ففي مقاله الاول، اكتفى إجمالاً بالثناء الكثير الاستثنائي مع تلميحين الى ان « الرفيق مرقص .. لم يتطرق الى التفصيلات النظرية وهذا ما حاولناه أعلاه » (ص ٥١ ، السطر ٢ و ٣) و « الرفيق مرقص .. لم يتطرق الى هذه الناحية النظرية بغض النظر عن بعض الملاحظات العابرة ، وهو يقتصر على الناحية التاريخية . وهذا ما يبرر نشر هذه الدراسة التي تهتم فقط بالناحية النظرية من المسألة القومية » (ص ٥٣ ، قائمة المراجع : ٣ السطر ٣ و ٤) . وهذان التلميحان الغارقان في بحر من الثناء الرفاقي شجعاني على ان افتح الحوار شكلاً . غير ان الأخ بسام هو الذي فتحه ، جوهراً . كان شعوري عند قراءة مقالة الأخ بسام وثناءه الكبير وتلميحه شبه التقديين أن الأخ بسام يريد، بالنسبة لي، ان يطلعني على ما لاأعرفه، على « الناحية النظرية » وان يعصمني عن بعض الاخطاء ، وان يسلتحني لتصحيح الأخطاء . وفعلاً ، أطلعني على أشياء كنتُ أجهلها في الماركسيين النمسويين (باور ، رينر ، آدلر ...) ، وقد شكرته على ذلك، ووعدت بدراسة ما فاتني من أمور (هذا وغيره كثير) ذات أهمية حقيقية ، ولو انها لم تكن « ميداني » وموضوعاً في

مؤلفاتي . ولم أقل في الحوار الذي فتحته شكلاً ، انني في مؤلفاتي الاربعة أو الثلاثة لم أقتصر على « الناحية التاريخية » وإنما تطرقت فيها ايضاً إلى « الناحية النظرية » ، ولم أقل انني لا أفصل ومن المستحيل ان نفصل الناحيتين «التاريخية» و « النظرية » في الماركسية ومنهجها . كلا ! فهذا كلام عام . لا قيمة له إذا بقي كلاماً عاما . وكما كان شعوري ان الأخ بسام أراد ان يساعدني ويطلعني على ما فاتني من حقائق « نظرية » أساسية ، وان يدفعني إلى تصحيح الخطأ ، كان شعوري بالمقابل ان أول واجباتي ان أعامله بمثل ما يعاملني . وهكذا كتبت مقالي الطويل بنيف واربعين صفحة . كان ذلك المقال نتاج شهر من العمل المتواصل ، فرضه واجبي تجاه الأخ بسام وقارىء « دراسات عربية » وواجبي تجاه نفسي وعملي كله . ويؤسفني اليوم ان الأخ بسام لم يعاملني بالمثل: ٦ صفحات هذا قليل . وعلى أي حال ، فأنا أشكره مرة أخرى ، على هذا المقال الجديد والثمين : إنه خطوة جدية إلى الأمام في مناقشات الماركسيين العرب .

هذا البند (١) من مقال الزميل طيبي لا صلة له إذن بمواضيع الخلاف . ولكن له صلة بالحوار بين الزميلين الرفيقين ، وسيره وملابساته . واعتقد أن الأمر كله بات واضحاً للجميع . والفضل في التوضيح يعود اولاً للأخ بسام .

ولكن هناك شيء في مقال الأخ بسام أعتبره خارج مواضيع الحوار وخارج الحوار كله ، الدائر بين الزميلين الرفيقين . هو تطرق الأخ بسام الى ترجمة كتاب فانون « معذبو الأرض » على يد الدكتورين دروبي وأتلمي (ص ١١٣ ، ابتداء من السطر ١٣ حتى ص ١١٤ ، السطر ١) . يقول الأخ بسام : « لقد تطرقت هنا الى فانون وإلى الترجمة العربية لكتابه لأبيّن موقفي من القومية » (ص ١١٤ ، السطر ١) . بالحقيقة ، تطرق الاخ بسام بالدرجة الأولى الى ترجمة الكتاب العربية . فهو يعتقد ان هذه الترجمة « مزورة بشكل شنيع » ، يعرض الأمر في بضعة سطور ، ثم يقدم مثالاً واضحاً لجملة محددة ، لم يقنعني بتزوير شنيع . الفرق ليس كبيراً بين ترجمة الدكتورين وترجمة ناقدهما . شخصياً ، لم

أتّهم الزميل طيبي بتزوير شنيع ولا غير شنيع حين قرأت في مقاله الاول انه يترجم صيغة البيان الشهيرة على النحو التالي « إن العمال لا يعرفون وطناً لهم ». حتى انني في نقاشي مع الاخ بسام اعتمدتُ هذه الصيغة نفسهـــا ، مع انني في مؤلفاتي(مثلاً« الماركسية والشرق ») اعتمدتُ الصيغة الادق الاصح والمعروفة: « ليس للعمال وطن » ، وبينت القيمة التطبيقية العملية لهذا الشعار الذي طبقه لينين والبولشفيك الروس باصرار في ١٩١٤ ، بتحويلهـم الحرب الامبريالية إلى حرب أهلية .. وهناك صيغ أخرى في ترجمة الأخ بسام لبعض النصوص ، كان يمكن ان أتوقف عندها . ولكن إذا كنتُ اعتـبرُ نفسي « أحسن » في ترجمة النصوص من فلان أو فلان ، فإنني اترك هذا الاعتبار في صدري . وألا يكون عليّ أن ألج هذا الموضوع تفصيلياً، كأن أخصص مقالاً لنقد ترجمة كتاب محدد، بقصد توعية القارىء ، وفرض الدقة الكاملة والتأني والأناة والصبر على المترجم، مع تثبيتي لأكبر أغلاطه أمام القراء . هذا ما فعلته في ١٩٥٥ بالنسبة لترجمـــة كتاب لينين « الدولة والثورة » على يد الدكتور فؤاد أيوب (في مجلة « الثقافة الوطنية ») . ولعلّني « شددتُ » بعض الشيء على المترجـــم دون ان أقول « تزوير شنيع »(رغم تثبيتي لاخطاء فادحة، فاحشة). ولا اعتقد ان فؤادايوب كمترجم للمؤلفات الماركسية قد تضرّر من نقدي . ويتهم الزميل طيبي الزميلين دروبي وأناسي بأنهما يسقطان كل جملة لا تروق لهما . لا أعتقد انه على حـــق . شخصياً ، لم أفعل ذلك يوماً في تراجمي لكتب لينين وماوتسي تونغ وبليخانوف وهوكياومو وماركس ، بين ١٩٥٥ و ١٩٦٤ ، ولنصوصهم حتى اليوم . لا سيما وان هذه الكتب والنصوص تروق لي (وأسوأها – مثلاً رأيان خاطئان لانجلز– موضوع للبحث التاريخي والنظري ، يروق لي كما تروق الماركسية كلها، وبضمنها اخطاؤها أي سير تقدمها وتكوّنها الدائم !) . ولكن الاخ بســام ، اذا قرأ ترجمتي لـ « مختارات » من المؤلفات الاولى لماركس (الشاب) » ، فإنه سيجد ان هناك مقطعاً شهيراً في نص شهير عن موضوع شهير « استغنيتُ » عنه أو استغنى عنه « الرقيب » . وسيجد انه تحت عنوان « المسألة اليهودية » ، وضعت عنواناً

صغيراً هو « بحث في الانخلاع الانساني » بناء على طلب الرقيب أي بنـــاء على تسوية بيني وبين الرقيب ، غريبة . بالطبع ، مؤلف ماركس « المسألة اليهودية » كان في المكتبات وعلى البسطات ، وقد عاد بعد قليل وملأ المكتبات في طبعة جديدة صدرت في دمشق نفسها، ولكن الرقيب هو الرقيب حتى إذا كان صديقاً للكاتب .. وأستطيع ان أتابع هكذا الى ما شاء الله .. لكن ما شأن هذا كله في حوارنا ؟ فليعذرني القارىء على انسياقي مـــع الخروج عن مواضيع الحـوار . ولينتقل معي الى البند (٢) من مقالة بسام الجديدة (ص ١١٠ — ١١٢) .

(٤) انجلز والتعـــالي القومي الالماني .

مقالة انجلز عن آرندت

يقول الزميل طيبي : « في بحثي عن المسألة القومية لم أتعمق في تحليل أية من النظريات التي تطرقت اليها وهذا ما ذكرته حرفياً آنذاك ، ولهذا السبب كان عليّ الاقتصار على نواح معينة في النظريات التي عالجتهـــا وكل اقتصار يكون حسب تفكير الكاتب — اي كاتب — في نطاق ما يراه رئيسياً وما يراه ثانوياً ، وهذه النقطة بالذات تطرّق اليها الزميل مرقص ليشير إلى انه يعتقد انني تركت بعض الامور ذات الطابـع الرئيسي ، بينما اعتقد شخصياً انهـــا — وإن ليس أجمعها — ثانوية في النظريات التي عالجتها » (ص ١١٠) .

الزميل على حق : لم يتعمق في أية من النظريات التي تطرّق اليها ، وهذا فعلاً ما ذكره حرفياً في صفحة اولية من بحثه الطويل : « وفي هذه الدراسة ، سوف نتطرق بشكل عابر » (وما ذكرته حرفياً في حواري) ولكن التتمة التي تكمّل الجملة مباشرة كانت : « سوف نتطرق بشكل عابر إلى كل ما كتب عن القضيـة

القومية في الفكر الماركسي من ماركس وانجلز حتى الاممية الثانية .. اي حتى عام ١٩١٤ » . وبالطبع لا أنكر على الاخ بسام حقه ككاتب في ان يرى ثانوية مسائل من نوع تلك التي انتقدتها وعرضتها في مقالي (او اكثرهـا ما دام يقول « وان ليس أجمعها ») . صحيـح ان صفة « الثانوية » يطلقها الزميل ، حصراً ، على « بعض الامور » « في النظريات التي عالجها » . غير انني ، دفعاً لكل التباس ، أحبّ ان يوضح الاخ بسام ، تحديداً ، ما هي ، بين المسائل التي تناقشنا وتناقش عليها ، تلك التي يعتبرها ثانويـــة . ان ما أخشاه ان نبقى مختلفين على مفهوم « النظرية » و « المسائل النظرية » و « التنظير » . سوف نرى ذلك في مكان لاحق ، بمناسبة اخرى .

ويقوم الزميل طيبي بنقـــد ذاتي ثمين بصدد انجلز والتعـــالي القومي الالماني لانجلز :

« وبالطبـع فقد كانت هناك ثغرات عديدة في البحث كذلك كان في البحث تحامل على انجلز . وانا ارغب هنا في القيام بنقد ذاتي . واحب ان أشير إلى انني كتبت بحثي المذكور عن المسألة القومية في اواخر عام ١٩٦٧ وأرسلتـــه إلى « دراسات عربية » في اوائل ١٩٦٨ ولم ينشر البحث إلا في اواخر ١٩٦٨ أي في وقت كانت فيه أبحاثي عن الموضوع المعالج قد تعمقت . فلقـــد تبين لي لدى ابحاثي ان انجلز كان في الفترة الاولى مصاباً بالتعالي القومي قد بدأ بالتخلي عن موقفه رويداً رويداً . فبينما كان انجلز في شبابه معجباً بأشعار ارنست موريتس آرندت E. M. Arndt القومية ، الى درجة جعلته يكتب دراسة عنها (٣) ، نراه في الفترة الناضجة يبتعد عن الفكر القومي الالماني ، وينقده بشدة ، كما برهن على ذلك الباحث الماركسي الامريكي دايفز H. Davis في كتابه « الاشتراكيـــة والقومية » (٤) » .

من الممكن اذن ان نطوي هذه الصفحة . اريد أن اذكر القارىء بأنني ، حين

تحـــدّثت طويلاً (اكثر من مرة ، ولا سيما في مقالي – الحوار) عن موضوع التشيك واقرانهم ، وفصلت فصلاً تاماً بين الخطـــة التاكتيكية والمنظور الستراتيجي لانجاز وماركس في ١٨٤٨ (وبعدها) – خطة مناصرة الالمان ضد الروس والتشيك– باعتبارها خطة ومنظوراً صحيحين، وبين توقع انجاز لجرمنة التشيكيين خـلال فترة قادمة باعتباره توقعـاً خاطئاً واذا اردتم «ساذجاً» ، فانني لم أنفِ نفياً مطلقاً و١٠٠٪ احتمال ان يكون انجاز وماركس تحت تأثير شيء من « النزعة القومية الالمانية » . قلت ان ماركس وانجاز في شبـــابهما (١٨٣٥ – ١٨٤٠ او ١٨٤٠ –١٨٤٥) كانا تحت تأثير مؤثرات عديدة ومتنوعة ليست كلها بالضرورة ايجابية وصحيحة ونيّرة وخيّرة . وأضفت انه من المحتمل ان تبقى بعض المؤثرات غير الايجابية في فترة تكوّن اسس الماركسية وبلورتها (١٨٤٥ او ١٨٤٥ – ١٨٤٨) وبعدها ايضاً . والماركسية في تكوّن دائم إلى يومنا هذا والى غد قريب وبعيد . ولقد استفاد انجاز من خطئه بصدد انقراض الامة التشيكية ، والتفت بصورة منهجية الى المسألة القومية ؛ بتعبير آخر ، اذا نسبنا خطأ انجاز المذكور الى التعالي القومي الالماني المفترض عند صاحبه ، بدلاً من ان ندرس تاريخ تكون فكر الماركسية ومنهجها، نكون حرمنا انفسنا من تحليل المصادر النهاجية والمعرفية والنظرية والفلسفية للخطأ المذكور ، مثلاً : اثار نزعة وضعية « اقتصادية » « تقدمية » تؤمن بأن الالمان المنطقـة التشيكية بما انهم اكثر تقدماً وحضارة وثقافة ، وبما ان يهود المنطقة التشيكية نصف – ألمان ، فان الالمان سيذوبون التشيك . هذا موضوع شرحته من وجهـة نظر فهمي للأمور ، في « الماركسيـــة والشرق »[1] (نسي انجاز ان التشيك ليسوا متأخرين ، ولعله نسي موضوع التناسل واختلافه الممكن بين السلاف الزراعيين والالمان التجار والصناعيين ، لعله نسي العلائم القومية غير المنحلّة في الاقتصاد،

---

١ – منشورات دار الطليعة – بيروت ١٩٦٨ .

غير « الاقتصادية » ، ولعله لم يرَ ان الرأسمالية والتقدم والحضارة ترفع هـذه الشعوب السلافية الصغيرة أيضاً وبالضرورة إلى مرتبة الأمم الحديثة وتعززها قومياً . تلك هي نظرية ماركس وانجلز ولينين في المسألة القومية كما تتكوّن في الفترة اللاحقة . وانجلز نفسه في أواخر الستينات يلاحظ بنفاذ أن الأمة الايرلندية باقية ومتعززة رغم انقراض اللغة الايرلندية عند الايرلنديين !) .

يمكن إذن أن نطوي هذه الصفحة . وانجلز كما يقول الزميل طيبي وكما قلت وعرفت كان ناقداً شديداً « للفكر القومي الألماني » أو بالأحرى ناقداً شديداً وعميقاً للاوضاع الالمانيّة التاريخية كلها ، لما يسميه انجلز « البؤس الألماني » : ضيق الأفق ، الذهنيـة المسكينة ، الزحف على البطون في البلاطات المئات ، وغيرها كثير من الامور التي يجدها القارىء في بعض مؤلفاتي . إن نقـد ألمانيا والاوضاع الالمانية التاريخية ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسيـة والايديولوجية ، يكاد يكون اختصاص انجلز في التخصص النسبي القـائم بين المؤسسين الشريكين ماركس وانجلز . واحدى مزايا انجلز انكبابه اذن — بهذا وسواه — على المسألة القومية ، والتاريخ ، ولنقل على الجوانب « غير الاقتصادية » من التاريخ ، الجوانب العسكرية والحربية والقومية . هذا معروف جيـداً في كتابات خيرة الباحثين الماركسيين . (وهذا احد دوافع حب واحترام لينين لانجلز) . ولا أريد للأخ بسام طيبي أن يحصر نظره (وتقديره الجديد) في صدد انجلز والمانيا والقومية الالمانية ، بـ « نقد انجلز الشديد للفكر القومي الالماني » ، أي بما يعتبره « الناحية النظرية » !

لم يكن انجلز قومياً المانياً تعصبياً الخ . لقد تعمّقت أبحاث الزميل طيبي ، وتبيّن له : ان انجلز كان في الفترة الاولى مصاباً بالتعالي القومي » ولكنه « قـد بدأ بالتخلي عن مواقفه رويداً رويداً » . وقد كان الزميل في رأيه السابق الذي كتبه في أواخر ١٩٦٧ وأرسله في أوائل ١٩٦٨ ولم تنشره المجلة الا في أواخر ١٩٦٨ (ولم يرَ ضرورة ليرسل تصحيحاً بين « أوائل ١٩٦٨ » و « أواخر ١٩٦٨ ») ،

قد استند على أبحاث لباحثين ماركسيين بل وأحال القارىء الى نصوص لانجاز وصفحات لانجاز في مؤلفات ماركس وانجاز[1] . ولعله الآن (إذا نقد هؤلاء « الباحثين الماركسيين ») أدرك أنهم كباحثين ماركسيين ، ليسوا ماركسيين تماماً ، وليسوا باحثين تمامـــاً ، بل متسرعون راكضون يسدون ثغرات علمهم على هواهم .

ولا ريب أن القارىء لم يرتو عطشه تماماً . « كان انجاز في الفترة الأولى..» ثم « ... رويداً رويداً » . لعل انجاز لم يتخلص من إصابته بالمرض المذكور إلا بعد ١٨٥٠ . (وفي هذه الحال ، قد لا تكون استراتيجيـــة وخطة انجاز وماركس الاوروبية الديمقراطية القوميـــة البروليتارية في ١٨٤٨ — ١٨٥٢ صحيحة تماماً أو جوهرياً ، لعلها تخالف مبادىء البيان الشيوعي الصـــادر في أوائل ١٨٤٨ : ليس للعمال وطن . ياعمال جميع الاقطار اتحدوا !).الا انه تخلص على كل حال ! ويتنفس القارىء الهواء ، بعـــد ان شرب الماء وروى عطشه جوهرياً وإن لم يكن تماماً .

غير ان الزميل طيبي تابع كلامه . فأعلم القارىء كشرح وكبسط لفكرة الاصابة والتخلص منها بما يلي : « فبينما كان انجاز في شبابه معجباً بأشعار آرندت القومية ، إلى درجة جعلته يكتب دراسة عنها (٣) ، نراهُ في الفترة الناضجـة يبتعد عن الفكر القومي الالماني وينقده بشدة كما برهن على ذلك الباحث الماركسي الاميركي دايفيز في كتابه « الاشتراكية والقومية » (٤) » .

---

١ — « دراسات عربية » عدد نوفمبر ١٩٦٨ ، ص ٣٩ ، السطر ١ إلى ١٢ . وص ٥٤ (قائمة المراجع) المراجـــع ١٢ ، ١٣ ، ١٤ . المؤلفات : المجلد ١٦ ، ص ١٥٧ ف ، ص ١٥٨ ف ...

« وعندما تنقد انجاز هنا وبقسوة بالغة ، إنما ننقـــده عن حق . ولقد صـــدرت في تشيكوسلوفاكيا في السنوات المنصرمة الأخيرة عدة دراسات ... » (ص ٣٩) .

الرقم (٣) والرقم (٤) يحيلان القارىء إلى قائمـــة المراجـع المنشورة في الصفحة ١١٥ .

فلنقرأ (٣) في هذه الصفحة :

(٣) انظر :

F. Engels: Ernest Moritz Arndt. In: Marx - Engels - Gesamtausgabe I, Vol. II , Berlin 1930, P. 108.

ولنترجم إلى العربية :

(٣) انظر :

انجلز : « ارنست موريتس آرندت » . في : ماركس – انجلز – المؤلفات الكاملة ، الجزء ١ ، المجلد ٢ ، برلين ١٩٣٠ ، ص ١٠٨ .

هذه الطبعة هي الطبعة العلمية الكاملة السوفياتية – الالمانية . وهي معروفة عالمياً تحت اختصار M E G A وهي الاحرف الاولى من الكلمات الاربع « ماركس – انجلز – المؤلفات الكاملة » . والزميل طيبي يحيل القارىء العربي إلى ميغا Mega الجزء ١ ، المجلد ٢ ، الصفحة ١٠٨ . والقارىء العربي مقطوع عن أقـل من هذا بكثير . بالنسبة له ، ميغا Mega مثل فيغا Vega ، النجم البعيد الذي تتجه نحوه مجموعتنا الشمسية منذ مليارات السنين والذي لن تصل اليه بعـــد مليارات السنين .

وأنا أحيل الاخ بسام إلى ميغا Mega القريبة ، الجزء نفسه ، المجلد نفسه ، صفحات ٩٦ و٩٧ و٩٨ و٩٩ و١٠٠ و١٠١ و١٠٢ و ١٠٣ و١٠٤ و١٠٥ و١٠٦ و١٠٧ وإلى نهاية ١٠٨ وخاتمة مقالة انجلز ، من فوق المقطع الذي قصده في هذه الصفحة ١٠٨ .

اذا استجاب الاخ بسام لندائي ، فانه سيغير رأيه دون شك . والآن ...

نرجو أن يدقق الاخ بسام ميغا والباحثين الماركسيين الاميركيين .

ما هي الحكاية ؟

أولاً ما هو موقع مقالة انجاز الشاب من آرندت في تاريخ شباب ماركس وانجاز ؟

وثانياً ما هو مضمونها ؟

أولاً : ولد ماركس في ١٨١٨ وانجاز في ١٨٢٠ . وتعتبر عادة فترة ١٨٤١ – ١٨٤٥ ، فترة « الشباب » ، فترة الاختمار ، فترة المخاض الكبير الذي يصل في١٨٤٥ إلى «الموضوعات عن فويرباخ » التي بلور فيها ماركس **الأسس الفلسفية** للمذهب الجديد ، بعد ١٨٤٥ : الايديولوجيا الالمانية ، **الرسالة إلى آ تنكوف** ، بؤس الفلسفة ، **البيان الشيوعي** ١٨٤٨ . في ١٨٤١ ، أطروحة ماركس لنيل الدكتوراه وموضوعها الفرق بين فلسفة ديمقريط وأبيقور . بين ١٨٤١ و١٨٤٥ ، نقد فلسفة الدولة وفلسفة الحقوق عند هيغل لماركس ، تصفية حساب برونو باور واخوته على يد ماركس وانجاز ، المسألة اليهودية لماركس ، حالة الطبقة الكادحة في انكلترة لانجاز . وبالطبع فترة الشباب هي أيضاً الفترة السابقة ١٨٣٥ – ١٨٤١ ، ولو ان هذه الفترة الأولى تعتبر في أحيان كثيرة خارج او ما قبل « فترة الشباب » التي تمهد مباشرة لعام ١٨٤٥ ، والتي هي فترة ١٨٤١ – ١٨٤٥ ، فترة الاختمار العظيم ، فترة انضاج أو تكوّن أسس الماركسية . والسؤال أين تقع مقالة انجاز عن الشاعر القومي الالماني آرندت ؟ في ١٨٤٥ ، في ١٨٤٢ في١٨٤٧ ؟ كتب انجاز هذه المقالة في اواخر ١٨٤٠ ، ونشرت في أوائل ١٨٤١ في صحيفة تلغراف . كان عمر انجاز عشرين سنة بالضبط (ولد في ٢٨ / ١١ / ١٨٢٠ .

وهي مقالة عظيمة ثمينة رائعة. في هذه المقالة ، يندد انجاز بأقصى ما يمكن من الشدة بروح العداء لفرنسا ومنجزاتها الثورية ، وهي الروح المنتشرة في

أوساط الشباب الالمان والتي تسعّرها الرجعية الالمانية (لصالح بريطانيا سيدة العالم وروسيا القيصرية الاستبدادية ، كما يقول انجلز) . وينتقد انجلز بشدة الافكار الرجعية للمدرسة الحقوقية الالمانية الشهيرة باسم « مدرسة القانون التاريخية » . ويأخذ على الشاعر آرندت الذي كان في ١٨٠٧ — ١٨١٣ رمز الكفاح القومي التحرري ضد المحتلين الفرنسيين ، بعض آرائه الرجعية ولا سيما معارضته لفكرة توزيع الارض . ولكنه يثمن الشاعر عالياً لأنه مثل درجة ضرورية في تطور روح الشعب او عقل الشعب . وينتقد انجلز النزعتين القومية والكوسموبوليتية (العالمية ، اللاقومية) سواء بسواء ويعتبرهما درجتين متعاقبتين في تطور روح الشعب ، ويدعو الى توحيدهما وتجاوزهما (على غرار أحلى ما يريده الأخ بسام في كتاباته) الخ ..

ولكن ما هي هذه الصفحة ١٠٨ ، او هذه الفقرة من الصفحة ١٠٨ ، التي قصدها الزميل طيبي (وعلى ما يبدو الزميل ديفيس ، الباحث الماركسي الاميركي صاحب مؤلف « القومية والاشتراكية » الذي ذكره الاخ بسام في السطر اللاحق محيلاً القارىء الى الرقم ٤ من قائمة المراجع) ؟

في هذه الفقرة أعرب انجلز الشاب عن رأيه في وجوب ضم ضفة الراين الغربية وبلجيكا وهولندة وجرمنتهما كضرورة سياسية لالمانيا والوحدة الالمانية .

ولا ريب انه اخطأ تماماً : بلجيكا وهولندة شيء آخر[1] . وانجلز يعترف بأن البلدين لا يريدان ذلك ... ويضيف : « اننا لن نكون جديرين بأن نكسب

---

١ — انجلز ، ماركس ، لينين ، يفضلون دائماً مبدأ دولة كبيرة ممركزة على مبدأ دول صغيرة (إذا تساوت الشروط الأخرى ، بعكس أكثر ماركسيينا الذين يحبون الدول الصغرى ، يتصورون ان الصغير والديمقراطية متوازيات ، عند ماركس وانجلز ولينين : العكس) . غير أن انجلز في ١٨٤١ وربما في ١٨٤٩ — ١٨٥١ حمّل هذا الاتجاه الكبير نزعة جزئية خاطئة تمثّلها ماركسيونا يرفضون هذه النزعة الجزئية الخاطئة ، يتخذون موقفاً سليماً ومطهراً منها ، ومطهراً من الاتجاه الكبير ، مطهراً من الماركسية .

الينا الالزاسيين ، ما دمنا لا نستطيع ان نعطيهم ما يملكون منذ الآن ، حياة حرة في دولة كبيرة . لا ريب ان كفاحاً سيدور بين فرنسا وبيننا ، وسوف نرى مَن من البلدين جدير بامتلاك الضفة اليسرى من الراين » .

هل يمكن ان نبني تهمة التعالي القومي الالماني على موقف انجاز من بلجيكا وهولندة ؟ لنتذكر انجاز والتشيك في ١٨٤٩ – ١٨٥١ . صحيح ان التشيك وأقرانهم كانوا طلائع الزحف القيصري ضد « ربيع الشعوب » ، وليس البلجيكيون والهولنديون في هذه الحال . ولكن الموضوع – أي خطأ انجاز في كلا الحالتين ، بصدد المسألة « القومية » – هو الجرمنة ، والتشيك أبعد عن الالمان من الهولنديين والبلجيكيين . لا يكفي موقف انجاز من بلجيكا وهولندة حتى نصدر هذا الحكم (الا اذا اصدرنا هذا الحكم بشكل مضاعف على تسعة أعشار رجال الثورة الفرنسية العظمى ، وهذا يكون موقفاً خاطئاً ، أحادي الجانب . ان معيار العصبية القومية الالمانية الرجعية في ١٨٤٠ – ١٨٤٨ هو الموقف من فرنسا وشعبها ومنجزاتها . ويمكن القول ان الشعبين المحبّبين لانجاز في ١٨٤١ هما الالماني والفرنسي . وهذا نقيض موقف « القوميين الالمان » الذين يندد بهم انجاز . (وهذا واضح عند ماركس وانجاز في فترة الشباب التالية[1]). أين التعالي القومي الالماني في اعتبار فرنسا دولة كبيرة عظيمة يعيش فيها مواطنون أحرار ؟ والكفاح المقبل الذي يتوقعه انجاز بين الامتين الكبيرتين هو في المحصّلة كفاح الجدارة والاستحقاق ، وموضوعه ليس الالزاس أو الالزاس فقط (والالزاس ألمانية اللغة) بل الضفة اليسرى من الراين ، أي على ما يبدو مدن كولن ومايننس[2] وتريير مسقط رأس ماركس وربما بارمن مسقط رأس

---

١ – كره ماركس وانجاز لفرنسا ريشوليو ونابوليون الثالث ، وبصدد المانيا والوحدة الالمانية ، سيبرز في الخمسينات والستينات .

٢ – مدينتان خطيرتا الأهمية في أيام الثورة الفرنسية ونابوليون . الاولى كانت مركز تجمع–

انجاز الخ ، وكلها بقيت وصارت بلاداً ألمانية وجزءاً من ألمانيا والامة الالمانية . وانجاز محق تماماً في نقده للفرنسيين الذين يؤمنون ايماناً ثابتاً « بأن الراين ملك لهم » !

ولكن لنتابع هذه الصفحة ١٠٨ ، التي أحالنا الزميل طيبي اليها . كيف ينهي انجاز ما أسماه الزميل « دراسته عنها » ، أي عن « أشعار آرندت القومية » ؟

« لنترك لتطور الشعبين (ألمانيا وفرنسا) وروح العالم (او عقل العالم) أمر حل هذه المسألة (مسألة امتلاك الضفة اليسرى) ولنسع الى اتفاق بين الامم الاوروبية يقوم في الوضوح ، ولنسع إلى تحقيق وحدتنا القومية التي هي بالنسبة لنا ضرورة أولية والتي تشكل قاعدة حريتنا المقبلة . ما دام وطننا مجزأ ، فان الحياة العامة ، ونمو النظام الدستوري ، وحرية الصحافة ، وكل ما يمكن أن نطلب ستبقى رغبات عابثة » .

مرحى لانجاز العشرين عاماً ! وشكراً للأخ بسام ! ورجاء له أن يعود إلى ميغا ، وإلى مؤلف هوراس ديفيس سواء بسواء .

للنبلاء الفرنسيين الفارين من الثورة . والثانية مركز الانتفاضة « اليعقوبية » الوحيدة في المانيا زمن الثورة الفرنسية (أعلنت انضمامها إلى الجمهورية الفرنسية بقيادة جورج فورستر) ، الثورة الفرنسية ، نابوليون الاول ، فرنسا القرن التاسع عشر ، فرنسا القرن العشرين (١٩٢٠ - ١٩٣٠) ، فرنسا القرن السابع عشر ، السياسي ريشوليو ، الشاعر آلفريد دو موسيه ؛ الراين ، الراين ، فكرة ثابتة . والراين ألماني . لا وجود لألمانيا بدون الراين. وفرنسا منذ قرون أمة مكوّنة وموحده . والمانيا ليست كذلك .

حق نقدر موقف انجاز جيداً . يجب أن نتذكر أن تلك الفترة شهدت صداماً كبيراً بين الامتين وشعرائها على موضوع الراين وضفته اليسرى الالمانية . من المستحيل أن نعتبر موقف انجاز « قومياً ألمانياً . وبالمقابل ، أن موقفه أسلم أو أقرب ما سوف يكون الماركسية) من موقف الليبراليين الكوسموبوليتيين الالمان ، والماركسية ستؤكده : الراين ليس ولن يكون ملكاً لفرنسا .

شكراً للأخ بسام . لأنه دفعنـــا الى التحديد واجبرنا على الدقة . في سن العشرين سنة ، في جو المانيا القومي ، وفي جو المانيـا العظيم حامل الاختبارات الفلسفية الكبرى ، كان انجلز قد تخلى عن حماسه غـــير النقدي للشاعر الالماني آرندت . وفي هذا العمر شعر بوجوب تحديد موقفه من أفكار كان قد تعاطف معها سابقاً، فجاءت دراسته ثمينة تمثل بداية مرحلة الراديكالية السياسية في حياته (وحياة ماركس) . قبل هذا السن، كان انجلز الفتى مسيحياً انسانياً مثالياً يكره كذب وخداع المناخ البروتستانتي الزائف من حوله، ثم تعاطـــف مع الشباب القوميين الالمان ، وتعاطف مـع اشياء كثيرة متنوعة [1] ، وصولاً الى عمر العشرين. فلنحب انجلز « الكهل » والناضج والشاب والفتى والمراهق . ولنرفع رأسنا بهذا المؤسس الخالد .

أما بالنسبة « لأشعار آرندت القومية » فأنني أجهلها . ولكن لا يضر أحداً أن أنقل هنا شرحاً ورد في مرجع سوفياتي [2] عن آرندت .

« آرندت ، ارنست موريتس (١٧٦٩ – ١٨٦٠) ، كاتب الماني ، مؤرخ وعالم لغة وآداب. لعب دوراً فاعلاً في حرب التحرير الشعبية ضد حكم نابليون . في ١٨٤٨ – ١٨٤٩ ، عضو الجمعية الوطنية في فرانكفورت (وسط يمين) مؤيد للملكية الدستورية » .

---

١ – والنفس الأساسي لانجلز الفتى هو فكرة الحرية (كتب قصيدة عن البدو الأحرار) . والتعاطف العابر مع « القومية » الالمانية لم يكن تعاطفاً مع الأمراء الالـــمان المستبدين! على أي حال ، الميول الليبرالية والديمقراطية لانجلز ظاهرة منـذ أوائل ١٨٣٩ . وظهر اهتمامه بقضية البؤس العمالي في منطقته الصناعية منذ ١٨٤٠ او ربما قبلهـــا . والمعروف ان انجلز وصل الى فكرة « الشيوعية » قبل ماركس .

٢ – ماركس – انجلز : الايديولوجيا الالمانية ، طبع موسكو ، بالانجليزية ، ١٩٦٤ ، ص ٧٠٨ (فهرس الناشر السوفياتي بأسماء الأعلام) .

(٥) « الدور التقدمي للقومية » . « القومية الانسانية » و « القومية المضادة » . برلك وفيخته .

ويواصل الزميل طيبي نقده الذاتي : « وهناك أمراً هاماً جداً لم أتطرق اليه في بحثي عن المسألة القومية ، مما جعل الياس مرقص ينقدني — وبحق — حوله وهذا الامر هو الدور التقدمي الذي لعبتهالقومية في القرن السابع والثامن عشر في اوروبا ، حيث ساعدت القومية على التحرر من الكنيسة والاقطاع . ولكن الاشارة الى هذا الدور التقدمي — والذي وعاه كل من ماركس وانجلز — يجب ان تكون في اطار تاريخي ، فالقومية في اوروبا ومنذ القرنالتاسععشر أصبحت ايديولوجية رجعية وفي القرن العشرين أصبحت ايديولوجيـة الغزو الامبريالي كما اشار الى ذلك عدد من الباحثين الماركسيين (٥) » (ص ١١٠) .

وهنا ايضاً شكراً لبسام طيبي في الجوهر والاساس . غير انه لا بد من بعض الملاحظات ، بعضها يكاد يكون لفظياً :

١ — في اوروبا الغربية : فرنسا ، انكلترة ، هولندة ، المانيا ، ايطاليـا . في اوروبا الشرقية ، الامر يختلف: عصر الثورة الديمقراطية الحقيقيـة حاملة الحركات القومية التقدمية والجماهيرية لا يبدأ بوجه الاجمال في الشرق الاوروبي ، الا بعد القرن الثامن عشر واحياناً بعده بكثير .

والقومية التشيكية في ١٨٤٨ رجعية ولكنها في ١٩١٦ تقدمية وثورية (هذا واضح عند لينين) .

٢ – في اوروبا الغربية (أي الغربية والوسطى) وحتى ١٨٧٠ ضمناً ، تاريخ تحقق الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية . اذا كان الاخ بسام لا يزال مصمماً على اخراج فترة ١٨٠٠ – ١٨٧٠ من فترة الدور التقدمي الحقيقي والنسبي للحركة القومية ، فانه لا يكون قد تقدم كثيراً . القرن التاسع عشر هو القرن الرئيسي في هذه المسألة القومية ، ومشاكل محتوياتها التقدمية والرجعية .

٣ – مع المحافظة على مفردات الزميل ، أقول : « القومية » لعبت دوراً تقدمياً في ... ، ليس فقط لانها « ساعدت على التحرر من الكنيسة والاقطاع ، بل ايضاً بالارتباط مع ذلك ، لانها ساعدت على تكوين الامة والدولة القومية ، الدولة القومية المتميزة ، الموحدة ، المستقلة ، حتى القرن الثامن عشر في غربي اوروبا ، وحتى ١٨٧٠ في وسطها . هذا الأمر بالغ الأهمية في المضمون الماركسي لطور نمو الرأسمالية وطور الثورة الديمقراطية البرجوازية الخ. ان طور التحول البرجوازي التقدمي من التاريخ ليس فقط تقدمياً لانه يحرر من الكنيسة والاقطاع ، بل ايضاً لانه ينشىء الدولة القومية ، هذا الاطار الطبيعي السليم لنمو الرأسمالية وتقدم المجتمع كما يقول ماركس انجلز وكاوتسكي ولينين[1].

٤ – « القومية » حملت سخافات واشباحاً ونوازع استعلائية وتسلطية وعدوانية واستعمارية منذ البداية ، منذ القرن الثامن عشر ومنذ القرن الثالث عشر وحتى اليوم وغداً وبعد غد . (هذا واضح في كتابي

---

١ – ضد روزا لوكسمبورغ في ١٩١٤ .

« نقد الفكر القومي ») .

٥ – بعد تحقق الهدف القومي الاساسي ، اصبحت « القومية » في اوروبا الغربية والوسطى ، جوهرياً ، عدوانية رجعية بمبنية خادعة ، غرضها «توحيد» الأمة ضد صراع الطبقات في الداخل وضد الشعوب الاخرى ومن أجل التوسع الاستعماري . هـذا واضح في كل اوروبا الغربيـة والوسطى في آخر القرن التاسع عشر ،وعند الامم الاوروبية المتأخرة مالكة أسلاب قومية (مثلاً الأمة الروسية) .

هذا كله أوضحته في مؤلفاتي السابقة ، وأعتقـد انه واضح في حواري السابق مع الأخ بسام .

ويواصل الزميل طيبي تحليله لـ « القومية » فيقول : « في القرن السابـع عشر كانت القومية ذات طابع انساني فأخذت شكلاً حضارياً تقدمياً ، ولم تكن القومية لتتعارض مع الليبرالية ، التي كانت آنذاك ايديولوجية البرجوازية في حقبتها التاريخية التقدمية . وخلال الثورة الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر ظهرت القومية بشكل أوضح – أي ممـا كانت عليه في القرن السابع عشر – فكانت القومية لدى الفرنسيين تعني نشر الافكار التقدميـة للثورة الفرنسية . هذه الأمور لاحظها ماركس ، واكدت عليها الابحاث الحديثة عن القومية التي قام بها بويد شيفر (٦) B. Shafer وآخرون .

هـذا النوع من القومية سماه باحث القوميـة الشهير كارلتون هيس C. J. H. Hayes (٧)القومية الانسانية Humanitarian Nationalism. لكن عندما بدأ نابوليون نشر افكار الثورة الفرنسية تحت هـذه القومية الانسانية بدأت«القومية– المضادة» Contre Nationalism – حسب تعبير هيس – بالظهور كرد على القومية الانسانية فكانت كتـابات ادموند بيرك E. Burke في انكلترا وخاصة كتابـه الشهير :

Reflections on the Revolution in France.

وفي المانيا كتابات فيخته الشوفينية التي تشكل المصدر الرئيسي في فكر « فيلسوف القومية العربية » ساطع الحصري » (ص ١١١) .

ويتركز الحديث بعد ذكر فيخته على المانيا وقوميتها الهمجية بدليل ابحاث لويس سنايدر ونبوءة لماركس ثبتها جورج لوكاكش . غير انني قبل متابعة النص ، أريد أن أبدي ملاحظتين متكاملتين :

١ — هذا التصنيف الذي نحته كارلتون هيس في ١٩٥٠ والذي يقسم «القومية» الى قومية انسانية خيرة Humanitarian والى قومية — مضادة ، لم أجده عند ماركس او انجلز او لينين او عند الباحثين الماركسيين الذين أعرفهم . وقد أكون متخلفاً عن سير الابحاث الماركسية . غير أنني أعتقد ان هذا التصنيف انما استند عند صاحبه على وقائع جزئية وافكار جزئية (وربما اقوال جزئية لماركس او انجلز ، مقطوعة من اطارها) ، استند على نظرة « ايديولوجية » مثالية الى تاريخ تلك الفترة الخطيرة الحاسمة والمتشابكة العوامل والاتجاهات من تاريخ البشرية (الثورة الفرنسية ، حروبها ، حروب نابوليون ، والحروب ضد نابوليون ١٧٨٩ — ١٨١٥) ، والى نظرة « فكرية » الى « الافكار » و « نظريات » الى « النظريات » . هذه النظرة ليست نظرة ماركس وانجلز ولينين .

بالطبع ، انا افضل على هذا كله ما يقوله لينين مراراً ، مثلاً في البرافدا ٢٤ / ٢ / ١٩١٨ ، بمناسبة الصلح مع الالمان وحملة لينين على شيوعيي اليسار فرسان الحرب الثورية ضد الامبريالية الالمانية ، « فرسان الجملة الثورية » :

« إن حروب نابوليون الامبريالية دامت سنوات طويلة ، شملت طوراً كاملاً وأظهرت شبكة بالغة التعقيد كانت فيها تتشابك علاقات امبريالية [1] وحركات

---

١ — وفي شرح ثمين ، يقول لينين : « اسمي هنا امبريالية نهب بلدان أجنبية بشكل عام ، وحرباً امبريالية حرب اللصوص الكواسر من اجل توزع هذه الغنيمة » .

تحرير قومي ، النتيجة كانت انه خـــلال هذا الدور البالغ الثروة في الحروب والدرامات (درامات عاشتها شعوب بأسرها) ، سار التاريخ الى الامام ، من الاقطاعية الى الرأسمالية « الحرة » » .

ونقول :

آ ــ حروب الثورة الفرنسية تقدمية وثورية دون ان تخلو من نوازع استعمارية امبريالية وتمثلية مستترة بـ « العالمية » الكوسموبوليتية ، بل وغـــير مستترة ، شوفينية صريحة .

ب ــ حروب نابوليون تحمل جانبين احدهما تقدمي ثوري والثاني رجعي ، زلزلة العروش والاقطاع والعهد القديم (ودفع وحدة المانيا الى الأمام !) ، والقضاء على استقلال الامم واخضاعها لفرنسا ونابوليون ، دفع التطور ولجم التطور .

جـ ــ الحروب القوميـــة ضد نابوليون ولا سيما في الفترة الاخـــيرة (نزول الشعوب ــ الأمم الى الحلبة بفضل نابوليون واصلاحاته وجزمته ونهبه اللصوصي ــ الاسبان ، الالمان ، الروس ــ) تحمل جانباً تقدمياً أساسياً وبالغ الشأن ، رغم وجـود القيصر وبريطانيا في زعامة الحلف المناهض لفرنسا .

التطور ، التقدم ، هو ايضاً تطور وتقدم الامم . وليس « اوروبا الانسانية » ، الفرنسية !

إن النظرة الفكرية الايديولوجية والمثالية الى الفكر والايديولوجيـــا والتاريخ تمنع شيفر وهيس وطيبي من رؤية الوجه « الامبريالي » في حروب وعمل نابوليون والوجه التقدمي في نضال الامم ضد حكم نابوليون . وطيبي ينسى ان « الافكار التقدمية » للثورة الفرنسية التي « ينشرهـا الفرنسيون » هي منذ البداية ودائماً افكار تقدمية « برجوازية » ، وبالتالي وايضاً قوميـة وتوسعية . وهو ، اذ لا تشغله « الناحية التاريخية » و « التفاصيل » التاريخية ،

يجهل ملابسات إعلان الحرب في ١٧٩٢، ويجهل ان الشخص الوحيد الذي وقف ضد مبادرة باريس الى هذا الاعلان كان روبسبيير ! – اما الجيروندين ممثلو البرجوازية – مصالح الصناعيين وتجار النبيذ الخ – فقد دفعوا اليها بقوة واصرار (والملك لويس ايضاً ، لأنه كان يأمل بتحطيم الثورة ...) ، ويجهل ان حروب الثورة حملت على الفور، مع طابعها التقدمي الثوري العظيم، طابعاً قومياً تسلطياً توسعياً صريحاً في العمل والافكار والذهنية، طابعاً شوفينياً مقيتاً [1] ، وان ضم الاقطار والمناطق المجاورة كان يحصل بوجه الاجمال ضد ارادة السكان، وان «صليبية التحرير» تحولت بسرعة الى حرب استيلاء، وان مجلس المؤتمر La Convention، إذ أعلن الالحاقات، فقد خالف مبدأ حق الشعوب والامم في تقرير مصيرها الذي أكده المجلس التأسيسي La Constituante قبل أربع سنوات . هذا أحد وجوه طور التشابك ودرامات الشعوب والتقدم ، كما ينقله بوضوح كامل وصدق وأمانة أي كتاب تاريخ مدرسي فرنسي . اني أرفع يدي تحية للثورة الفرنسية (ولنابوليون) التي فتحت مرحلة جديدة وعظيمة في تاريخ اوروبا والعالم ولكني لا أتحمس لفرنسا اكثر من الفرنسيين ، واكثر من الكتب المدرّسة لتلامذة فرنسا (وهي كتب تقدمية مناهضة للاقطاعية والعهد القديم ...) .

٢ – إن تصنيف كارلتون هيس سيء بشكل خاص لانه يجمع كتاب ادمون برك « تأملات عن الثورة في فرنسا » وكتاب فيخته « خطابات الى

---

١ – كلمة شوفينية كلمة فرنسية وليدة هذا الزمن الفرنسي . أنقل عن قاموس لاروس الصغير: «شوفيني : نسبة الى Nicolas Chauvin ، جندي طيب باسل من جنود الجمهورية والامبراطور . وطني متعصّب ، رجل مصاب بوطنية مقاتلة ومبالغة .

إن احدى الملامح الرئيسية لباريس الثورية حكومة وشعباً – احدى معطيات النفس والنفّس الفرنسي والباريسي الثوري – هو ، منذ ١٧٩٣ ، الشوفينية . وهذا بالطبع لا يلغي ولا ينقص من الدور التقدمي لحروب الثورة الفرنسية ونابوليون في اوروبا .

الامة الالمانية » تحت مقولة واحدة هي مقولة « القومية -- المضادة ».

شخصياً ، لا أرى في كتاب برك Burke كثيراً من « القومية » ، ولكني أرى فيه كثيراً من « المضادة » ، وأرى فيـــه سفالة تغطي صفحاته المئات من أولها الى آخرها. اما في كتاب فيخته فأرى كثيراً من « القومية » ،ولكني لا ارى فيه هذه السفالة .

كتاب البرجوازي الانكليزي ادمون برك صدر في سنة ١٧٩٠ . نال شهرة هائلة من بريطانيا الى كاترين روسيا المستبدة « المستنيرة » عبر النبلاء الفرنسيين الفارين من وطنهم الثائر الى بروكسل و كولن وفينا. لقد نظّر برك منذ ١٧٨٩ — ١٧٩٠ (اي حين كانت الثورة الفرنسية في بدايتها، قبل زمن الحرب والارهاب بسنوات) للرجعيـة الاوروبية المقاتلة الشرسة . كان كتاب هـــذا الليبرالي الانكليزي اول اعلان — اعلاناً حاداً — عن تحول البرجوازية الأكثر تقدماً الى قوة رجعية في تاريخ الطور البرجوازي الصاعد والنازل كله ، فكان كتاباً تتلمذ عليه اجيال من قوى المحافظة والكنيسة والرجعية الاقطاعية والبرجوازية طيلة القرن التاسع عشر . حارب برك « افكار باريس » « الافكار الفرنسية »، كما لم يحاربها احد حتى مجيء روزنبرغ وهتلر ، افكار « الفلاسفة » ، افكار « الموسوعيين »، وعصر الأنوار ، افكار مونتسكيو وفولتير وروسو وديدرو، افكار « العقل » و « النظـــام الطبيعي » و « العقلاني » ، افكار « الشعب » والفرد و « المجتمع المدني » ، زيـف الثورة البرجوازية الانكليزية السابقـــة رجعياً ، أيد مبدأ التسلسل « الطبيعي » و « التاريخي » و «العضوي » لطبقات النبلاء والبرجوازية والعوام الخ ... وهذا جوهر كتابه من ألف الى ياء . هذه « التأملات عن ثورة فرنسا » هي تأملات ضد ثورة فرنسا بدءاً من ممهداتهـــا الفكرية المباشرة والقديمة سواء بسواء ، انها تأملات موجهة ضد كل التراث الفكري لتاريخ الصعود البرجوازي العظيم منذ قرون،بالعداء المطلق او التزييف المكشوف .

وكتاب فيخته شيء آخر . صدر في ١٨٠٧ - ١٨٠٨ . حين كانت الأمة الالمانية المتخلفة المهلهلة العميقة التمزق والعظيمة الفكر ترزح تحت النير الفرنسي النابوليوني ، وفي وقت كان فيه بعض المفكرين الالمان يلحسون جزمة الاجنبي، والبعض الآخر تائهاً ضائعاً ... سخافاته ، شطحاته ، أوهامه ، أباطيله ، رجعياته ، عرضتها وفندتها في كتابي « نقد الفكر القومي لساطع الحصري » (ص ٣٩٦ — ٤٠٥) أي انني حللتها وقيمتها في ظروفها التاريخية والواقعية. وفي هذا الصدد ، أنقل مرجعاً سوفياتياً [١] :

« ناضل فيخته ضد الغزو النابوليوني ، ودعا الالمان الى الدفاع عن سيادتهم القومية ، ولكنه في الوقت نفسه قبل المبالغة الشوفينية في دور المانيا التاريخي . كان بطلاً من ابطال التوحيد القومي لبلاده » .

وخلاصة القول :

ليس من الصواب ان نجمع افكار فيخته القومية وافكار ادمون برك في مقولة واحدة من نوع « القومية — المضادة » .

الاولى هي بالدرجة الاولى مضادة. والثانية هي بالدرجة الاولى قومية .

الاولى مضادة للثورة الفرنسية بقضها وقضيضها . الثانية ليست كذلك .

---

١ — القاموس الفلسفي الصغير ، تأليف روزنتال ويودين، موسكو، بالفرنسية ، ١٩٥٥، ص ٢١١ . هذا القاموس الصغير الذي ليس قاموساً سياسياً يثمن الجانب الايجابي في فلسفة فيخته المثالية الذاتية القصوى (فكرة فاعلية الذات التي زيفها صاحبها العظيم مثالياً) . وهذا ما يفعله اليوم أغلب الباحثين الماركسيين (فيخته أحد روافد ماركس الفلسفية ، احدى الحلقات في تاريخ الفلسفة الكلاسيكية الالمانية التي لولاها لما كانت ماركسية . لم أنس ذلك في كتابي « نقد الفكر القومي » عند عرضي ونقدي لفيخته الخطيب القومي . رغم انه لم يكن موضوعي . ولكن اذا دققنا ، قد يكون جزءاً من الموضوع وروابطه .

وبسرور ، ألاحظ ان الزميل طيبي يثمن فيخته الفترة الأولى (عصر الانوار) تثميناً عالياً الى جانب فولتير وليسنغ وهيغل (مجلة « الآداب » ، العدد ٨ ، ١٩٦٨).

ولقد أطلق احد « الباحثين » (ليس ماركسياً ولا أميركياً ، بل برجوازي وفرنسي) ، اطلق على فيخته الوصف التالي : « ابن الثورة الفرنسية ونابوليون، وأبو الوحدة الالمانية » . برك مضاد ابن مضاد لـ ١٧٨٩ وما قبل ١٧٨٩ ، اراد ان يلتهم اباه في باريس وفي العالم . ليس فيخته هذا « المضاد » .

الاولى : ثورة – مضادة للفكر البرجوازي والرجعي العالمي .

الثانية : « قومية » للألمان .

لو كان الاخ بسام الطيبي يعرف وصف لينين لحروب زمن نابوليون وآراء المراجع السوفياتية ومراجع ماركسية كثيرة من تلك الحقبة التاريخية كلها وتقييمهم الثنائي لفيخته ودعوته القومية وتقييمهم الجدلي لزمن فيخته وافكار ذلك الزمن(وهو التقييم الذي يعترض على الشطحات القومية التعصبية للمتأخر والمسحوق ويعترض على وهم الكوسموبوليتية الزائف قناع قومية البرجوازيات القوية المتقدمة وزخمها التوسعي المتفائل) ، لما تابع كلامه .

فلنتابع معه .

(٦) هل « النزعة العنصرية الفاشية هي الطابع الاساسي للقومية الالمانية منذ البداية » ؟

« وفي المانيا كتابات فيخته الشوفينية التي تشكل المصدر الرئيسي في فكر « فيلسوف القومية العربية » ساطع الحصري . لقد قام الباحث الامريكي الشهير لويس سنايدر خلال سنوات طويلة ببحث علمي عميق حول المصادر الفكرية للقومية الالمانية ليبرهن بالشواهد العلمية الكثيرة على ان النزعة العنصرية الفاشية هي الطابع الاساسي للقومية الالمانية منذ البداية (٨) » .

يحيلنا الزميل طيبي بالرقم (٨) الى مؤلف سنايدر« القومية الالمانية . مأساة شعب . طبع هاريسبورغ ، ١٩٥٢ » .

إحالة لا أستطيع أن أحققها لسوء حظي . « السنوات الطويلة » التي بذلها سنايدر في « بحث علمي عميق » ، ليته بذلها في عمل آخر ، اذا كانت هذه هي النتيجة التي وصل اليها :«النزعة العنصرية الفاشية هي الطابع الاساسي للقومية الالمانية منذ البداية » !

وليت الزميل طيبي يعود الى الكتاب الذي سيحيلنا اليه بعد قليل . وهو كتاب الفيلسوف الماركسي الحقيقي « الشهير » جورج لوكاكش وعنوانه«تحطيم العقل » (جزءين) وهو تحليل نقدي تفنيدي يغطي تاريخ الفكر الفلسفي اللاعقلاني (المناهض للعقل باسم « الحدس » و«الحياة » و« الاسطورة »)الالماني منذ عهد شيلنغ معاصر هيغل وصولاً الى «فلسفة» النازية عبر شوبنهاور ونيتشه وفلسفة « الحياة » وفلسفة « العرق » . ولقد خصص لوكاكش فصلاً اول طويلاً لتاريخ المانيا الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والذهني منذ القرن الخامس عشر. وخصص في نهاية الكتاب فصلاً طويلاً للداروينية الاجتماعية ، والعرقية والفلسفة الفاشية النازية . وكل سير كتابه العملاق موجه نحو كشف الروابط الفكرية التاريخية كلها « منذ البداية » ، هدفه تغطية كل سفالة المانيا الفلسفية من اوائل القرن الماضي وصولاً الى النازية . ولوكاكش يؤدي المهمة بنفاذ ماركسي عميق ، وكتابه ، الذي أنجزه في بودابست ١٩٥٢ ، سيبقى ، رغم الاخطاء الممكنة ، من روائع البحث العلمي الماركسي في الفلسفة الالمانية ، بل وفي تاريخ المانيا وفكرها . ومع ذلك ، فاني لا أعتقد ان باستطاعة قارىء الكتاب ان يعثر فيه على أطروحة من نوع « النزعة العنصرية الفاشية هي الطابع الاساسي للقومية الالمانية منذ البداية » !

اذ اولاً : ما معنى « الفاشية » عند هذه « البداية » وبعدها ؟

ما هي الفاشية ؟ ما هو تعريفها الماركسي ؟ هـل الفاشية يمكن ان تكون موجودة قبل عصر الامبريالية البادىء في اواخر القرن التاسع عشر ؟ ! ام ان الفاشية تظهر في ايطاليا وفي عدد من الدول الاوروبية ، وفي المانيا في شكل النازية[1]، على أساس الازمة العامة للرأسمالية التي فتحتها ثورة اوكتوبر الروسية، على أساس خطر الثورة البروليتارية وكل تناقضات الامبرياليـــة وصراعات أممها ؟

إن « الفاشية الالمانية » تأخذ معطيات فكرية ومادية بعضها يعود الى زمن قديم ، وقـد يعود بعضها الى عهد القنابل الجرمانية البربرية . ولكن تسعة اعشار معطياتها الفكرية والمادية معطيات فكرية ومادية لزمن الامبرياليـــة. والقول بأن الفاشية هي « الطابع الأساسي للقومية الالمانية » منذ « البداية » او منـــذ الوسط او بعد الوسط قول لامعنى له .

اليكم – مثلاً – ما يقوله لوكاكش (بعد تحليل مقارن لفن الدعاية الهتلري وفن الاعلان التجاري الاميركي) :

« في شخصية هتلر ، يجتمع اتجاهان يلتقيان في مركز واحـد : من جهة ، التكنيك الاكثر تطوراً للرأسمالية الاحتكارية ، التكنيك الاميركي ، ومن جهة أخرى الايديولوجيا الرجعية الاكثر تطوراً للرأسمالية الاحتكارية في مرحلـة الامبريالية ، الايديولوجيا الالمانية . إن إمكانية إنشاء هذه المقارنة ، هـــذه الوحدة ، تكفي وحدها للدلالة على أن بربريـــة وكلبيّة Cynisme الطور الهتلري لا يمكن فهمها ونقدها الا انطلاقـاً من تحليل النظريات الإقتصـادية ، تحليل البنية الاجتماعية واتجاهات التطور للرأسمالية الاحتكارية. إن كل محاولة لتفسير الهتلرية على انها انبعاث لبربرية قديمة ايا كانت لا بدّ ان تدع تمر ملامح

---

١ – الفاشية اذن ظاهرة اوربية عالميـــة وليست ظاهرة المانية قومية خاصة . هذا اولاً ؟

جوهرية ونوعية وحاسمة للفاشية الالمانية »[1] .

وثانياً : ما هي « العنصرية » ؟

إنها العرقية او فلسفة العرق ، Race, Racisme . وفلسفة العرق ، كما يبين لوكاكش ، وكما هو معروف عند جميع الناس ، هي جوهر مضمون « فلسفة الفاشية » الالمانية النازية (ليس الأمر كذلك في الفاشيات الاخرى المزامنة) ، « فلسفتها » الشعبية او العامية ، فلسفة الجمهور وفرق الصاعقة والانقضاض والجنود السفاحين وفلسفة «علمائها» وجامعاتها ومختبراتها «العلمية» ، سواء بسواء ، فلسفة هتلر وروزنبرغ وغوبلز وملايين البشر الذين استولت عليهم الاسطورة . ومبادؤها : العرق ، العروق ، انقسام البشر الى عروق ، عالية ومنحطة ، يجب ان تسود وأن تخضع ، تفوق العرق الآري الجرماني الصافي ، حقه في السيادة على العالم ، في الوصول الى الاورال ، في استعباد الشعوب والاجناس ، في ذبح اليهود والسلاف ، في جرمنة الاقارب شبه الجرمان في الآرية التي لم تلوّث كثيراً الخ الخ.

ولكن من انشأ فلسفة العرق ، وكيف نمت وتطورت ، قبل وصولها الى روزنبرغ وهتلر ؟

لنفتح كتاب لوكاكش (الذي سيحيلنا الأخ بسام بعد لحظة الى صفحة منه ، ربما عن طريق سنايدر نفسه !) ، لنفتح كتاب لوكاكش عند هذا الفصل الرابع من الجزء الثاني الذي يحمل عنوان « الداروينية الاجتماعية ، العرقية ، والفاشية » (ص ٢٣٣ — ٣١٤) :

الفقرة الأولى ، تمهيدية قصيرة (ص ٢٣٣ — ٢٣٥) ، وعنوانها « بدايات العرقية في القرن الثالث عشر » ، ذكر فيها لوكاكش الكونت بولنفيليه

---

١ — لوكاكش : تحطيم العقل ، الطبعة الفرنسية ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

ومزاعم نبلاء فرنسا حول أصلهم الفرنكي الجرماني وردّ البرجوازية الفرنسية عليهم وعلى حق الفاتح الذي يرفعونه، وذكر ايضاً مدرسة القانون التاريخية الالمانية، وذكر قبل هذه وتلك اسم ادمون برك صاحب النظرية « العضوية » الخ ... ولا ارى اسماً لفيخته لا هنا ولا بعد هنا .

الفقرة الثانية ، « غوبينو مؤسس العرقية » (ص ٢٣٥ — ٢٤٥) . هذا الفرنسي هو مؤسس العرقية . أصدر كتابه « بحث في تفاوت العروق البشرية » في سنة ١٨٥٤ ، في الفترة التي تعقب ثورات ١٨٤٨ . وافكاره : ثلاثة عروق كبرى او « أنواع » بشرية : الأبيض والأسود والأصفر ، تفوّق العرق الجرماني ، مع نزعة الى التشاؤم : النوع الابيض يتبندق منذ زمن غير قصير ، والجرمان أنفسهم يتلوثون ، العروق الأخرى والهجينة تتكاثر ، المستقبل مظلم ، لا رجاء ، والتوراة وقصة يافث وسام وحام كأصل للبشرية . هذا لن يناسب هتلر وروزنبرغ : بسبب التشاؤم والدين ، (وربما لان قصة اولاد نوح تؤكد وحدة الأصل الانساني من أب واحد) .

الفقرة الثالثة ، الداروينية الاجتماعية » (ص ٢٤٦ — ٢٥٩) ، وروادها غومبلوفيكش وفولتمان وراتزنهوفر، وهي تنقل مذهب « الصراع في سبيل الحياة » الداروينية من حقل البيولوجيا الى حقل البشر والسوسيولوجيا ، مع نوازع متنوعة بيولوجية وعرقية .

الفقرة الرابعة ، « ه . س . تشمبرلين ، مؤسس العرقية الحديثة » (ص ٢٥٩ — ٢٧٤) . انكليزي انتهى الى التجنس بالالمانية . له مؤلفات كثيرة وكبيرة . مذهبه : تفوق الآريين ، تفوق الجرمان . وضع « أمله » في المانيا الامبريالية ، ثم في هتلر وروزنبرغ (عاصر بداية نشوء النازية) . أكد فكرة « الاسطورة » . حق الجرمان ، ضرورة السيادة الجرمانية على العالم ، صفاء العرق الجرماني ، وجوب تعزيز الصفاء ...

سلفه المباشر الفرنسي **لاغارد** : افكار مشابهة . « مأثرته » الشخصية انه « جَرْمن » المسيحية ، جعل المسيح آرياً جرمانياً ، طهّره من السامية اليهودية

الشرقية ! وتبعه الانكليزي هـ . س .تشمبرلين .

واسماء اخرى اقل شأناً : البروفسور الالماني فولفراف ، اصدر كتاباً عرقياً هامشياً في ١٨٥٥ ، بعد غوبينو (وهو كاتب ثانوي جداً ، اسمه اليوم لم يعد له ذكر في قائمة تاريخ فلسفة العرق ، وفي القواميس ، ولكن « العلماء »النازيين في الثلاثينات بعثوه، اكتشفوه، ردّوا له الاعتبار !) . والفرنسي فاشر دو لابوج الذي اصدر كتاباً بعنوان « الآري »L'Aryen في سنة ١٨٩٩ ، الخ.

العرقية مذهب محدّد ، « غني »المضامين ، واضح وثابت : مفهومه «العرق» وليس الامة ، دائماً . أسسه غوبينو في الخمسينات من القرن الماضي ، وطوّره وعدّله لاغارد و هـ .س .تشمبرلين وآخرون في اواخر القرن المـاضي واوائل القرن الحاضر ، أي في بداية عصر الامبريالية . ثم اتخذ طابعاً شعبياً وبسيطاً ومركزاً عند روزنبرغ : العرق – الاسطورة. على طول الخط : العرق الجرماني وسيادته على العالم . ليس : الامة الالمانية افضل أمة انزلت الى النـاس ، وعلى وحدتها وتحررها يتوقف مصير العالم وخـير الانسانية وفلاحها . بل : العرق الجرمـاني يجب ان يسود العالم ، ان يخضع ويستعبد العروق الاخرى ويستولي على اراضيها . (ليس جرمنة الروس والاوكرينيـين والبولونيين – مستحيل كما يقول هتلر – بل قتلهم واستعبـادهم و«ارجاعهم » الى ما وراء الاورال) .

نفهم اذن ان لوكاكش لا يذكر اطلاقاً فيخته في هذه القائمة التاريخية الطويلة، لا في « البداية » او البدايات ، ولا في الوسط الى جانب غوبينو وفولفراف ، ولا الى جانب الداروينية الاجتماعية .. حتى انه يذكر برك و « المضوية » ولا يذكر فيختـه .

ومع ذلك ، اعتقد شخصياً ان هناك عنصراً عند فيخته يمكن ان يمت بصلة – غير مباشرة – للعرقية ، وهو فكرة « أصلية » اللغة الالمانية (بصوابهـا وخطئها، بحقها وباطلها) والشعب – الشعب Deutsch حامل هذه اللغة والذي

بقي في الوطن الام (بخـــلاف الجرمان الآخرين الذين هاجروا واستوطنوا في الغرب والجنوب) ... صلة غير مباشرة وبعيدة . ولا أعتقد ان لوكاكش قـد أشار الى هذه الصلة من حيث انها صلة حتى بعيدة وغير مباشرة في موضع مـا من كتابه .

وثالثاً : رب سائل : ألم تستخدم شطحات فيخته العصبيـــة في مدارس المانيا النازية ! Sans Doute (لا شك مع بعض الشك القليل) كيف لا في دروس التاريخ ؟! انها تهز التلاميذ (مع بعض الابتسامة) في بلادنا العربية : اني اتوجه اليكم ، وعن طريقكم الى كل ابناء الأمة ... انقذوا الوطن، وحدوا الأمة ، ضد الطاغوت ، من أجل الحرية والمجد ، والا سقطت الانسانية دون أمل في بعث قريب ...

ولكن الايديولوجيا الهتلرية لم تعترف بفيخته كسلف لها لا من قريب ولا من بعيد. اعترفت بأربعة أسلاف فقط، وأدخلتهم الى جنة الخلد الآرية الجرمانية : الموسيقار العظيم فاغنر (مسرحياته الغنائيـة الطويلة المملة تدور حول بعض الاساطير الجرمانية القديمة) ، نيتشه (فيلسوف القـــوة واسطورة الوحش الاشقر الشمالي . لا يقول الآري او الجرماني . ولوكاكش لا يغمطه حقه كناقد للحضارة وكمفكر كبير . ولكنه « مؤسس لا عقلانية عصر الامبرياليـــة » ، وصف تلخيصي صحيح) هـ . س . تشمبرلين ، لاغارد . روزنبرغ رفض عرضاً تقدم به أحد الهيغليين — الجدد الرجعيين الفاشست بضم المعلم العظيم فيلسوف العقل والجدلية الى جنة الخلد ، رغم جوانبه الرجعية و « الجرمانية » ... وبالطبع ، فيخته خارج الموضوع ، رغم أهميته في تاريـــخ المانيا ، ورغم تكريمه (وجزئياً تشويهه) في بروسيا — المانيا البسماركية . بل نتصور ان افكار فيخته « القومية » يمكن ان تنسجم مع فاشيات أخرى اكثر مما تنسجم مع الفاشية الالمانية، رغم كون قومية فيخته قومية المانية: «العرق» شيء و «الأمة» شيء آخر في تاريخ الفكر الاوروبي كله ، « الأمة » ، أسوأ مفهوم للأمة ،

شيء آخر غير مفهوم « العرق » .

وهنا أعود مرة اخرى الى كتاب **جورج لوكاكش** . يستشهد الفيلسوف الماركسي الكبير بقول لهتلر نقله **هرمان راوشننغ** الذي كان من اقطاب الحزب النازي ثم فر الى اميركا حيث أصدر كتاباً فاضحاً نشر بالانكليزية تحت عنوان « صوت الدمار » (نيويورك ، ١٩٤٠) — وإذا لم تخني الذاكرة ، بالفرنسية تحت عنوان « قال لي هتلر » — ماذا قال هتلر لراوشننغ ؟ لنترك الكلام **لجورج لوكاكش** (الجزء ٢ ، ص ٢٨٠ — ٢٨١) :

« في حوار بين راوشننغ وهتلر ، وصل الحديث الى العقيدة المركزية في الفاشية الالمانية : العرقية . فأعطى هتلر التصريحات الآتية : « « الأمة » (بين مزدوجين) هي تعبير سياسي للديمقراطية والليبرالية . يجب ان نتخلص من هذا البناء المغلوط وان نستعيض عنه بمفهوم العرق الذي لم يتشرشح بعد في ميدان العمل السياسي .. أنا أعلم .. انه ، من وجهة النظر العلمية ، لا يوجد شيء يشبه العرق .. ولكن بوصفي رجلاً سياسياً ، فإني بحاجة الى مفهوم يسمح لي بأن أبيد وأحوّل إلى العدم المفهوم السابق عن العالم ، القائم على التاريخ ، وأن أقيم محله نظاماً جديداً تماماً مناهضاً للتاريخية ، وان أعطي لهذا المفهوم قاعدة ذهنية ». المطلوب تدمير الوظائف القومية .« بفضل مفهومها العرقي ، القومية — الاشتراكية (أي النازية ، الحزب النازي اسمه الكامل : حزب العمال القومي الاشتراكي الالماني) تستطيع ان تحقق ثورتها وان تقلب العالم » . من الواضح ان العرقية ليست بالنسبة لهتلر سوى ذريعة ايديولوجية ، تسمح بأن تضفي صفة الجذب والقبول ، في أعين الجماهير ، على فتح واستعباد اوروبا وإبادة الشعوب الاوروبية كأمم » .

نقلت كلام لوكاكش دون تنقيص . الجملة القائلة « المطلوب تدمير الوظائف القومية » هي للوكاكش . ولعلها اختصار من لوكاكش لبعض اقوال هتلر كما

وردت في نص كتاب راوشننغ .

فلنلخّص اذن اعتراضنا على صيغة الأخ بسام « النزعة العنصرية الفاشية هي الطابع الأساسي للقومية الالمانية منذ البداية » .

١ ـ ليست القومية الالمانية عند فيخته بل ومن كانوا على يمينه « فاشية » إلا بنسبة صغيرة وتافهة . وكلمـــة « فاشية » مطبقة على ما قبل زمن الامبريالية ليس لها معنى ، وبالأحرى في ١٨٠٠ ـ ١٨٤٨ (نقول نسبة تافهة ونقصد مثلاً واحد بالألف) .

٢ ـ ليست النزعة « القومية » الالمانيـــة في الزمن نفسه عنصرية . وإذا احتفظنا للمصطلحات بمعناها العلمي ، فان العرقية لم تظهر قبل ١٨٥٠ . أما إذا كنّا نطلق المفردات « متسيّبة » ، كان علينا ان نقول مع المثل الفرنسي : كل شيء موجود في كل شيء ، يا ربّ ! وهذه تكون ذروة « الديالكتيك » !!!

٣ ـ الفاشية الالمانية عرقية . وهي لا تقيم وزناً كبيراً لفكرة الامة ، حتى في اسوأ مفهوم لهـــا . وستالين (أنظر مقالنا السابق ص ٨٨) محق : « ليس النازيون قوميين Nationalistes » بل امبرياليون رجعيون برابرة الخ .

٤ ـ ليس عند الباحث لويس سنايدر « شواهد علمية كثيرة » أو قليلة من شأنها ان تسقط البنود الســـابقة ، ولا ان تنسينا ان الفاشيـــة ظاهرة عالمية لزمن محدد . (ان شكلها الالماني القومي بالذات عرقي وليس قومياً) .

(٧) هل « تنبأ ماركس بظهور الفاشية في المانيا » ؟

فلنواصل قراءة نص الزميل طيبي :

« لقد وعى ماركس هذه الحقيقة (حقيقة الطابع الاساسي العنصري الفاشي ...) وان لم يأت بالشواهد العلمية العديدة التي أتى بها سنايدر . بل ان ماركس كما برهن على ذلك الفيلسوف الماركسي المعاصر جورج لوكاكش قد تنبأ بظهور الفاشية في المانيا ، بناء على تحليله للأوضاع الاقتصادية – الاجتماعية الالمانية ، وليس بشكل ميتافيزيقي . يقول ماركس أن المانيا قد «شاركت في معاناة هذا التطور (المقصود التطور الرأسمالي : المؤلف) دون ان تشارك في فوائده ولا حتى بشكل محدود » ويضيف ماركس قائلا « ذات يوم سوف تجد المانيا نفسها على مستوى الانحطاط الاوروبي، قبل ان تصل بأية حال الى مستوى التحرر الاوروبي » . (٩) » . (ص ١١١) .

والرقم (٩) يحيلنا الى قائمة المراجع حيث اقرأ :

٩) (بالانكليزية) : ورد في (Quoted by) : و (بالالمانية) جورج لوكاكش : تحطيم العقل (Die Zerstoerung der Vernunft) ، برلين ،

١٩٦٢ ، ص ٣٨ .

وفعلاً ، هذه « النبوءة » لماركس « وردت في » كتاب لوكاكش ، في الصفحة ٣٤ ، الجزء الاول ، من الطبعة الفرنسية الصادرة في باريس ١٩٥٨ – ١٩٥٩ . والزميل طيبي يستشهد بالطبعة الألمانية لعام ١٩٦٢ . وقد صدر مؤلف لوكاكش لأول مرة حوالي ١٩٥٣ بالالمانية . ولعل الأخ بسام يستشهد اذن بطبعة المانية جديدة ! مع اننا قرأنا في الرقم (٩) من المراجع عبارة « ورد في » **بالانكليزية** . ونفهم اذن ان الزميل طيبي ينقل ، هذه المرة ، عن كتاب اخر ، بالانكليزية ، هو مثلاً ، من سياق نص الزميل ، كتاب سنايدر الصادر ١٩٥٢ (وهذا افتراض مستحيل) ، أو ربما عن طريق مرجع اميركي أحدث هو كتاب هوراس ديفيس الصادر في ١٩٦٧ . أولعله ، رغم عبارة « ورد في » الانكليزية يستشهد بماركس عن لوكاكش مباشرة ! هذا الاحتمال الاخير ضعيف جداً . وعبارة « ورد في » الانكليزية وضعها الزميل طيبي من باب الدقة والامانة . كتاب لوكاكش ليس في حوزته . وهو لم يقرأ الصفحة السابقة بالتأكيد .

بتعبير آخر : إن الزميل طيبي يستشهد بقول لماركس عن طريق لوكاكش عن طريق سنايدر او ديفيس. هذا طريق طويل . اني لا أعترض عليه . ولكني اريد ان نأخذ – أنا وبسام والقارىء – قياسه ! بعد سلسلة الرواة ، ننتقل معاً إلى مضمون الحديث .

اولاً تمهيد الحديث – النبوءة . لنقرأ مرة أخرى أطروحات الزميل طيبي :

١ – آ . النتيجة : « لقد وعى ماركس هذه الحقيقة » (« النزعة العنصرية الفاشية هي الطابع الاساسي للقومية الالمانية منذ البداية ») .

ب . البرهان : « وان لم يأت بالشواهد العلمية العديدة التي أتى بها سنايدر » (قبل قليل « الشواهد العلمية الكثيرة » : برهان سنايدر) .

٢ – آ . النتيجة : « بل تنبأ ماركس بظهور الفاشية في المانيا » .

ب . البرهان : « بناءاً على تحليله للاوضاع الاقتصادية ـ الاجتماعية الالمانية وليس بشكل ميتافيزيقي » .

كيف يوفق الاخ بسام بين١ و ٢ ؟ ما هوالشيء الاكثر تحديداً ١/آ أم ٢/آ ؟ ما هو أكثر تحديداً ؟ أن يعي ماركس في أيامه ، لنقـل مثلاً في ١٨٥٠ (او إذا شئتم في١٨٨٠)، ما هو الطابع الاساسي للقومية الالمانية منذ البداية أي منذ ١٨٠٠ وحتى١٨٥٠ ، أم ان يتنبأ بظهور الفاشية في المانيا في مستقبل ما ؟

لا ريب ان الشيء الثاني (الاكتشاف الثاني) هو الاكثر تحديداً بكثير . والوصول اليه أصعب بكثير . الاول هو تحليل الحاضر والماضي . والثاني تنبؤ بالمستقبل ، بحدث محدد في المستقبل . والاخ بسام أول من يعلم ذلك ، أول من يدرك « الزيادة » من١ إلى ٢ . لأنه يدرك ان ٢/آ أكثر تحديداً واصعب اكتشافاً من ١/آ ، لذلك فهو عندما ينتقل من١ إلى ٢ يقول « بلْ » . نعم « بل » أي بل اكثر من ذلك . ٢/آ اكثر من ١/آ .

ومع ذلك ، لم يأت ماركس على ١/آ أي على الأقلّ ، بالشواهد العلميـــة الكثيرة والعديدة التي أتى بها سنايدر . ولكنه أتى على ٢/آ أي على ما هو اكثر ، بالشواهد : تحليـــله للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية » . وتنبأ بظهور الفاشية في المانيا ، استناداً على هذا التحليل الكافي لمثل هذا التنبؤ .

الفكرة الاولى التي تتبادر الى ذهن القارىء ان سنايـــدر هذا قوي جداً بالحقيقة !

والفكرة الثانية أن وراء الاكمة ما وراءها . لماذا لم يعارض ماركس الوحدة البسماركية ؟ لماذا أيد ماركس الوحدة الالمانية دائماً حتى في هذا الشكل السيء (كما يوافقنا الاخ بسام بعد قليل) ؟ لماذا وجه « البيان الشيوعي » نظره صوب المانيا بالذات ؟ لماذا اعتبر ماركس وانجلز وكاوتسكي وروزا لوكسمبورغ ولينين المانيا مركز حركة العمال ومركز الثورة الاشتراكية القادمة ؟ لماذا ... ؟ لماذا

ركز لينين في ١٩٢٠ – ١٩٢٣ نظره على المانيا المسحوقة قومياً من قبل الحلفاء؟ ما دام ماركس كان قد تنبأ بظهور الفاشية في المانيا، استناداً على تحليل الاوضاع الاقتصادية الاجتماعية الالمانية وليس بشكل ميتافيزيقي الخ . حقاً، لو كان الباحثون الماركسيون الامريكيون الشهيرون وقارئهم الباحث اللبناني موجودين ، لوفروا على تاريخ حركتنا وفكرنا أخطاء كبيرة وجهوداً كان يجب ان تبذل في وجهات أخرى .

ولكن يبقى لوكاكش .

إن الزميل طيبي ، عن طريق لوكاكش ، عن طريق سنايدر أو ديفيس ، نقل لنا النبوءة . فلنستغنِ (مرغمين) عن المحطة الثانية . ولنكتف بالمحطة الاولى . لنقرأ لوكاكش .

« إن المانيا ، كما قال ذلك ماركس الشاب جيداً ، « قد عرفت آلام هذا التطور ، دون ان تشاطر في لذاته ، في مسرّاته الجزئية »[1]. وأضاف إلى ذلك

---

١ – القارىء يلاحظ فرقاً بين ترجمتي وترجمة الزميل . أقول : « مسراته الجزئية » أو فوائده الجزئية Les partielles satisfactions ، حيث قال الزميل « ولا حتى بشكل محدود » . هذا فرق : في ترجمة الزميل ، التطور المذكور حمل معه فوائد ، ولكن المانيا لم تشارك فيها ولاحتى بشكل محدود . في الأصل : التطور المذكور حمل معه فوائد جزئية ولكن المانيا لم تشارك فيها . مرة أخرى ، إني لا أتهم الزميل لا بتزوير ولا بربع تزوير . مع أنني أعتقد أن هذا الفرق أكبر وأهم من الفرق بين ترجمته وترجمة الدكتورين بجملة فاتون .

بالطبع ، من الممكن أن يكون طيبي أو سنايدر أدق في الترجمة من ستانيسلاس جورج واندريه غيسلبركت وادوار بفرير ، الماركسيين الفرنسيين الثلاثة الذين نقلوا كتاب لوكاكش الى الفرنسية .

ومن جهة ثانية ، ليس المقصود بالتطور « التطور الرأسمالي » بقدر ما هو الانتقال الطويل إلى الرأسمالية خلال قرون . ليت الأخ بسام يقرأ الصفحة السابقة في كتاب لوكاكش .

تنبئياً : « إن المانيا ، لهذا السبب ، ستجد نفسها ذات يوم على مستوى المحطاط اوروبا قبل ان تصل أبداً الى مستوى التحرر الاوروبي » .

وهكذا قرأ قارئنا : « ماركس الشاب » .

ليت الزميل طيبي قرأ وكتب : « ماركس الشاب » . لو قرأ « ماركس الشاب »، لما خرج علينا بشرحه الاضافي : « بناءاً على تحليله للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الالمانيـــة وليس بشكل ميتافيزيقي » . شرح باحث متحمّس . ظاهره علمي وماركسي (تحليل الاقتصاد !! وليس ميتافيزياء !) . إضافـة شخصية لا طائل تحتها .

ولو قرأ الزميل « ماركس الشاب » ، لما تسرّع في الشرح الشخصي الذي وضعه بين قوسين (« المقصود التطور الرأسمالي ») ، بل لدفعته كلمة « الشاب » الى التدقيق في المقصود بـ « هذا التطور » الذي « عرفت المانيا آلامه ولم تشاطر أفراحه الجزئية » ، أي الى قراءة ما قبل وما بعد الفقرة التي نقلها عن لوكاكش. المقصود : « تأخر دخول المانيا في التطور البرجوازي الحـديث » ، « بدايـــة العصور الحديثة » ، « طور الانتقال » مع تركيز لوكاكش وانجلز على التجزئـة الالمانية واستمرارها وتعمقهـــا في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون والانكليز (والروس) موحدين تحت سلطة الملكية المطلقة التي ظهرت خلال فترة كالأداة التنفيذية لهذا التوحيد الذي تحمله البرجوازية ضد الاقطاعية . ومن المعروف ان المانيا ، بعد الطور الانتقالي ، واعتبـــاراً من سنة ١٨٧٠ شاركت في الفوائد والمسرات الجزئية للتطور الرأسمالي !

ونقول بمناسبـة « Quoted by » « ورد في » لوكاكش : نقـول : أين « الشاب » ؟؟ سقطة كبيرة ، انسياقاً مع منهج خاطىء أساساً ، مثالي ، فقير ، يسدّ ثغرات المعرفة الشخصية بالخيال والابداع والفكرة المسبقة الثابتة ومنطق العواطف الذي يضع النتائج قبل المقدمات . نسيان وتسرّع . ولا نقول تزوير .

لنرجع الآن الى لوكاكش . متى أصدر ماركس الشاب او الشاب ماركس قوله التنبئي. في ١٨٤٦ (الايديولوجيا الالمانية)، في١٨٤٢، في١٨٣٩؟ هذا ما لا أعلمه . لسوء الحظ ، لم يذكر لوكاكش تاريخ هذا القول ، ولا المرجع ، بخلاف ما درج عليه على طول الكتاب . هل يخطر ببالي ان أتهم لوكاكش بالتزوير ؟ لا . لا . ليس فقط لأن لوكاكش هو لوكاكش . بل ايضاً لأنني اذكر شيئاً شبيهاً — قد يكون هذا بعينه — عند ماركس الشاب أو الشاب ماركس . وبالطبع ، فإنني لم أضع هذا القول على بطاقة Fiche لأنه ليس عندي بطاقات (وأنا مخطىء!). إن ما يهمني في ماركس وانجاز بصدد المانيا وتاريخها ومثالبها الكبيرة ليس قولاً وليس هذا القول لماركس الشاب بل كل سير تحليل وكل ملاحظـــات ماركس وانجاز النقدية العميقة من ١٨٤٥ بل من ١٨٤٠ إلى ١٨٩٥ . وهذه لوحة أنشأها لوكاكش في هذا الفصل الاول من كتـــابه تحت عنوان « حول بعض خصائص تطور المانيا التاريخي » . كما تطرقتُ الى موضوع التاريخ الالماني ومثـالبه في مؤلفاتي ، في حدود وبالارتباط مع المواضيـع المعالجة [1] .

إن اللوحة التي رسمها لوكاكش عن تاريخ المانيا لوحة عظيمة جـــديرة بأن يوليها الزميل طيبي كل اهتمامـــه . ونستطيع ان نقول ان هذه اللوحة تخالف منهج وأفكار الزميل بمقدار ٩٥ ٪ على الاقـل . (ويبرز ذلك اذا تذكرنا ان جوهر مؤلف لوكاكش هو تحديد المثالب والسفالة الالمانيـــة) . ورغم ان موضوع لوكاكش هو الفلسفة والايديولوجيا (وليس هو موضوع الاخ بسام :

---

١ — « نقد الفكر القومي » . « الماركسية والشرق » . أنظر بشكل خاص هذا الكتاب الأخير، ص ٩٩ — ١٠٣ ، ص ١١١ — ١٢٥ ، ص ٤٦٩ ، وغيرها. أعتقد أنني اعطيتُ (رغم حدود المواضيع المعالجة) صورة جوهرية كافية عن قضايا تاريخ المانيا ، لا تجنح نحو تحسين هذا التاريخ ولا نحو تحقيره ، صورة تستند الى تحليلات انجاز وماركس ، وتنقل هذه التحليلات . إذا كان الأخ بسام يرى غير ذلك ، فسأكون في غاية الامتنان إذا ما بيّن لي خطئي .

المسألة القومية المحوّلة الى « ايديولوجيا » وأفكار، الى ما يسميه الأخ بسام الناحية « النظرية » !) ، فإن لوكاكش يرتكز بقوة على التـــاريخ ، على التاريـــخ « الاقتصادي ـ الاجتماعي » والسياسي ، والامة الموضوعيـــة ، والحروب ، والثورات ، والتقدم ، والفشل الخ ، لا يحنح نحو مقولتي « القومية » و« القومية ـ المضادة » ، أو ما يشبهها ، ينصف فيخته ، لا يعتبر الفاشية الالمانية امتداداً للقومية الفيختيبه ، يكشف وهم الكوسموبوليتية ، يدين العدمية القومية وآثار اللوكسمبورجية في الحزب الشيوعي الالماني في العشرينات ، يستوعب مسائل الثورة الديمقراطية بأسرها بما فيها هذه المسألة القوميـــة ، يرتكز على مواقف وتحليلات ماركس وانجلز ولينين ، وينقلها بأمانة وينقلها بمقدار ٩٩٪ ، كما لم ينقلها ماركسي آخر في العالم في هذه السنة ١٩٥٢ .

أنصح الاخ بسام طيبي بأن يدرس تحليل لوكاكش، دراسة منهجية موضوعية، بعيداً عن الاحكام المسبقة ، وأوهام الماركسيين الاميركان [١] ، بعيـــداً عن اسلوب « نبش » ما يفيد أو يسوّغ هذه الاحـــكام والاوهام ، وبغرض تعلّم موضوع « الماركسية وتاريخ المانيـــا » ، تعلّم هذا الموضوع بدءاً من الالفباء .

ونقتصر هنا على تحديد بعض الحقائق التي فاتت على الاخ بسام والتي لم تفت جورج لوكاكش اطلاقاً ! هذه القائمة القصيرة نوجهها لبسام طيبي وليس لساطع الحصري ، مع انها تفيد الاثنين وتفيد الجميع :

١ ـ التجزّؤ الالماني المستديم حتى أواسط القرن التاسع عشر هو سبب هام، بل السبب الأهم في « البـؤس الالماني » ، وفي مصائب المانيا ، خلال التاريخ اللاحق .

٢ ـ هذا التجزّؤ المستديم يرتكز على أسباب اقتصـادية ، ولكنه يرتكز

---

١ ـ ولا أقول الماركسيين اليهود الاميركان .

ايضاً على أسباب أخرى غير « اقتصادية »، يرتكز على اسباب داخلية ، وخارجية ، بينها سياسة الدول الاجنبية وامتهانها لالمانيا في العصور الحديثة (القرن السادس عشر – القرن الثامن عشر). لا ريب ان هذا التجزّؤ – كما يقول لوكاكش – هو في الاصل (في اواخر القرن الخامس عشر) ناجم عن الاقتصاد الالماني ، عن تأخره النسبي (بالمقارنة مع جيران المانيا الغربيين) ، عن الضعف النسبي في تلاحم المانيا الاقتصادي الداخلي . ولكن العوامل الخارجية ، الاقتصادية – اكتشاف رأس الرجاء الصالح واميركا وتحوّل خطوط التجارة العالمية عن البحر المتوسط – ثم السياسة الحربية – الدول الاجنبية : فرنسا ، روسيا ، بولونيا ، السويد ، واتخاذها المانيا مسرحاً لحروبها ، وتغذيتها للتجزئة الداخلية – قد عززت وعمقت وخلّدت التجزؤ ، وشلّت التقدم الاقتصادي خلال نيف وقرنين (حتى أواسط القرن الثامن عشر) .

٣ – حرب الفلاحين الالمان (١٥٢٥) ، وبالأحرى جناحها اليساري المتقدم ، رفعت بأعلى صوتها شعار وحدة المانيا ، شعار « توحيد وإصلاح الرايخ Reich » . وثاني مصائب المانيا سقوط حركة الفلاحين ! يقول لوكاكش ما معناه ان هذا السقوط هو أول الوقائع – المصائب في تاريخ المانيا . ونعلم ان احد (أو اهم) اسباب فشل حركة الفلاحين هو التجزئة (نعلم ذلك من انجاز ، وجزئياً من لوكاكش) .

٤ – الوحدة القومية كانت المسألة المركزية في الثورة البرجوازية الديمقراطية لعام ١٨٤٨ . بل انها المسألة المركزية في الثورة البرجوازية الالمانية منذ ١٨٠٧ ، كما يقول لينين وينقل لوكاكش . وهذه الحقيقة تحمل معها احتمالاً خطراً (تظهر الوحدة أو تُظهَر كأنها مسألة تحلّق فوق الطبقات،

فوق المجتمع والاقتصاد والسياسة الداخلية) ، ولكن علاج الاحتمال ليس قبول التجزئة ، بل الوحدة الشاملة الديمقراطية . وينتقد لوكاكش لاسال ، لكنه ينتقد ايضاً فيلهلم ليبكنشت على موقفه غير الوحدوي ، وعجزه عن الرد على بسمارك بخطة ديمقراطية وحدوية .

هذا كله واضح في تحليل واقوال لوكاكش في هذا الفصل الاول من كتاب نقدي (« سلبي ») غرضه وموضوعه تغطية السفالة الايديولوجية الالمانية .

هل من نقائص ، من « تنقيصات » ، في عرض لوكاكش لمواقف ماركس وانجلز ؟

نقص واحد محدد . لم يقل لوكاكش بوضوح وتحديد ان ماركس وانجلز أيدا وحدة ١٨٧٠ البسماركية . لم يذكر فحوى رسائل انجلز وماركس : « المانيا تلعب في الحرب وجودها القومي » ، « بسمارك يقوم بجزء من عملنا » . (مع انه ذكر تأييد ماركس وانجلز لموقف ليبكنشت ونواب الحزب : رفض الموافقة على قروض الحرب ، معارضة ماركس وانجلز للجو الشوفيني الالماني ، ولضم الالزاس الخ) . ولكن لوكاكش أعطى على كل حال تسعة أعشار القضية : شرح خطأ فيلهلم ليبكنشت ، ذكر ان ماركس أيد المانيا في الفترة الاولى من الحرب ، بيّن ان البونابارتية (البسماركية) في المانيا المتأخرة كانت خطوة الى الامام بعكس ما هي عليه في فرنسا المتقدمة (نابوليون الثالث) ، بيّن عجز فيلهلم ليبكنشت عن صياغة رد حقيقي ، وحدوي ديمقراطي ، على الطريق البسماركي ، بيّن قصور ليبكنشت وبرامج غوتا وارفورت (بعد حرب ١٨٧٠) في موضوع الديمقراطية بما فيه موضوع الوحدة القومية الكاملة (عكس الفيدرالية) ربط الوحدة الشاملة العميقة بالديمقراطية (كشف الارتباط بين نظام الدول — الولايات وبين الاستبدادية في هذه الدول وفي المانيا) الخ . مسائل كثيرة عالجها لوكاكش ، وتطرقت الى بعضها في كتابات سابقة ، وسوف أعود اليها في

مناسبة أخرى ، ناقلاً ، ومكملاً ، بالاستنـــاد الى المراجع ذاتها : ماركس – انجلز – لينين .

ولكن تبقى مسألة « نبوءة » ماركس الشاب . هل انساق لوكاكش، هو ايضاً ، في منظور جـــبري لاهوتي ، في منظور يجعل ممكناً لرجل في سنة ١٨٤٠ أو حتى في سنة ١٨٦٠ ، وحتى اذا كان ماركس ، ان يتنبأ بهذا الذي حدث في ١٩٣٣ ؟ نعم، بدرجة ما . صحيح ان الاخ بسام زاود على لوكاكش: « ماركس قد تنبأ بظهور الفاشية ..، استناداً على تحليله الخ » . وصحيح ان لوكاكش ليس سنايدر . بينهما بحر الماركسية ، معلوماتها ، افكارهـــا ، منهجها . ولكنه مع ذلك انساق بدرجـــة ما . لوكاكش في ١٩٥٢ لم ينس « ماركس الشاب » . ولم ينسَ التحليلات اللاحقة . ولم ينس سياسة ماركس وانجلز ولينين والكومنترن اللينيني تجاه المانيا . ولكنه – اذْ لمْ يستخلص كل ما يجب استخلاصه من هذه السياسة بالنسبة للمنهج العام ورفض الجبرية رفضاً قاطعاً كاملاً – فقد علق أهمية زائدة على « النبوءة » الشابة ، وانقاد احياناً الى نظرة جـــبرية ، الى مفهوم لتاريخ معطى سلفاً ، رغم بحار أفكار ومنهج الماركسية وفيلسوفها المعاصر العظيم. في مكان من الفصل الأخير ، يقول لوكاكش: « منذ هزيمة حرب الفلاحين (١٥٢٥) ، سارت المانيا في طريق خاطىء . يجب العودة الى نقطة الانطلاق لايجاد الاتجاه الجيـد . كل الحوادث اللاحقة ما هي سوى النتيجة الطبيعية للخطأ نفسه . ولكن تلك ليست نتيجة ضرورية بالمعنى الذي تفهمه أونتولوجيا لا زمانية [1] ، بل بالمعنى الذي يعطيها إياه التطـــور العياني (الملموس) لتاريخ ألمانيا ». (الجزء ٢ ، ص ٣٠٨) . لا ريب ان هـذه الجملة الاخيرة تحد من الاتجاه الجبري، اتجاه الحتمية المسبقة ، والنبوات . ولكن هذا الاتجاه يبقى رغم الحد والتعديل واضحاً في الجمـــل السابقة . هزيمة حرب

---

١ – الاونتولوجيا – علم الوجود ، أي فلسفة الوجود ، نظرية الوجود ، هنا اونتولوجيا فوق الزمان ، مفهوم تاريخ معطى سلفاً ، حتمية مسبقة آلية .

الفلاحين الالمان ونتائجها المخيفة – تعمّق التجزئة ، تعمق الاستبـدادية في أطر التجزئة ، امتهان المانيا من قبل ملوكهـا وامرائها ومن قبل الاجانب ، تأخر تطور المانيا ، تكوّن نفسية « البؤس الالماني » او التفاهة والحقـارة الالمانية ، انحدار الصراعات السياسية والطبقية الى مشاجرات وضيعة ضيقة المدى والافق في أطر الدويلات ، النتائج التي شرحها انجاز ولوكاكش – مصيبة هائـلة بعيدة الأثر . ولكن معنى « الطريق الخاطىء » و « الجيد » معنى نسبي ، في فلسفة المادية التاريخية والجدلية .

لوكاكش ، في كتابه العظيم ، يعمل على عرض وتفنيـد الفلسفة الالمانيـة اللاعقلية ، بدءاً من ووصولاً الى المثالب الالمانية التاريخية ، المادية والفكرية ، بغرض درء خطر انبعاث الفاشية في المانيا وكل بلدان العـالم الامبريالي . ذلك عمل جبار حققه لوكاكش بعمق ونفاذ ، رغم الاخطاء (رغم هذه الاخطـاء وغيرها – مما لا يتعلق بألمانيا : مثلاً ، مغالاة جزئية في نقد الاقتصادي كينز أو المؤرخ توينبي أوبعض الفلاسفة المعاصرين، في التمهيد وفي الاضافة الاخيرة– من الاخطاء التي تحمل طابع زمن ستالين الاخير . مسائل شائكة ليست موضوعنا). ولكن هذا العمل يجب ان يقوم وان يدوم ، دون الانحراف حتى الجزئي نحو نزعة « اونتولوجية لا زمانية » حتى ولو عدّلت بتنبيه ثمـين ضدها . والا نكون باسم « نبوءة » غير محددة وذات قيمـة ما لماركس الشاب (أو باسم تحليلات عظيمة لماركس وانجاز الناضجين وهذا أهم !) ، نكون قد ألقينا الشبهة على سلسلة مواقف ماركس وانجاز ولينين الاساسية ، وعلى الماركسية كنظرية وكفلسفة (وكدليل للعمل الثوري) .

لوكاكش ليس سنايدر . ولكن حتى سنايدر أو ديفيس او ... جيلبير بادايا أو هانس آبوش أو غيرهم في هذه السنة ١٩٥٢ أو قبلها أو بعدها مضطرون كماركسيين ان يذكروا ان النازية والفاشية كلها في جميع دول اوروبا (ايطاليا اسبانيا ، رومانيا ، المجر ، فنلندة ، بولونيا ..) ترتكز كظاهرة دولية وقومية

على الامبريالية ، على الامبريالية والازمة العامة للرأسماليـة الخ . (لو لم يفعلوا ذلك لكان ستالين أول من « يشرشحهم ») ، ولكنهم بعد هذا الذكر وهذا التحليل الجيد والعظيم – والناقص والخاطىء – للامبريالية والرأسمالية في طور الازمة الاخيرة ، يلتفتون الى الماضي ، بصدد المانيا ، الى المانيـا غليوم الثاني الامبريالية ، ثم الى بسمارك ، ثم ربما الى فيخته وما قبله ، وهنا الخطأ ، الخطأ التفصيلي في عملية الجرد ، يغلب الصواب . ليس هذا حال لوكاكش . لوكاكش في الجرد التفصيلي يصيب ، يصيب بنسبة ٩٠ ٪ أو ربما ٩٩ ٪ ، ويصيب كما لا يصيب ماركسي آخر . ولكن هذا لايكفي . يجب ان نقيم بيننا وبين الاتجاه الجبري جبلاً هو الماركسية ، جبل ماركس وانجلز ولينين وكل أعلام الماركسية . إن الماركسية ترفض « أقنمة » القوانين ، القوانين الحقيقية ، قوانين ماركس ولينين . فكيف يمكن ان ترضى بأقنمة « نبوءة » لماركس الشاب (أو حتى لماركس الناضج) ؟

ليت الاخ بسام « يتابع » هذه المسألة من مكانه في فرانكفورت . ليته يتصل بالفيلسوف الكبير . اني لا اعتقـد بأن لوكاكش يعارض هـذه الملاحظات .

(٨) كيف انتصرت النازية في المانيا .

والحال ، إن لمنهج الجبرية والقدر المسبق « مزيّة » (!) هائلة هي إلغـاء المسؤولية الانسانيـة ، مسؤوليتنا ، مسؤولية الماركسيين ، وهنـا بيت القصيد .

النازية انتصرت في المانيا أوائل ١٩٣٣ ، واستناداً على مدّ شعبي نازي

بين ١٩٢٨ و ١٩٣٣ (فترة الازمة الاقتصادية العالمية) ، انطلاقاً من الامبريالية واوضاعها ، من الازمة الاقتصادية الخانقة في بلد الستة ملايين عاطل عن العمل ، من امتهان الحلفاء الغربيين لالمانيا في فرساي وبعد فرساي حتى ١٩٣٣ ، من أموال فورد وكروب وتيسن لهتلر ، من خيانة الاشتراكيين في ١٩١٨ وبعدها حتى ١٩٣٣ واذا شئت حتى ١٩٣٤ واليوم . ومن مسؤليتنا وخطئنا ، من مسؤولية رفاقنا الالمان (الشهيد تايلمان) وقيادة الكومنترن (ستالين ، كنورين) ، من خطّ الكومنترن في ١٩٢٨ — ١٩٣٣ ، ومن اخطاء تايلمان وستالين في ١٩٣٢ و ١٩٣٣ .

هذا الموضوع الاخير — خط ستالين وتايلمان . من المستحيل ان نجد أثراً له في كتابات ١٩٤٨ — ١٩٥٥ ، وفي كتابات وتصريحات الحركة الشيوعية العالمية بعد ١٩٣٣ وحتى ١٩٥٩ . الوحيدون بين الماركسيين الذين كانوا يتحدثون عن هذا الموضوع هم تروتسكي [1] ورفاقه وخلفاؤه « التروتسكيون الخونة عملاء هتلر والامبريالية الاميركية » . هذا أمر لا بد ان يعرفه الزميل طيبي الذي قرأ تروتسكي ، والذي قرأ كتابي « الماركسية في عصرنا » . في هذا الكتاب (ص ٨٥–٨٧) ، نقلت بعض ما قاله توليياتي في نوفمبر ١٩٥٩ والذي يشكل ادانة صريحة للخطأ المرتكب قبل نيف وربع قرن . (توليياتي زعيم شيوعي ايطاليا ، ومقاله نشر في « المجلة الدولية الجديدة » الصادرة في براغ بأربعة عشر لغة ، عدد نوفمبر ١٩٥٩ . وقد كان توليياتي في ١٩٢٨ — ١٩٣٣ عضواً في اللجنة التنفيذية العليا للكومنترن ، والارجح ان هذا العاقل كان في البداية متحفظاً تجاه الخط العام — خط النهج اليساري الانعزالي — الذي يحمل جزءاً من مسؤولية النكسة الالمانية ونكسات صينية وغيرها ، ثم

---

١ — مثلاً في « الارهاب والشيوعية » ، دار دمشق ، ص ٢٩٧ — ٢٩٨ ، وصفحات أخرى .

التزم بالخط عن قناعـــة أو نصف قناعة) . ولا أشك في ان هناك تصريحات أخرى كثيرة مماثـلة حول أحداث تلك الفترة صادرة عن مراجـــع شيوعية مسؤولة . على أي حـــال ، إن خطأ الخط العام اليساري الانعزالي لستالين وكومنترن ١٩٢٨ ـ ١٩٣٣ شيء معروف ، من اوروبا الى بيكين [١] .

في كتابات ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢ ، هذا الموضوع كله خارج النظر . وويلٌ لمن يدخله في حقل النظر . ويعوّض عن ذلك من جهة بالتركيز على القاعـــدة الاجتماعية والسياسية المباشرة ـ ١ . الامبريالية ، ٢ . فورد ... ، ٣. سفالات الجنرالات الالمان والساسة البرجوازيين المغفلين ، و ٤ . سفالات الاشتراكيين والنقابات (الاشتراكية) . مع حقائق كبيرة جوهرية لا جدال عليها في١و٢، وتبسيطات واخطاء وسكتات في ٣ ولا ســيما في الشطر الاول من ٣ (نعم في موضوع الجنرالات البروسيين السافلين) ، وفي ٤ . ومن جهة أخرى ، بالعودة الى الماضي ، الى غليوم وبسمارك ، ... و ... تشنجات فيخته .

ويبقى شيء خارج حقل البصر : سياستنا ومواقفنـا في ١٩٢٨ ـ ١٩٣٢ ، بل وفي ١٩٣٢ واوائل ١٩٣٣ . هكذا ـ في منهـــج طيبي وسنايدر وشيفر وديفيس الخ ـ نحن اليوم في ١٩٥٢ أو في ١٩٦٩ « نعرف » ان المانيا منذ ١٨٠٠ أو ١٨٤٠ ذاهبة الى« الفاشية القومية العنصرية » ، ولكننا في أواخر ١٩٣٢ ، لم نكن « نعرف » (لم يكن ستالين وكنورين وتايلـــان وعشرات الالوف من الشهداء « يعرفون ») ان المانيا في اواخر ١٩٣٢ ذاهبة الى هتلر وشعوب اوروبا والعالم ذاهبة الى أكبر مأساة !!

---

١ ـ خالد بكداش أيضاً أدانه في خطاب له بمناسبة الذكرى الثلاثين للمؤتمر الكومنترني السابع الذي دفن الخط المذكور بعد اكتمال الكارثة الألمانية وخطر وقوع كارثـــة فرنسية . خطاب ألقي في براغ ، منشور في « نضال الشعب » ، العـــدد ٥٦ ، أوخر تشرين الثاني ١٩٦٥ .

إذ هذه هي الحقيقة ! سلوك وتصرفات وأقوال ١٩٣٢ تدل بشكل قاطع على أن أولي الأمر منا لم يكونوا يعرفون الهدف المباشر الآني لعملهم . كانوا يعرفون — « يعون » — « الامبريالية » و « الأزمة العامة للرأسمالية » و « الازمة الاقتصادية » الالمانية والعالمية وهدف « الثورة البروليتارية » والتمسك بالطهر « البروليتاري » «الثوري» و بـ« الطبقة » ، ومهمات «الديمقراطية » من فضلك ويمينية اليمينيين وخيانة الخائنين و « البرجوازية الصغيرة » ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون — « يعون » — ان هدفنا المباشر ، هدف الساعة ، هو سحق النازية ، ولم يكونوا يعرفون (رغم وضوح وصراحة « كفاحي » لهتلر !) ماذا ستكون النازية . وحدث ان التقى الشيوعيون والنازيون في البرلمان على إسقاط حكومة برجوازية رجعية حقيرة ، وعلى إضراب لعمال النقل ضد إرادة الاشتراكيين وزعماء النقابات (رغم بداية المعارك الدامية المرعبة بين النازيين والشيوعيين في الشوارع) . بدلاً من أن ينهي أولو الامر منا معركتهم ضد الاشتراكيين — الديمقراطيين الخونة ويصبوا كل جهدهم في معركة واحدة (ويسعوا الى تحالف جدي مع الخصوم الاشتراكيين الخونة من أجل هذه المعركة ضد العدو المشترك الجبار ، لسحقه وتشتيته ودفنه) ، فتحوا معركة ثالثة ، ضد بعضهم ، ضد أنفسهم . كانت هناك عناصر غير قليلة في قيادة الحزب وقواعده تشعر بخطأ النهج اليساري وتطالب بتعديله ، فأدينت من فوق (من عند ستالين) ، وانشقت ، وضربت بعنف . اتهمت بالعمالة للاشتراكيين الديمقراطيين الذين لقبهم ستالين وتايلمان بالجناح الايسر في « كتلة النازيين والاشتراكيين الفاشية » (!) [1] . مسائل كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها . وهي كما يرى القارىء

---

١ — والارجح أن اولي الأمر منا آنذاك علموا انفسهم بكون اصوات الحزب الانتخابية ترتفع (قليلاً) مما يثبت صحة النهج ، والتفاف جمهور الحزب واصدقائه حول الحزب ، ضد المشككين واراجيفهم (رأينا مثل ذلك عندنا !) . كلا ! هذا النجاح الانتخابي الصغير لا يثبت صحة النهج وصواب الخطة . يثبت فقط ان عدداً إضافياً من الناس مال إلى الشيوعيين كقوة ضاربة ضد الخطر النازي ، في ظرف تنامي هذا الخطر . والمهم النتيجة .

بالغة الفائدة « للماركسيين » الكاريكاتوريين العرب مكرري المأساة : كل اولئك الذين « يعون » (!) اليوم « الامبريالية » (!!) و « البروليتاريا » (!) و « البرجوازية – الصغيرة » ومهمات « الديمقراطية » من فضلك ومئة شيء آخر ، ولكنهم في الحقيقة لا يعون شيئاً على الاطلاق ، لانهم جهلة ، يجهلون الماركسية ويجهلون كل شيء ، (تعلموا الماركسية من مؤلفاتي والارجح انهم لم يقرؤوا اكثر من عناوين مؤلفاتي).

غير ان هناك شيئاً « اخر » ظل خارج حقل البصر في كتابات ١٩٤٨ – ١٩٥٢ وبعدها . شيئاً يجهله رفاقنا . ولا بد من تسجيله .

من المعروف (!) أن المد الشعبي النازي يتحقق – حصراً – بين ١٩٢٨ و ١٩٣٣ ، خلال سلسلة الانتخابات الكثيرة المتعاقبة ، ولكن على أساس الازمة والبطالة الراكضة ، وإفلاس جمهورية فايمار ، وانحسار وعجز الاحزاب الرجعية و « القومية » . غير ان هذه الحقيقة « العامة » لا تغني ولا تسمن من جوع ، بالنسبة لماركسيين يطرقون موضوع فيخته وهتلر و «نبوءة» ماركس الشاب ، اي موضوع قدم وعراقة « الفاشية الالمانية العنصرية » ، لأنها « عامة » . إذا أراد الأخ بسام أن يترك « الناحية النظرية » موقتاً ، وان يمسك الاندفاع التاريخي القومي الفاشي العنصري الهمجي القديم العريق للأمة الالمانية في تلك السنوات الخمس التي لها بعض الشأن في تاريخ المانيا والبشرية وفي « النظرية » ، فاني أنصحه بأن يلجأ الى أول كتاب يقدم تعداد الاصوات في سلسلة انتخابات ١٩٢٨ – ١٩٣٣ ، مثلاً الى كتاب وليم شيرر W . shirer الذي ترجم مؤخراً الى العربية في بيروت . سيرى في هذا الكتاب (أو غيره) ما يلي :

إن المد الشعبي النازي الكاسح (بدأ في ١٩٢٨ من الحضيض) وصل في انتخابات ٣١ / ١٩٣٢/٧ الى ٣٧ ٪ من الاصوات و ٢٣٠ مقعداً من أصل ٦٠٨ . وهبط في انتخابات ٦ / ١٩٣٢/١١ بمقدار ٢ مليون صوتاً ونزل الى ١٩٦ مقعداً.

وان قوى الاشتراكيين + الشيوعيين كانت مساوية لقوى النازيين (بل وفاقتها في انتخات ٦ / ١١ / ١٩٣٢) . وان النازيين لم ينالوا ، بعد وصول هتلر إلى منصب المستشارية أي رئاسة الوزارة في ٣٠ / ١ / ١٩٣٣ وتحكم غورينغ بداخلية وشرطة بروسيا الخ، وبعد احراق الرايخشتاغ على يد غورينغ ورجاله في آخر شباط وبعد اجراءات القمع الوحشية والمجازر وتسليط جو من الرعب العام بالاذاعة والبوليس وفرق الانقضاض خلال هذه الايام الستة الفاصلة،لم ينالوا في انتخاباب ٥ / ٣ / ١٩٣٣ سوى ٤٤ ٪ من الاصوات ، بينما حافظ الاشتراكيون على موقعهم كالحزب الثاني في البلاد ولم يفقد الشيوعيون المعرضون الى الاتهام بالحريق والاعتقال والذبح سوى مليون صوت (أي ١٥ ٪ من أصواتهم السابقة) وان الاكثرية التي تمتع بها ائتلاف النازيين + القوميين (فون بابن) في البرلمان الذي عاش لحظاته الاخيرة كانت ٥٢ ٪ من المقاعد .

بتعبير آخر : في تلك الشهور الحاسمة التي تمثل نهاية المد « الديمقراطي» لقوة النازيين المدعومين بأموال وقوى الرأسمالية الصناعية والمصرفية الالمانية ،الشهور ما بين صيف ١٩٣٢ واوائل ١٩٣٣ ، كان النازيون يمثلون حوالي ثلث أصوات مجموع الامة الالمانية ، بأغنيائها وفقرائها بعمالها وفلاحيها وبرجوازييها الصغار وبرجوازييها وأشرافها . وكان الاشتراكيون + الشيوعيون أقوى منهم بشكل مرموق في الطبقات الثلاثة الاولى،في الطبقات الشعبية من الامة الالمانية،رغم قوة النازيين الحقيقية في هذه الطبقات ، في زمن بطالة الستة ملايين، وعجز جمهورية الجنرالات والبرجوازيين والاشتراكيين ، وخطأ خط الشيوعيين وضياعهم ، والامتهان القومي المخيف الذي يحسه تسعة أعشار الالمان ويستثمره العشر الاخر .

وبهذه المناسبة ، بمناسبة الامتهان القومي ، نضيف : تسلّم هتلر السلطات كاملة ، « وحّد الرايخ » (ضرب صلاحيات سلطة الولايات) ، بطش بالمعارضين ، فتح أول معسكر اعتقال ، .. وأذاع خطاب السلام الى العالم :

المانيا تريد السلام ، لا شيء سوى السلام ، تدعو الى نزع السلاح لجميع الدول ، المانيا تريد المساواة ، لا تريد أي توسّع لنفسها اطلاقاً ، من الغباء ان تفكّر بحرمنة أحد (١٧ / ٥ / ١٩٣٣) – واستقبل « العالم » هذه الدعوة بارتياح !– ولكن اذا رُفض مبدأ المساواة ، فألمانيا ستنسحب من عصبة الأمم ... وتنسحب المانيا ، ويؤيد هذا الانسحاب ٩٥ ٪ من الالمان في استفتاء شعبي (بالطبع ، عامل الارهاب كان قائماً ، ولكنه كما يقول وليم شيرر ، أقل مما كان في الانتخابات السابقة) ، و ٢١٥٠ من أصل ٢٢٤٠ معتقلاً في معسكر داخاو الشهير (فيما بعد) يؤيدون قرار هتلر بالانسحاب ! هكذا ، بدأ « الاجماع » ، على الموضوع « القومي » المغلّف سلماً . وهنا تأخذ ملاحظة « عبارة » [1] أبداها لوكاكش عن أخطاء بعض الشيوعيين الالمان في العشرينات ، تحت تأثير تراث اللوكسمبورجية !

يقول لوكاكش : في جمهورية فايمار ، تعزز عند الجماهير البرجوازية والبرجوازية الصغيرة الوهم القديم الذي يجعل من الديمقراطية بضاعة مستوردة من الغرب وجسماً غريباً عن الامة ... « وكثير من الديمقراطيين الصادقين جعلوا من هذا الطابع الغربي للديمقراطية على حد زعمهم جوهر دعايتهم . وابرزوا بقلة ذوق وقلة مهارة عداءهم للجرمانية وحماسهم للغرب ، مقدمين بذلك للرجعية سلاحاً ثميناً وغير ارادي ... ونضيف الموقف العَدَمي الذي اتخذه كثير من المثقفين البرجوازيين الراديكاليين أمام الامتهان القومي (في شكل

---

١ – عبارة إذ ان لوكاكش لم يتطرّق إلى حساب أصوات الأمة الألمانية في الانتخابات والاستفتاءات وتجنب فترة ١٩٢٨ – ١٩٣٢ الحاسمة . وهذا طبيعي يفرضه «الزمن» (ولكن لوكاكش العميق وقر علينا بعض صيحات وتشنجات معاصريه من الماركسيين، التي غرضها تمويه وإخفاء الجانب من الواقع خطير) .

ولكنها ليست عابرة ، بالنسبة لمنهج التحليل التاريخي الذي يعتمده لوكاكش.

نزعة سلمية كاملة)، وهو الموقف الذي تسلل أيضاً الى صفوف العناصر الراديكالية من حركة العمال . ولم يكن الحزب الشيوعي الالماني في بداية تاريخه خالياً من هذه العدمية القومية تحت تأثير أخطاء روزا لوكسمبورغ الايديولوجية ... » (الجزء الاول ، ص ٦٥ – ٦٦) .

وأقول ، بالبداهة ، ان هذه المواقف التي يتبنّاها مثقفون ديمقراطيون جذريون صادقون وبرجوازيون غير ماركسيين – مناهضة الجرمانية ، التعاطف مع «الديمقراطية» عامة أي بالتالي مع الديمقراطية الغربية، أساسها الايديولوجي نسيان القاسم المشترك بين المانيا والغرب : الرأسمالية والامبريالية . وبالنسبة للماركسيين اللوكسمبورجيين عدم فهم حقيقة الامبريالية اي الامبرياليين والمسألة القومية .

ولنذكر أيضاً كلام ستالين (تقرير بتاريخ ٦ / ١١ / ١٩٤١ ، والالمان على أبواب موسكو) :

« من هم « القوميون – الاشتراكيون » (= النازيون) ؟ ... هل يمكن اعتبار الهتلريين قوميين nationalistes ؟ كلا ، بالطبع . بالحقيقة ، الهتلريون ليسوا الآن قوميين بل هم امبرياليون . طالما كان الهتلريون مهتمين بتجميع الاراضي الالمانية وضم منطقة الراين والنمسا الخ، كان يمكن اعتبارهم مع بعض الحق قوميين . ولكن منذ أن استولوا على أراضي الغير واستعبدوا أمماً اوروبية (ستالين يعددها واحدة واحدة) ... وبما انهم يهدفون الى السيطرة العالمية ، فقد كفوا عن كونهم حزباً قومياً ، وأصبحوا حزباً امبريالياً، حزب غزاة ومضطهدين ... أكثر امبرياليي العالم عدواناً واغتصاباً » .

لا ينقل لوكاكش هذا القول (ليس موضوعه) ولكنه يذكّر بقول آخر لستالين (الجزء ٢ ، ص ٣٠٨) : « من السخف ، كما يقول ستالين في ١٩٤٢ ، ان نخلط (ان لا نميز) بين الزمرة الهتلرية وبين الشعب الالماني ، الدولة الالمانية. التاريخ يعلمنا أن أمثال هتلر يمضون ، ولكن الشعب الالماني باقٍ ، الدولة

الالمانية باقية » .

هذا الذي يحذر منه قائد أعظم مقاومة قومية شعبية ديمقراطية ضد أشرس امبريالية قومية عرقية في ذروة المعركة ، وفي قلب الوطن الاشتراكي ، القائد الذي يقود عملية إفناء الغزاة الالمان ، باسم لينين والاشتراكية ، وباسم أبطال تاريخ الامة الروسية الخالدين من أمير نوفجورود – الكسندر نيفسكي الى الجنرالين سوفوروف وكوتوزوف ، يقع فيه سنايدر وآخرون في سنة ١٩٥٢ [١] . من جملة دوافعهم درء خطر عودة النازية في المانيا . ولكن أسلوب المغالاة ضد الأمة الالمانية ، وبالاعتماد على ماركس زوّر لا يفيد هذا النضال الفكري الانساني العظيم ، بل يلغمه .

الحقيقة وحدها مجدية ، « رابحة » ، ثورية . آراء ماركس وانجلز ؟ ولكن كل آراء ماركس وانجلز الروافد القديمة والقومية للفاشية الالمانية ؟ نعم . ولكن الامبريالية والازمة العامة والمانيا صلح فرساي افورد وتيسن وكروب وجنرالات وساسة برجوازيون ، سفالات العدو ؟ نعم ! سفالات العدو الاخر أو شبه العدو : الاشتراكيين – الديمقراطيين ؟ نعم ! ولكن أيضاً مسؤوليتنا ، وعينا ، وعينا الزائف الأبله ارهاصات قومية فاشية عند ألمان جمهورية فايمار أو قبلها ؟ نعم ! ولكن حساب الشعب الالماني ، حساب أصواته ! حقائق ١٩٢٨ – ١٩٣٣ كاملة غير مبتورة ، غير محسّنة غير مزوّرة [٢] ايديولوجياً مثالياً « لصالحنا » وبئس الصالح !

هكذا لا نعفي أنفسنا من المسؤولية العملية والنظرية (الوعي ! وعي التاريخ : هذه هي « الناحية النظرية ») بل نؤكد المسؤولية ، ونتمسّك بالمنهج وكل

---

١ – لم « أرَ » سنايدر ولكنني « رأيت » غيره !

٢ – عند عرب الجاهلية وصدر الاسلام : التزوير = التحسين .

التعاليم والمواقف المرتكزة على المنهج والتي هي لحمه ودمه ، تتخذ عقيدتنا دليلاً للعمل ، دليلاً يفترض حتماً استشراف المستقبل واحتمالاته على أساس القوانين ، ويفترض حتماً التنبؤ العلمي الاختباري ، ويعصمنا عن قدَر الجبريـــين ونبوة الأنبياء .

ترى : لو سحقت النازية في المانيا ١٩٣٢ ؟ بفضل سياسة صحيحة للحزب الشيوعي الالماني، سياسة كل شيء تابع وخاضع ١٠٠٪ للمعركة ضد خطر النازية الداهم ، وبفضل عوامل صغيرة مواتية ... ، ولو انتصرت الثورة البروليتارية الاشتراكية في المانيا عن طريق «جبهة شعبية» ، أو لو تثبتت ديمقراطية قومية شعبية في المانيا (والمانيا كانت خلال كل فترة ١٩٢٠ — ١٩٢٨ و ١٩٢٨— ١٩٣٣ محطّ الامل، بلد أقوى حزب شيوعي في اوروبا) ، ولوْ ، على أثر هذا الانتصار الذي يطرد « الحلفاء » ويعيد إلى الأمة كرامتها المهدورة ويحقق حلف الروس والالمان الثوري السوفياتي او الديمقراطي ، لو انتصرت الفاشية في فرنسا ١٩٣٤ كرد على « الخطر الأحمر » الزاحف نحو الغرب ، أما كنا ننبش نبوءة لماركس الشاب أو لماركس الناضج عن ظهور الفاشية في فرنسا [1] ؟ (مثلاً : عشرات الأقوال لماركس ضد فرنسا التي تعادي الأمة الالمانية وتسلبها حقها منذ عهد ريشوليو) .

هذا ليس أكثر من « لَوْ » . ولكننا ، اذْ نجد « لَوْ » عنـد ماركس ، فإننا نسوق هذا الافتراض الضروري الطبيعي المنطقي ، لأنه رد ماركسي على الجبْرية المناهضة للماركسية .

---

١ — الفاشية الفرنسية اشتد ساعدها . وظل الحزب الشيوعي الفرنسي على خطه السابق : نهج التصلب اليساري الانعزالي، القضاء على الاشتراكيين الخونة... ولكن عمال باريس الشيوعيين الاشتراكيين ردوا على الفاشست وأدبوهم . ثم أصدرت البرافدا تليعاً تضمن التحول نحو الخط الجديد ، ونقلته الاومانيته : خط الجبهة العمالية الموحّدة ضد الفاشست ، ثم جاء المؤتمر السابع للكومنترن (١٩٣٥) والتصحيح العالمي الكبير(« الجبهة الشعبية »).

(٩) لماذا أيد ماركس وحدة ١٨٧٠ ؟

بعد نبوءة ماركس (الشاب) عن « ظهور الفاشية في المانيا » ، يصل الزميل طيبي إلى حلقة حاسمة في الحوار : **ماركس والوحدة الالمانية** . يؤكد أن ماركس كان دائماً يؤيد الوحدة الالمانية ، حتى أنه أيضاً أيد الوحدة البسماركية العسكرية الرجعية . ولكن ... لنقرأ كلام الزميل :

« انني حسب أبحاثي أكرر أطروحتي من أن ماركس رفض القوميات بشكل عام والقومية الالمانية بشكل خاص . لكن هـــذا لا يعني أن ماركس لم يعط المسألة القومية حقها . فهو من أنصار الوحدة ، لذلك كان دائماً يؤيد الوحـــدة الالمانية . ولقد أمل ماركس أن تتم الوحدة الالمانيـة بشكل ثوري ، وكانت ثورة ١٨٤٨ فرصة مناسبة لذلك ، لكن هذه الثورة التي شارك بهـــا ماركس فشلت .

وماركس من ألد أعداء بسمارك ، وكان بوليس بسمارك يطارد ماركس في جميع أنحاء اوروبا . لكن رغم ذلك أيد ماركس الوحدة الالمانية على الطريقـة البسماركية — البونابارتية — العسكرية . أملاً منه أن هذه الوحدة ستساعد على إخراج المانيا من التخلف الاقتصادي ، ومن أن هذه الوحدة ستساعد على إيجاد طبقة عاملة المانية قوية . لكن هذا لم يحصل كما نعرف ذلك من الابحاث التاريخية ،

فألمانيا بقيت متخلفة بالنسبة للدول الاوروبية الاخرى وحتى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم تنمو الحركة العمالية الالمانية الا في أوائل القرن العشرين » (ص ١١١ – ١١٢) .

لنصرف الجملة الاولى ، « الاطروحة السابقة » : هل كان ماركس يعارض القومية الايرلندية ؟ الاخ بسام قال لنا في مقاله الاوّل : لا. وأفهم من أطروحته أن ماركس يعارض الفكرة القومية ،النزعة القومية الايديولوجيا القومية ،بشكل عام ،باعتبارها اتجاهاً قومياً برجوازياً يتنافى مع عقيدة البروليتاريا ومع الأممية البروليتارية ، وليس الحركة القومية . وهذا صحيح الى حد كبير ، بل أقول انه صحيح تماماً ، شريطة أن نتذكر انه لا يمكن ان نفصل فصلاً مطلقاً بين الاثنين : الحركة القومية التقدمية او الثورية (حين تكون هناك مثل هذه الحركة) ، و ، أفكارها القومية الرجعية . وعلى وجه التحديد ، ليست كل الافكار القومية للحركة القومية البرجوازية التقدمية بشكل عام ولا بشكل خاص (ايرلندة أو المانيا او ...) رجعية . والعكس هو الصحيح . في البحث السابق ، ذكر الأخ بسام مساندة ماركس للقومية الايرلندية المضطهَدة، وتبنى هذا الموقف . ولكنه نسيَ كلياً مواقف ماركس من الوحدة الالمانية (مكتفياً بنقطة اعتبرها « الناحية النظرية » وهي نقد ماركس « للهمجية الالمانية » و « للقومية الالمانية الهمجية ») . والشيء الذي يهمنا هو ، بعيداً عن تلك « الناحية النظرية » المتعلقة بـ « القومية » ، موقف ماركس من الوحدة الالمانية .

ان الفقرة الاولى من كلام الزميل لا تروي ظمأنا : أمل ماركس ... بشكل ثوري ،.. وشارك ماركس في الثورة. هذا كلام صحيح ولكنه لا يكفي. ماركس لم يأمل فقط ولم يشارك فقط. ماركس وانجاز والارجح ماركس قبل انجاز وضعا استراتيجية للثورة الديمقراطية الالمانية (والاوروبية) ولـ «فرعها » المركزي: الوحدة الالمانية . وهذا أهم من كل « الناحية النظرية » التي تشغل الباحثين

الاميركيين والرفيق بسام طيبي. كتاباتهم موضوعها «القومية» و«القومية الالمانية» و «القومية والاشتراكية» ؟أهلاً وسهلاً! ولكن جورج لوكاكش كتابه ليس عن القومية بل عن الفلسفة اللاعقلانية الالمانية، ومع ذلك ورغم ذلك، أي لذلك، فقد تطرّق في صفحات من فصله الاول الى هذه الستراتيجية لماركس وجريدته نوي راينيشه تسايتونغ، هذه الستراتيجية العالمية الحقيقية. (اي التي تتخطى الاطار القومي اي هنا الاوروبية)، العالمية اي « القومية » ايضاً. «عالمية» غير الماركسيين (مثلاً برودون) في ١٨٤٨، وبعدها يمكن ان تقول وتقول : مع العمال والكادحين ضد الرأسماليين والاقطاعيين، وكفى ! (عالمهم مؤلف من « طبقات ». مرحى لهذه « الطبقية » ! عالم ماركس وانجلز، لأنه مؤلف من طبقات، فهو مؤلف ايضاً من أمم وأقطار). ولكن عالمية ماركس وانجلز تقول ايضاً : مع الشعوب الثورية ضد الشعوب الرجعية، مع الالمان ضد الروس ومخافرهم التشيكية والكرواتية (ذلك هو زمن الثورة الديمقراطية في اوروبا منتصف القرن التاسع عشر). وعلى هذا الاساس ذاته، و ضد التعصب القومي الالماني، تقول هذه العالمية : حلف الالمان والبولونيين، التساهل مع البولونيين، التسليم بمبدأ بولونيا للبولونيين – وتحذر الالمان من مغبة كره البولونيين والقضاء على البولونيين (بروسيا والنمسا شريكتان في تقاسم بولونيا في اواخر القرن الثامن عشر، وفي التسلط على الأمة البولونية واراضيها) – . بتعبير آخر، وبصدد اطروحة الزميل الاولى، نقول : عملياً، لم يكن ماركس وانجلز في ١٨٤٨ – ١٨٥٢ (وبعدها) ضد « القوميات بشكل عام والقومية الالمانية بشكل خاص » كحركة تاريخية وسياسية. بالعكس، كانا بشكل خاص مع هذه القومية الالمانية (ضد روسيا والتشيك وضد فرنسا نابوليون الثالث بعد ١٨٥٢) – باستثناء النقطة البولونية الخطيرة الأهمية والتي يربطها ماركس بكل منظورات الثورة الديمقراطية الاوروبية والالمانية وبالتالي وعلى وجه التحديد بمصير وحدة هذه الامة الالمانية.

لننتقل الى الفقرة الثانية : لقد أيد ماركس الوحدة على الطريقة البسمركية

– البوناپارتية – العسكرية . أي الوحدة التي كانت تقوم بقيادة بسمارك والملك والرأسماليين والاقطاعيين والجنرالات ، رغم هذه القيادة ، ورغم المرافق الذهني والفكري الشوفيني التوسّعي الحقير (الالزاس) . والاخ بسام أصاب هنا كبد الحقيقة .

إن « ماركسياً » جاهلاً يطلع على مواقف ماركس وانجلز في ١٨٤٨ من خلال بضع جمل قرأها في كتاب « مبسّط » ، يحطّ هذه القضية (أو يرفعها مثالياً) الى المستوى الآتي : ماركس وانجلز ساندا حركة الوحدة الالمانية في ١٨٤٨ لأنها كانت آنذاك جزءاً من الثورة الديمقراطية التي يأملان أن تكون فاتحة الثورة البروليتارية الاشتراكية . (وينسى الماركسي الجاهل ١٨٧٠) . والحقيقة ان ماركس وانجلز كانا يأملان ويخططان لذلك : الوحدة كجزء (هام هام) من الثورة الديمقراطية ، والثورة الديمقراطية كفاتحة للثورة البروليتارية الاشتراكية . ولكن ثمة فرق بين هذا وذلك . ذلك – « لأنها » – اذلال لموضوع الوحدة الى مستوى تاكتيك وبالاحرى لدى صاحبنا الجاهل الى مستوى تكتيكة وشطارة . أما هذا فيترك الاشياء في مكانها ، يترك الوحدة في مكانها التاريخي كجزء من التقدم التاريخي الكبير ، من التحول البرجوازي، الذي يسعى ويخطط ماركس وانجلز ليكون ثورة برجوازية وديمقراطية ، اي ليكون « ثورياً » . و « ثورياً » يعني : الديمقراطية ، استئصال الاقطاعية والعهد القديم ، تحريك اوسع الجماهير الشعبية ، ويعني ايضا : الوحدة الكاملة الشاملة كاسحة ومقتلعة الدول والدويلات من الجذور ، وايضاً : قومياً – عالمياً ضد الروس واعوانهم . وفي الاكتساح المنشود للنظم الاستبدادية الاقليمية وللتجزئة ، لا يكون السير (بالضرورة والالزام) سيراً أحادي الاتجاه في شكل اقتلاع النظم الاقطاعية والاستبدادية والرجعية في كل دولة ودويلة ثم الغاء التجزئة وتحقيق الوحدة والتوحيد ، بحجة أن ذلك أساس وأصل لهذا ، بل يمكن ان يكون السير ايضاً في الاتجاه المعاكس تحت شعارات الوحدة القومية ضد «التجزئة البغيضة التي تمزّق جسد الامة وتشلّ طاقاتها»(«وحديث

الفيدرالية تخريف برجوازي – صغير» ، انجاز) . بتعبير آخر : الوحدة تاكتيك (أي عمـــل آني !) ، و ، ستراتيجية ونظرية (نظرية التاريخ) ، جزء من التاكتيك ومن الستراتيجية ومن النظرية ، جزء هام بالغ الأهمية . أهمية هـــذا الجزء لا تخفى لاعلى الألمان (بالنسبة لبعضهم ،انها كل شيء ،وهذا حامل أخطاراً وضدّ هـــذا لا يتخذ ماركس موقف « الرفض » ورد الفعل كما يفعل تلميـذه ليبكنشت ، بل يبين في جملة ما يبـــين ارتباطات الرجعية والاقليمية والعدو الاجنبي) ، ولا يخفى على الأمم الأخرى ،ولا يخفى على ماركس وانجاز. ماركس وانجاز لا يساندان الوحدة في ١٨٤٨ لأنها جزء من الثورة الديمقراطية التي يأملان أن تكون فاتحة الحكم البروليتاري ، بل يساندانها ايضاً لأنها جزء أساسي من التقدم البرجوازي كله ، أياً كانت سبله وأشكاله ، ديمقراطية ثورية أو غير ذلك، (اي حـــتى اذا كان السبيل والشكل والمضمون بسمارك ياً ونصف – إقطاعي واستبدادي) ، جزء أساسي من التحول الرأسمالي البرجوازي لألمانيا واوروبا ، وهو التقـــدم والتحول الذي يحمل اولاً واخيراً ، عاجلاً أو آجـلاً ، انتصار البروليتاريا ، ليس من طريق آخر . هذه هي الماركسية المناهضة لكل ضروب وصنوف الاشتراكيات الخيالية ونصف الخيالية .

الوحدة الديمقراطية الثورية خير ألف مرة من الوحدة الاستبدادية نصف – الاقطاعية . المجتمع البرجوازي الديمقراطي الكامل كشكل للرأسمالية واطار لنموها خير ألف مرة من المجتمع نصف البرجوازي ربع الـديمقراطي الناقص كشكل للرأسمالية واطار لنموها . الطريق الفرنسي للتطور الرأسمالي (١٧٨٩، ١٧٩٣ ، اليعاقبة ، اقتلاع العهد السابق من جذوره) خير ألف مرة من الطريق البروسي – الألماني والياباني والنمسوي والروسي الخ لهذا التطور الرأسمالي .

ولكن الوحدة الاستبدادية نصف الاقطاعية خير ألف مرة من التجزئـة الاستبدادية نصف الاقطاعية . والمجتمع نصف البرجوازي ربع الديمقراطي خير الف مرة من هذا المجتمع ذاته مجزأ مبعثراً (واكـــثر تقدمية منه على

الصعيدين الاجتماعي والسياسي ، اي على صعيد الديمقراطية ايضاً) . والطريق البروسي والياباني والروسي للتطور الرأسمالي خير الف مرة مـــن لا تطور رأسمالي ، من الاقطاعية والعشيرية والاسيوية .

هكذا يبدو منظور الماركسية من خلال المواقف العيانية لماركس وانجلز ولينين والتي يبلورها لينين في هذا الموقف النظري المبدئي الأساسي العام .

على هذا الطريق الذي تسير عليه المانيا بين ١٨٥٠ و ١٨٧٠، يحاول ماركس وانجلز (ويقصّر التلامذة الألمـــان ، ببل وليبكنشت) ان « يكلّبا » على المواقف العيانية (الأزمة الدستورية ، الأزمة الزراعية الفلاحية ، ... اي موجودات الثورة الديمقراطية) من اجل الطريق الاخر : الطريق «الفرنسي» الجذري ، والمشروع البروليتاري العتيد (والوحدة كجزء) . ولكـن ، اذا فشلت هذه الخطة الماركسية ، اذا لم تستطع – لأسباب موضوعية اولاً وذاتية ثانياً – ان تنفذ الى الواقع وان تتحقق ، فليتقدّم « الموضوع » – الرأسمالية ، الوحدة – بالطريق الآخر ، بالطريق الأسوأ . هذا كله – هذه السبل والطرق والاشكال – تفصيل un détail ، تفصيل خطير الأهمية ، ولكنه لا يعدو ان يكون تفصيلاً في منظور الماركسية ، في منظور ماركس وانجلز ولينين ، في منظور المادية التاريخية والثورة الاشتراكية . الثورة الاشتراكية « في النهاية » حتماً ! البروليتاريا وحركتها تنموان بهذا الطريق وذاك . والاحتمالات كثيرة. مبدئياً، نمو الرأسمالية بالطريق الفرنسي أرحب وأقوى بكثير. ولكن واقعياً يمكن ان تتقدم الرأسمالية وكثيراً بالطريق الآخر (مثال المانيا بعد ١٨٧٠ ، مثال اليابان) . هذا يتوقف على أمور كثيرة وليس فقط على القانون « المبدئي » (قانون تناسب البنية الفوقية السياسية والبنية الاقتصادية وقوى الانتاج) . الثورة الاشتراكية هي الهدف. ومسائل الثورة الديمقراطية غير المنجزة، يمكن ان تكون مرتكزات لانطلاق الثورة ، عيانياً (حتى بعد قيام الوحدة البسماركية وربما اكثر من قبـــل) . في روسيا نقولا الثاني وستوليبين ولينـــين ، الثورة

الاشتراكية ترتكز على الثورة الديمقراطية ، ولينين « يراهن » على هذه الثورة الديمقراطية الواسعة المضامين (المسألة الفلاحية ، قضايا الاستبداد المتنوعة) ، وفي ١٩١٧ ينميها ويحوّلها الى ثورة اشتراكية . ولكن لينين لا يعارض أو «يرفض» التقدم الرأسمالي (بالعكس) ولا أي تحويل برجوازي ، مهما كان جزئياً مشوهاً (يؤكد انه جزئي ومشوّه وكاذب ، ويعلن بقاء مهام الثورة الديمقراطية ١٩٠٧ ، ١٩١١ ، ١٩١٢ – ١٩١٤ ، ١٩١٦ ، ١٩١٧) . وماركس لا يمكن أن « يرفض» التقدم البرجوازي ، خصوصاً هذا التقدم الكبير : وحدة ١٨٧٠ . الوحدة الالمانية ضرورة ملحة . وهي تطرق الباب بسمارك ! . ماركس يقول «نعم» ، بالبداهة . من أجل نمو الرأسمالية ، حامل نمو الطبقة العاملة وحركة العمال . في هذه المرة ، بعكس ١٨٤٨ ، لا يمكن أن يتصوّر أحد أو أن يصوّر أن ماركس يؤيد الوحدة لأنها جزء من ثورة ديمقراطية (لا وجود في ١٨٧٠ لثورة ديمقراطية ، بل الوجود لهذا التقدم البرجوازي الكبير وغير الديمقراطي) ولأنه يفكر بتحويلها إلى ثورة اشتراكية . كلا ، جميع القرائن (قرائن الواقع ومرآتها في مراسلات ماركس وانجلز) تشير الى ان الزعيمين البروليتاريين يعلمان تماماً أن البروليتاريا الالمانية لن تصل إلى السلطة في ١٨٧١ أو في ١٨٨٠ ، يعلمان أن الدرب طويل . ولكنهما يؤيدان الوحدة ، لأنهما مع الوحدة ، مع هذا التقدم بحد ذاته ، وأملهما هو في تقدم طويل للمجتمع الرأسمالي الالماني المشكّل في دولة قومية ، ولانقسام الطبقات [١] ، ونمو البروليتاريا ووعيها ونضالها .

هذا أمر يوافق عليه الزميل طيبي : في ١٨٧٠ ، لا وجود لثورة المانية ، ولا أمل في ثورة بروليتارية قريبة . يأمل ماركس فقط في « ان هذه الوحدة ستساعد على إخراج المانيا من التخلف الاقتصادي » ، و « على إيجاد طبقة عاملة

---

١ – عدم تحقق الوحدة ، وتزايد صفتها الضرورية الملحة ، يمكن ان يلجمها ويلجمان نمو انقسام الطبقات وصراعها ، نمو الوعي الطبقي .

المانية قوية » . غير ان الزميل لم يتوقف عند مدلولات هـذا الأمل ، هـذا الحساب ، مدلولاته بصدد أهمية الوحدة القومية في حـد ذاتها ، في منظورات الماركسية ، كمفهوم للتاريخ وللثورة سواء بسواء . بل نراه ما ان يؤكد هـذا الحساب لدى ماركس حتى يخطئه :

« لكن هذا لم يحصل كما نعرف ذلك من الأبحاث التاريخية ، فالمانيا بقيت متخلفة بالنسبة للدول الاوروبية الاخرى وحتى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم تنمو الحركة العمالية الالمانية إلا في أوائل القرن العشرين » . (ص ١١٢) — هذه خاتمة البند (٢) من حوار الاخ بسام معنا ، خاتمة موضوع : انجاز ومقالته عن آرندت ، القومية الانسانية والقومية المضادة ، المانيا عند سنايدر وماركس ولوكاكش ، وماركس والوحدة الالمانية . —

(١٠) هل « الأبحاث التاريخية » تخطىء « أمل » ماركس في تقدم المانيا الموحدة ، اقتصادياً وعمالياً .

حصل أم لم يحصل ؟ هل كان حساب ماركس صائباً أم خاطئاً ؟ هـذا السؤال يركض اليه القارىء ... ولكن القارىء الذي لم يفقد ذاكرته لا بد ان يفكّر : إذا صدق قول الاخ بسام المستند على « الأبحاث التاريخية » ، وجب القول : ما فائدة الماركسية ؟ ما فائدة « البيان الشيوعي » و « رأس المال » وكل العمل العلمي الذي قام به ماركس طيلة مرحلة النضج ، طيلة ربع قرن ما دام ماركس الشاب قد تنبأ بما سوف يحدث في المانيا بعـد تسعين سنة قافزاً بالهام عبقري فوق عدة أدوار تاريخية [١] ، وفشل ماركس الناضج في معرفة

---

١ — فوق عدة انقلابات وحروب وثورات، فوق كل نموالصناعة الهائل (انطلاقاً مما يشبه=

ما سيحدث غداً ؟ حقاً مسكينة الماركسية !

لست أدري ما هي « الأبحاث التاريخية » التي منها « نعرف ذلك » . في المرّة – ومرة ، كما يقول المثل الفرنسي ، ليس عادةً ! – عفانا الأخ بسام من الاحالة المعتادة الى رقم ما في قائمة المراجع . وبانتظار أن يسدّ الزميل هـذا النقص وان يطلعني على عناوين «الأبحاث التاريخية» التي استقى منها معلوماته ، فاني اطلع الزميل على « أبحاث تاريخيـة » بسيطة ، مستوى بعضها واطىء جداً كما سيرى القارىء (وأعتذر عن هذا المستوى للزميل) .

أحب اولاً أن اشير الى ان تفوق المانيا الكبير على جارتيها الغربيتين(انكلترة وفرنسا) في وتائر النمو الصناعي والتقدم الاقتصـادي ، وفي نتائجها ، وفي ميدان حركة العمال ، حقيقة ذائعة الشهرة ولا تحتاج الى أية ابحاث خاصة : من المعروف ان سرعة النمو الالماني كانت ضعفي او أضعاف سرعة النمو البريطاني والفرنسي . ومن المعروف ايضاً ان حركة العمال في المانيا كانت خلال كل فترة ١٨٧١ – ١٩١٤ متفوقة كثيراً على حركة العمال الفرنسية والانكليزية والبلجيكية والهولندية والايطالية والاميركية من جميع النواحي (الحزب ، النقابـات ، الفكر) . من المعروف ان حجم الانتـاج الصناعي الالماني سبق الفرنسي منذ الثمانينات ، وسبق الانكليزي منذ حوالي ١٩٠٠ ، وأصبح ثاني انتاج صناعي في العالم بعد الولايات المتحدة . من المعروف ان المانيا هي نموذج التطور السريع ،

=لا شيء في المانيا الأربعينات)،والأزمات الدورية،وحزب العمال، وعدد من الاشياء الاخرى، بينها الوحدة القومية وعصر الامبريالية وأول حرب عالمية في التاريخ ، وانتصار الاشتراكية في مكان آخر على سدس الكرة الأرضية ، وثلاث أمميات ، وعشرات الأحزاب العمالية ... أي فوق ٩٩ ٪ من مضمون الواقع الذي تستوعبه الماركسية وأحياناً تصنعه والذي يؤلف قوامها .

بين ١٨٧٠ و « أواخر القرن التاسع عشر » : لا انقلابات ولا حروب ، (أكثر العهود هدوءاً وتدرجاً في كل تاريخ ١٨٤٥ – ١٨٦٩) . لا انقلاب ولا تطور سوى ذلك الانقلاب والتطور الذي تفاه الأخ بسام ! والذي سنراه الآن .

وان انكلترة وفرنسا نموذجان للتطور البطيء . هذه حقيقة أساسية ترتبط بكل الفهم الماركسي للاقتصاد الرأسمالي في طور الانتقال الى الامبريالية (١٨٧٠ — ١٩٠٠) وفي طور الامبريالية (١٩٠٠ — ١٩١٤) سواء بسواء .

لعل الأخ بسام طيبي يعتقد ان النمو الاقتصادي الالماني السريع يعود الى سنوات ١٩٠٠ — ١٩١٤ فقط . أو لعله لا يعتقد بأنه كان هناك نمو الماني سريع وكاسح خلال الفترة المعنية كلها (١٨٧٠ — ١٩١٤) — كلامه يمكن أن يحمل المعنيين — وهو مخطىء في كلا الحالتين .

والآن — ولكي يصدقني الاخ بسام — أقدم ما ورد في مراجع متواضعة نسبياً .

آ — من كتاب تاريخ مدرسي فرنسي ، لصف الكفاءة ، (تأليف آ. آلبا ، باريس ، ١٩٥٦ ، ص ٣٤٨) .

فصل : « الامبراطورية الالمانية بين ١٨٧١ و ١٩١٤ » .

« الفقرة ٤ : الازدهار الاقتصادي العجيب لالمانيا :

إن الشيء الجوهري في تاريخ المانيا اعتباراً من ١٨٨٠ ليس هذه الصراعات السياسية . انه التقدم الاقتصادي السريع للأمة .. كانت المانيا حتى حوالي ١٨٨٠ بلداً زراعياً بالدرجة الأولى ، واصبحت في ١٩١٤ اكثر الدول الصناعية نشاطاً ، الى جانب الولايات المتحدة وبريطانيا . اصبحت تحتل المرتبة الثالثة في انتاج الفحم ، والثانية في الصناعات المعدنية ، والاولى في الصناعات الكهربائية والسكرية والكيميائية . هذا النمو الخارق كان مرده عوامل متعددة : اولاً ، الثروة المعدنية في باطن الارض ، ثم وفرة ورخص اليد العاملة ، واخيراً الصفات التنظيمية التي دلل عليها الألمان دائماً ، والوحدة الوثيقة بين العلم والصناعة » ...

ب — ومن كتاب « موجز الاقتصاد السياسي » ، كتاب سوفياتي ، بالفرنسية ،

باريس ، ١٩٥٦ (ص ٢٨٦) .

١ – « عنوان الفقرة : قانون تفاوت النمو الاقتصادي والسياسي للدول الرأسمالية في عصر الامبريالية وامكانية نجاح الاشتراكية في بلد واحد :

... البلدان الداخلة متأخرة في طريق التطور الرأسمالي تستخدم مكتسبات التقدم التكنيكي : الآلات ، طرق الانتاج الخ . ومن هذا ينجم تطور سريع ، وبقفزات ، لبعض البلدان ، وتأخر او تباطؤ في تطور بلدان اخرى ... » .

ولكن أية بلدان حققت تطوراً سريعاً بقفزات وأية بلدان تباطأ نموها ؟ نعلم بداية الجواب من الجملة الاولى : البلدان التي وصلت متأخرة والتي تستخدم مكتسبات التقدم التكنيكي هي التي تتقدم بقفزات : أي المانيا والولايات المتحدة . بخلاف بريطانيا وفرنسا . ولكن في أية سنوات ؟ لنقرأ الأمثلة !

٢ – نعود أولاً الى الصفحة ٢٤٨ تحت عنوان « الانتقال الى الامبريالية » ، أي هذه المرحلة بالضبط (١٨٧٠ أو ١٨٨٠ إلى ١٩٠٠) ، يقول مؤلفو الكتاب السوفياتي :

« خلال القرن التاسع عشر ، امتدّ اسلوب الانتاج الرأسمالي بسرعة في العالم كله . حوالي سنة ١٨٧٠ ، كان اقدم بلد برجوازي – انكلترة – لا يزال ينتج المنسوجات والحديد الصب والفحم أكثر مما تنتج الولايات المتحدة والمانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا واليابان مجتمعة . انكلترة كانت الأولى في الانتاج الصناعي العالمي وكانت تملك احتكاراً مطلقاً على السوق العالمية . في اواخر القرن ، كانت الحالة تغيرت كلياً . باتت البلدان الرأسمالية الجديدة لها صناعاتها الكبيرة . هذا أفقد

انكلترة الاولية الصناعية وأفقدها موقعها الاحتكاري على الســـوق العالمية . في حجم الانتاج الصناعي ، الولايات المتحدة تحتل المرتبــة الاولى في العالم ، والمانيا تحتل المرتبة الاولى في اوروبا .. » .

المانيا تحتل اذن المرتبة الأولى في اوروبا (والثانية في العالم) من حيث حجم الانتـــاج الصناعي منذ « اواخر القرن » . هذا بالضبط عكس قول الزميل : « المانيا بقيت متخلفة بالنسبة للدول الاوروبية الاخرى حتى اواخر القرن » (أي حرفياً متخلفـــة عن كل الدول الاوروبية بما فيها روسيا واسبانيا !) .

٣ — لنرجع الآن الى الصفحة ٢٨٦ « قانون تفاوت النمو ... » :

« في ١٨٦٠ ، كانت انكلترة تحتل المرتبة الاولى في الانتـــاج الصناعي للعالم ، وفرنسا تأتي وراءها مباشرة . المانيا والولايات المتحدة لم تكونا إلا في خطواتها الاولى في الحلبة العالمية . مضت عشر سنوات ، وبلد الرأسمالية الفتية الصاعد — الولايات المتحدة — لحق بفرنسا وأخذ مرتبتها . وبعد عشر سنوات ، لحقت الولايات المتحـــدة ببريطانيا واحتلت المرتبة الاولى ، بينما المانيا تخطت فرنسا واحتلت المرتبة الثالثة بعد الولايات المتحدة وبريطانيا . وفي مطلع القرن العشرين ، المانيا تفوقت على انكلترة واحتلت المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة » .

بتعبير آخر ، إذا تـاهلنا مع صيغة الزميل طيبي المتسرّعة عن « الدول الاوروبية الأخرى » (!) ، واذا اقتصرنا على الدول الاوروبية الثلاث الرأسمالية الصناعية الكبرى المتقدمة ، وأردنا ان ننشىء صورة تسلسل مراتب هذه الدول ، بالاستناد الى كل المراجع بلا استثناء ، من أبسطها الى أعلاها ، فإن هذه الصورة هي كما يلي :

في ١٨٧٠ : بريطانيا ثم فرنسا ثم المانيا (بعيدة الى الوراء) .

في ١٨٨٠ – ١٨٨٥ : بريطانيا ثم المانيا ثم فرنسا .

في ١٩٠٠ أو ١٩٠٣ : ألمانيا ، ثم بريطانيا ثم فرنسا (ثم « الدول الاوروبية الأخرى ») .

جـ – من كتاب لينين الاكثر شيوعاً ، « الامبريالية ، أعلى مراحل الرأسمالية » خاتمة الفصل الثامن ، الأهم والأخطر في منظورات « العالمية » والحروب والثورة ، أي في منظورات لينين ضد كاوتسكي وسواه) :

« في ١٨٩٢ ، كانت المانيا تنتج ٤٫٩ مليون طن من الحديد الصب . وانكلترة ٦٫٨ [1] في ١٩١٢ ، غدت المانيا تنتج ١٧٫٦ وانكلترة ٩... والسؤال : هل كان هناك على ارض الرأسمالية من وسيلة أخرى غير الحرب لمعالجة هذا التباعد بين نمو قوى الانتاج وتراكم الرساميل من جهة ، وبين توزع المستعمرات ومناطق النفوذ من قبل الرأسمال المالي من جهة أخرى ؟ ».

بتعبير آخر : المانيا هي نموذج التطور السريع الباهر لقوى الانتاج ولتراكم الرساميل ، وانكلترة هي نموذج التطور البطيء . ولكن انكلترة تملك غالبية المستعمرات ومناطق النفوذ. والمانيا لا تملك شيئاً تقريباً (بالمقارنة مع انكلترة). هذا هو السبب الأول للنشوب الحرب الامبريالية في ١٩١٤ بين الحلف الذي تقوده المانيا والحلف الذي تقوده بريطانيا . تلك هي نظرية لينين عن الامبريالية التي خصص لها الزميل طيبي مقالاً فيما مضى . بدون هذا التفاوت الهائل في النمو بين الدول ، وبين الدولتين الأهم – المانيا وانكلترة – وبين الدول الثلاث الأهم

---

١ – نعم ! منذ ١٨٩٢ ، كانت المانيا قد أصبحت تنتج ما يعادل ثلاثة ارباع انتاج بريطانيا من الحديد الصب . والأرجح انها كانت سبقتها في بعض الفروع الصناعية الاخرى (الكهرباء ، الكيمياء) .

– المانيا وانكلترة وفرنسا – تسقط كل نظرية لينين عن الامبريالية وعصرهـا وحروبها وحربها العالمية والثورة الاشتراكية .

بدلاً من « نظرية » الامبريالية أقترح على الأخ بسام ، ان يدرس « تاريخ » الامبريالية . إذ لا نظرية بدون تاريخ . لا « ناحية نظرية » بدون « الناحية التاريخية » . هذا ألفباء الماركسية .

بعد التخلف والتقدم الاقتصادي لالمانيا ، لننتقل الى تخلف ونمو **الطبقـــة العاملة والحركة العمالية في المانيا** .

يقول الأخ بسام : « ولم تنـــم الحركة العمالية في المانيا إلا في اوائل القرن العشرين »..بالتأكيد نمت الحركة العمالية بشكل سريع في اوائل القرن العشرين بين ١٩٠٠ و ١٩١٣ . ولكنها نمت بشكل سريع وباهر طيـــلة الثلاثين سنة السابقة .

منذ الستينات، نشأ حزب العمال الالماني، فكان اول حزب عمالي جماهيري في اوروبا والعـالم . أسسه لاسال والماركسيون الالمان (ليبكنشت، ببل) . وكان ضعيفـــاً في ١٨٧٠ . وتقدم في السبعينات والثمانينات والتسعينات ، بينما ظهرت الأحزاب العمالية الاخرى في فرنسا وبلجيكا وهولندة وايطاليا والسويد وروسيا وانكلترة .. وكانت الحركة العمالية في المانيا ١٨٨٠ و ١٨٩٠ و ١٩٠٠ « نموذج » الحركة العمالية العالمية كلها – حزباً ونقابات وايديولوجيا وكارل كاوتسكي . أصبحت المانيا الوطن المرتقب لأول انتصار للثورة الاشتراكية في العالم لدى كل ماركسي اوروبا بين ١٨٨٠ و ١٩٠٠ .ضد نمو الاشتراكيين أصدر بسمارك ١٨٧٨ قانوناً استثنائياً، وفرض على البرلمان المتخلـف برنامج اصلاحات اجتماعية . عبثاً . فقد تابع الحزب نموه . وفرض الغاء القانون الاستثنائي .

ومن المعروف ان انجلز وكاوتسكي وروزا لوكسمبورغ ولارفاغ ولينين الخ ، قد أبدوا سرورهم ورضاهم على هذا النمو العمـالي الالماني الباهر ، الذي تقدّم

المراجع أرقام خطه البيـاني كما تظهر في انتخابات ١٨٧١ و ١٨٨١ و ١٨٩٠ و ١٩٠٣ و ١٩١٢ .

اليكم شهادة انجلز ما دامت هذه الشهادة صدرت في ١٨٩٥ ، أي انها تغطي الفترة السابقة التي « لم تتم فيها الحركة العمالية الالمانية » على حـــد قول الأخ بسام .

يقول انجلز في مقدمته التي تعرف احياناً باسم وصية انجـــلز : « إن النمو المدهش للحزب يظهر جليـاً أمام أعين العالم أجمع في أرقام لا جدال فيها . في ١٨٧١ ١٠٢,٠٠٠ صوتـاً ، في ١٨٧٤ ٣٥٢,٠٠٠ في ١٨٧٧ ٤٩٣,٠٠٠ . ثم جاء الاعتراف بهذا التقدم قبل السلطات العليـــا في شكل القانون المناهض للاشتراكيين . ونجم عن ذلك ان الحزب شُتّت موقتاً ، وهبطت اصواتـه في ١٨٨١ إلى ٣١٢,٠٠٠ . ولكن هذه الضربة جرى تخطيها بسرعة . بدون صحافة ، بدون تنظيم خارجي ، بدون حق الاجتماع وتشكيل الجمعيات ، بدأ النهوض السريع الحقيـقي : في ١٨٨٤ ٥٥٠,٠٠٠ ، وفي ١٨٨٧ ٧٦٣,٠٠٠ ، وفي ١٨٩٠ ١,٤٢٧,٠٠٠ . حينئذ أصبحت يد الدولة مشلولة . زال القانون المناهض للاشتراكيين ، وارتفع عدد اصوات الحـزب الى ١,٧٨٧,٠٠٠ ، أي أكثر من ربع مجموع الاصوات التي أعلنت عن موقف »[1] .

نعم اكثر من ربع مجموع الاصوات في ١٨٩٣ . تلك هي شهـادة انجلز في اوائل ١٨٩٥ . كل الأحزاب العمالية في العالم ، كانت وراء ، بعيداً وراء .

والزميل طيبي ، إذ يجهل هذه الحقيقة ، فانه يخترع « حقيقة » معاكسة ، بالاستناد الى « الابحاث التاريخية » التي لا وجود لها في قائمة مراجعـــه ولا خارجها .

---

١ – انظر كتابي « الماركسية والشرق » ص ٤٧٦ .

في مضمار « التقدم الاقتصادي » و « ايجاد طبقة عاملة قوية » لم يخيب أمل ماركس ، الذي لم يكن « نبوءة » ، بل كان يقيناً علميـــاً مباشراً استند على « تحليل الاوضاع الاقتصادية ــ الاجتماعية » .

لقد خطأ الأخ بسام « أمل » ماركس ، بدافع ذهني من فهمـــه الخاطىء للمسألة القومية . وقاده هذا الخطأ الى خطيئة فادحة في المعلومات التاريخية . فهل يدرك الاخ بسام ان المشكلة ــ مشكلته ومشكلتنا معه ــ ليست المسألة القومية ، بل الماركسية ذاتها ، فهمها التاريخي ــ النظري كله ؟!

نصيحتي للاخ بسام ان يترك موقتاً « النظرية » ليدرس التاريخ . لأنه بدون دراسة التاريخ ، لا يمكن ان يكون الانسان ماركسياً .

والتاريخ معطيات كثيرة تناقضية واحياناً ــ إن شئتَ ــ متناقضة . إن تسجيل مثالب الوضع الألماني والتقدم الالماني لايمنع ماركس وانجاز من تسجيل هذا التقدم . وتسجيل هذا التقدم لا يمنعهما من تسجيل المثالب ، التي يجب ان تكون بنوداً أساسية في العمل والتي يمكن ان تكون منطلقات للثورة : قضـــايا الثورة الديمقراطية المنجزة (بما فيها الوحدة غير المنجزة) . الآمال التي يعلقها انجاز على المانيا (المانيا مركز الحركة ، والعالم العمالي متخلـّف كثيراً عن المانيا) لا تمنع انجاز من رؤية احتمالات المستقبل ، الاحتمالات السيئة المخيفة والتي يمكن ان تؤدي الى خير حاسم (الى انتصار البروليتاريا) . وفي هذا المضمار ، يعطي انجاز تنبؤاً علمياً حقيقياً ، ماركسياً ، لا يقفز فوق أربعة أدوار تاريخية ، ولا ينزح من أرض استشراف المستقبل لغرض العمل الثوري إلى أرض الجـــبرية والقدَر . هذا التنبؤ العلمي هو تنبؤ انجاز في ١٨٨٧ بالحرب العالمية الأولى التي ستطلقها بروسيا ــ المانيا .

لنستمع إلى انجاز ١٨٨٧ : « .. وأخيراً ، لم يعد بالنسبة لبروسيا ــ ألمانيـــا من حرب ممكنة سوى حرب عالمية ، وبالحقيقة حرب عالمية ذات مدى وعنف لم

يتصورها أحد حتى الآن . ٨–١٠ ملايين من الجنود سيتذابحون ؛ وفي هـذا العمل سيلتهمون اوروبا قاطبة وسيجزونهـا كما يفعل سرب من الجراد في يوم من الأيام . ويلات حرب الثلاثين عاماً مكثفة في ٣ أو ٤ سنوات ومنشورة على كل القارة ؛ المجاعة ، الأوبئة ، وحشية الجيوش والجماهير الشعبية نتيجـة الحاجة الحدّة، الفوضى اليائسة في الآلية المصطنعة لتجارتنا وصناعتنا ونظام الأقراض والمنتهية الى خراب وافلاس عام . انهيـار الدول القديمة وحكمتها السياسية التقليدية ، ولدرجة أن تيجان الملوك ستسقط على الأرض بالعشرات دون أن يكون هناك من يرفعها . الاستحالة المطلقة للتنبؤ بكيف سينتهي ذلك كله ومن سيخرج منتصراً من الصراع ، هناك نتيجة واحدة مؤكدة : الانهـاك العام وخلق الشروط الضرورية لانتصار الطبقة العاملة الأخير .

ذلك هو منظور المستقبل اذا ما أعطى نظامُ المزاودة المتبادلة في ميدان التسلح العسكري ، المدفوع الى اقصاه ، ثماره المحتومـة . ذلك ، أيها السادة الأمراء ورجال الدولة ، ما أوصلت اليه حكمتكم اوروبا القديمة . واذا لم يبق لكم أي شيء سوى افتتاح الرقصة الكبرى الأخيرة للحرب ، فان ذلك ليس ليزعجنا. الحرب قد ترجعنا موقتاً إلى الوراء ، ستنتزع منا عدداً من المواقع التي انتزعناها. ولكن اذا ما أطلقتم قوى لن تستطيعوا السيطرة عليها بعـد اطلاقها ، فانكم ، مهما كان سير الامور ، لن تكونوا في نهـاية المأساة سوى خرابة ، وانتصار البروليتاريا سيكون محققاً أو محتوماً »[1] .

وبهذا نترك انجلز وماركس ، ونصل مع الأخ بسام إلى لينين ص (١١٢) .

---

١ – انظر لينين : اقوال تنبئية ، ١٩١٨ . أو كتابنا : الماركسية والشرق ، ص ٤٦٩ – ٤٧٠ .

(١) هل « نحسب لينين من منظري الأممية ! لينين والمسألة القومية والثورة الاشتراكية . جوريس مرة أخـــيرة .

يقول الزميل : « الزميل مرقص محق في نقده لي من انني لم اتطرق بما فيه الكفاية إلى لينين . وفي الحقيقة فأنا أحسب لينين بالدرجة الأولى من منظري الأممية الثانية ، وقولي انه لم توجد تحليلات عميقة بعد الأممية الثانية لا يعني أنني نسيت لينين . فنشاط لينين الأساسي كان في الأممية الثانية رغم انه أسس بنفسه الأممية الثالثة عام ١٩١٩ ، لكنه لم يعمل بها إلا حوالي السنتين فخلال أعوام ١٩٢٢ – ١٩٢٤ كان لينين مريضاً لازم الفراش حتى توفي ، ولم يمارس العمل النظري إلا قليلا جداً ، رغم أنه أبدى اهتماماً كبيراً بالقضية القومية في السنوات الاخيرة » (ص ١١٢) .

حساب الزميل طيبي بسيط ومفهوم : لينين ولد في ١٨٧٠ ، دخل المعترك السياسي في ١٨٨٧ . في ١٨٨٩ ، تأسست الأممية الثانية . في ١٨٩٣ ، بدأ لينين نشاطه كمؤلف أو منظّر . الأممية الثانية « سقطت » في عام ١٩١٤ . في عام ١٩١٩ ، تأسست الأممية الثالثة . صحيح ان لينين أسسها بنفسه . ولكنه توفي في ١٩٢٤ (ولنقل في أوائل ١٩٢٤ !) . وخلال أعوام ١٩٢٢ – ١٩٢٤ ، كان

مريضاً لازم الفراش . إذن لم يعمل بالأممية الثالثة إلا حوالي السنتين . بينما عمل بالسابقه (١٩١٤ – ١٨٩٣) نيف وعشرين سنة . اذن « نشاط لينين الأساسي كان في الأممية الثانية » .

حين يفرق الأخ بسام في «الناحية النظرية » ، لا أستغرب أن ينظّر التاريخ بهذا الشكل في مقولتين – أقنومين – اسمها الأممية الثانية والأممية الثالثة – لينتقل بعد ذلك إلى حساب المقولتين . وفي هذا العمل تفوته أمور كثيرة . يفوته أن لينين الذي أسس بنفسه الأممية الثالثة » انما بدأ هذا التأسيس من «عام ١٩١٤ عام سقوط الأممية الثانية » . ويفوته أن لينين لم يكن قطباً كبيراً في تلك الأممية الثانية ، بينما ظل شبحاً حياً يهيمن على هذه الأممية الثالثة حتى حين « كان مريضاً يلازم الفراش » وبعد ان « توفي ». ويفوته وجود حساب آخر غير حساب سنوات الحياة ، هو حساب المؤلفات والأفكار . في هذه المرة – على خلاف العادة ! – ترك الأخ بسام « الناحية النظرية » وأمسك بـ « الناحية التاريخية »، ولكنها كانت ناحية تاريخية قليلة العمق وخالية من النظرية . فلنمسك بحساب المؤلفات :

المؤلفات الكاملة (الأربعون مجلداً ، كما يقول الأخ بسام بعد قليل) الممتدة من ١٨٩٣ إلى ١٩٢٣ تنقسم كما يلي :

قبل صيف ١٩١٤ : حوالي النصف . وبعد صيف ١٩١٤ : حوالي النصف .

المختارات : (يختلف عدد المجلدات وحجمها بحسب الطبعات ، مع مؤلفات مضافة في الطبعات الأحدث) ، المختارات ، وهي تشمل المؤلفات الأهم ، الأكثر كلاسيكية ، تنقسم كما يلي : من ١٨٩٤ إلى نهاية ١٩١٤ : حوالي ٤٠ ٪ أو أقل. من ١٩١٥ إلى نيسان ١٩٢٣ : حوالي ٦٠ ٪ أو أكثر . عندي من هذه المختارات طبعتان فرنسيتان (موسكو ١٩٤٨ ، موسكو ١٩٥٣) ، وفي كلا الحالتين ، ينتهي النصف الأول من المجموع بمؤلف « الامبريالية » (١٩١٦) ومؤلف «البرنامج

العسكري للثورة البروليتارية » (١٩١٦) ومؤلف « رسائل من بعيد (آذار – نيسان ١٩١٧) . أي ان النصف الاوّل يصـــل الى ما بعد ثورة شباط – آذار ١٩١٧ . والنصف الثاني من المؤلفات يغطي ست سنوات فقط (نيسان ١٩١٧– ١٩٢٣) ، مقابل ٢٩ سنة للنصف الاول .

أما اذا حصرنا نظرنـــا في « المسألة القومية » (وهو حصر نسبي على كل حال) ، إذا أخذنا المؤلفات « الخاصة » (أي شبه الخاصة !) بهذه المســـألة والصادرة في ١٩١٣ و ١٩١٤ و ١٩١٥ و ١٩١٦ و ١٩١٧ ... و ١٩٢٠ وبعدها وآراء لينين في هذه المسألة الواردة في مؤلفات قديمة (١٨٩٩ أو ١٩٠٤ الخ) او حديثة (و « المسألة القومية » تظهر بدرجة ما في أكثر مؤلفـــات لينين الكلاسيكية بعد ١٩١٤ وحتى ١٩٢٣ ، بارتباطها مع فهم وتشخيص الامبريالية أي مع نظرية الثورة الاشتراكية) ، رأينا ان الفرق بين فترة ١٨٩٣ – ١٩١٤ وفترة ١٩١٥ – ١٩٢٣ يصل الى ١ مقابل ٢ أو ١ مقابل ٣ .

فلندع اذن هذا الحساب البسيط . ولنرجع مع الزميل الطيبي الى « الناحية النظرية » . وطريقنا الى ذلك قول الزميل « ان لينين لم يمارس العمل النظري الا قليلاً جداً، رغم انه أبدى اهتماماً كبيراً بالقضية القومية في السنوات الأخيرة». الشطر الاول من الجملة يتوقف بطبيعة الحال على مفهوم الأخ بســـام ومفهومي للعمل النظري . والاخ بسام محق في الشطر الثاني : فعلاً لقد أبدى لينين اهتماماً كبيراً بالقضية القومية في السنوات الأخيرة بشكل خاص . ولكنه اهتمام غريب ذلك الذي، اذ يصدر عن عملاق الماركسية ، لا يتخذ قيمة نظرية . ليس الأمر كذلك في الماركسية التي لا تفصل بين النشاط العملي والنظرية . ليت الاخ بسام على الاقل يستنتج شيئاً نظرياً من هذا « الاهتمام » بحد ذاته ولمجرد كونه اهتماماً، اهتماماً صادراً عن أعظم خلفاء ماركس !

ويواصل الزميل كلامه :

« والصعوبة عند لينين هو أنه كأحد المنظرين العظماء في الحركة الاشتراكية العالمية ، قد كان ليناً جداً لا يعرف شيئاً اسمه التحجّر ، لذلك فهو كان يتطوّر دائماً وبسرعة ومواقفه من القضية القومية غير متماثلة واحياناً متناقضة . وقد أبرز الزميل مرقص بعض هذه النواحي ، لكنه لم يبرزهـا كلها ، وهذا الأمر يحتاج الى عمل علمي شاق بالبحث في الاربعين مجلد (مؤلفات لينين) عن كل ما كتبه لينين حول الموضوع لوضع دراسة شاملة .

«وقد قام الماركسي الامريكي دايفيز بجزء من هذا العمل في كتابه « القومية والاشتراكية » (١٠). وكم نأمل من دار الطليعة ان تترجم هذا الكتاب للعربية كمساهمة منها في الحوار الجاري » (ص ١١٢) .

أما ان لينين « كان يتطور دائماً وبسرعة » ، فهذا أمر لا يتجادل فيـــه ماركسيان : في ١٩٠٥ ، دفع لينين القطار نحو اليسار ضد خطة المنشفيك . وفي ١٩٠٧ ، وقف بقوة ضد قطار « اليسار » (أكثرية رفاقه البلاشفة كانوا مـــن أنصار مقاطعة الدوما أي البرلمان القيصري) . في صيف ١٩١٧ ، دفع القطار نحو اليسار ، ضد زينوفييف وكامنيف ومجموعة من المترددين في قيادة الحزب . وفي اوائل ١٩١٨ ، وقف بعنف بالغ ضد قطار « اليسار » في موضوع الحرب والسلم مع المانيا الامبريالية (نصف اللجنة المركزية ضد الصلح والربع في الوسط ولينين في « اليمين ») الخ [١]. هذه التطورات السريعة المدهشة وان شئتم هذه « الانقلابات » للينين هي انقلابات في التاكتيك ، في الخطة . والأحمق وحـده

---

١ – وفي اوائل ١٩٢١ ، لينين هو الذي يدفع الحزب نحـــو « اليمين » ، نحو « السياسة الاقتصادية الجديدة » دون ان يلاقي معارضة من عاقل. وبعد قليل ، ١٩٢١ ، هو الذي يدفع الكومنترن نحو « اليمين » ، نحو سياسة الجبهة المتحدة ، ويلاقي معارضة كبيرة من شيوعيي « اليسار » في أوروبا ، فيفندها تفصيلياً ويهدّدها بأنـ لا تفاهم على شيء إذا كان هناك اختلاف على حقائق الواقع الموضوعي لقوة الشيوعيين في بلدانهم .

يتصور أنه ليس لهذه الانقلابات أية علاقة بماركسية لينين ، بالماركسية كعلم وكمنهج وكستراتيجية .

وأما ان لينين « كان لينا جداً لا يعرف... التحجّر » ، فهذا صحيح في شطره الاخير . لنقل ان لينين كان مرناً ، منفتحاً على الواقع واحتمالاته ومفاجآته . بحكم مبادئه ومنهجه و « ذهنيته » اللينينية . واستناداً على هـــذه المبادىء والمنهج و« الذهنية » الجدلية الشمولية الواقعية العيانية جامعة الموضوعية أقصى ما يمكن من الموضوعية والمبادرة الثورية أقصى ما يمكن من المبادرة الثورية ، كان مرناً وكان صلباً كالصخر .

أما « ان مواقفه من القضية القومية غير متماثلة » فهذا شيء بديهي : اسمه نمو الماركسية ، ونمو ماركسية لينين ، نمو اللينينية . قبل ١٩٠٥ ، المسألة القومية موجودة في افكار لينين ومنهجه . وهي تنمو وتنمو في ١٩٠٧ ، تبرز في ١٩١٣ ، وفي ١٩١٤ ، مترابطة مع كل الفكر اللينيني ، تنمو وتتحول في ١٩١٥ ، ١٩١٦ الخ الخ ، تتطور وتتكامـل على طول الخط مع كل نظريـة لينين ، كل تكون اللينينية كماركسية عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالميـة التي بدأت في اوكتوبر ١٩١٧ .

اما ان مواقفه « احياناً متناقضة » ، فاني أقول : الماركسية كلها سير تعرف جدلي على واقع تناقضي . ولكن هذه المسألة على ما يبدو غير واضحة في ذهن الزميل وربما في كتاب ديفيس . هل هناك موقفان متناقضان للينين من قضية واحدة في الزمان والمكان ؟ اذا كان هذا التناقض موجـوداً ، من الافضل ان يطلعنا عليه الاخ بسام بدلاً من ان يصدر « حول » هذا الموضوع ، حكماً غامضاً ملتبساً [1] .

---

١ ــ في رأيي ، هناك عند ماركس وانجلز صيغ تناقضية أكثرها هو عند لينين ، وذلك في ــ

وأما ان « الزميل مرقص أبرز بعض هذه النواحي، لكنه لم يبرزها كلها» ، فهذا أمر بديهي ، لا جدال فيه ، ولكن هناك بعض وبعض . هنـــاك البعض الكثير والبعض القليل . والأرجح انني لم أبرز أكثرية النواحي في مقالي—الحوار ، ولكنـــني أبرزت البعض الكثير ، والهام والمجهول لدى الاخ بسام وأكثرية الاخوان الماركسيين الذين أرى أنهم يجنحون نحو مواقف وأفكار مناقضة للينين والماركسية ، على أساس جهلهم للينين ولتفنيد لينين لهذه المواقف والأفكار ذاتها . وأعتقد أيضاً انني — إذا انتقلنا من المقـــال الحوار الى مجموع كتاباتي السابقة— أبرزت في مجموع مؤلفاتي الغالبية الكبرى من آراء لينين في المسألة القومية وفي الثورة الاشتراكية كلها . وأحاول في سلسلة « اللينينية »التي أنشرهـــا في « دراسات عربية » وفي كتابي القادم ، أن أسدّ النواقص والثغرات ، وان أقدم الصورة الكاملة المسلسلة المترابطة للينينية .

ولكن إذا كان الاخ بسام يعتقد أن « النواحي » التي أبرزتها وأبرزهـــا ثانوية ، أو بعضها ثانوي ، وان هناك «نواحي» غيرها أكثر أهمية ، وبالاحرى « مناقضة » للنواحي التي ذكرتها ، فعليه أن يقدمها لي وللقارىء حتى نكمّل ونصحّح . وكتاب ديفيس بين أيديه !

وبانتظار ذلك كله ، فاني أقدم للأخ بسام ، مجموعة مواقف أو أطروحات

— شتى النواحي النظرية والسياسية . ولقد قدمنا صورة عن ذلك بصدد ماركس وانجلز والمانيا والثورة العالمية والتاريخ العالمي : عند انجلز وماركس بين ١٨٤٨ و ١٨٩٥ كثير من «الآمال» الألمانية والعالمية ، وكثير من عكس « الآمال » كثير من الشعور بأن الثورة ستتأخر، وبأن الرأسمالية لا يزال أمامها طور نمو عالمي طويل، وبأن هناك حرباً أوروبية — عالمية فتاكة ... الواقع تناقضي . والماركسية جدلية . لينين الماركسي الجدلي الذي يمسك بالواقـــع التناقضي المتحوّل المتنامي والمتقدم على واقع زمن ماركس والسائر قدماً إلى الأمام ، أكثر « تركيزاً » وتشخيصاً وتعييناً من ماركس وانجلز .

للينين ، أعتقد انها بالغة الشأن وان لا ماركسية بدونها اليوم ، وهي مواقف أو أطروحات تتصل بـ « المسألة القومية » هذه وبالثورة الاشتراكية والماركسية كلها ، وهي تعود الى ما فترة ما بعد عام ١٩١٤ .

١٩١٦ : « من ينتظر ثورة اجتماعية « خالصة » لن يراها أبداً . ذلك ثوري في الكلام لا يعرف ما هي الثورة الحقيقية » (بمناسبة انتفاضة ايرلندة ضد الانكليز ، والتململ القومي الثوري في تشيكوسلوفاكيا وبلجيكا والمستعمرات).

١٩٢٠ : « يا عمال جميع الاقطاع وأيتها الأمم المضطهدة اتحدوا ! »... من وجهة نظر « البيان الشيوعي » هذا الشعار خاطىء ، ولكن البيان الشيوعي كُتب في ظروف مختلفة تماماً . من وجهة نظر سياسة اليوم ، هذا الشعار صحيح . العلاقات أكثر حدة . المانيا قاطبة في حالة اختناق ، وكذلك آسيا . الهند ... الصين ... في المانيا ، حقد يتلظى ضد الحلفاء لا يمكن أن نقدره إلا بتشبيهه بحقد العمال الالمان على رأسماليهم . كانت النتيجة أن روسيا أصبحت الناطق المباشر بلسان كل المضطهَدين في العالم » .

١٩٢١ : عن سيرة الثورة في روسيا : « كاوتسكي ، هليفردنغ ، مارتوف... لم يفهموا . . . العلاقة بين الثورة الديمقراطية البرجوازية والثورة الاشتراكية البروليتارية . الأولى تنمو — تتحوّل الى الثانية . الثانية تحل مروراً مسائل الاولى » .

اواخر ١٩١٩ : « إن الثورة الاشتراكية لن تكون فقط ولا بصورة رئيسية نضال البروليتاريا الثورية في كل بلد ضد برجوازيتها بل ستكون نضال جميع المستعمرات وجميع البلدان التي تضطهدها الامبريالية ، وجميع البلدان التابعة ضد الامبريالية العالمية » (وحديث لينين تضمن الاضطهاد القومي في اوروبا وفي المستعمرات سواء بسواء) .

١٩٢١ : « يجب أن يكون واضحاً كل الوضوح أنه في المعارك القادمة

الحاسمة للثورة العالمية ، هذه الحركة لغالبية سكان العالم ، والتي كانت تهدف في الاصل إلى التحرر القومي ، ستنقلب ضد الرأسمالية والامبريالية ، وقد تلعب دوراً أكثر ثورية بكثير مما توقعنا إلى الآن» (امام المؤتمر الثالث للكومنترن).

١٩٢٣ : «بل ان صغار — برجوازيينا الاوروبيين لا يتصورون أن الثورات الجديدة القادمة — في بلدان الشرق ذات السكان الاكثر عدداً و كثافة بكثير والعوامل الاجتماعية الاكثر تنوعاً بكثير — سيكون لها بالتأكيد من الملامح الخاصة أكثر ما كان للثورة الروسية بكثير » .

١٩٢٣ : « في التحليل الأخير ، إن نتيجة الصراع سيقررها كون روسيا ، الهند ، الصين الخ ، تؤلف الغالبية الساحقة من سكان المعمورة ، وهذه الغالبية بالضبط هي التي انجذبت في السنوات القليلة الاخيرة في النضال من أجل انعتاقها بسرعة مذهلة » .

هل نستطيع أن نؤمّن بقاءنا وان نمنع « الدول الغربية المعادية للثورة من سحقنا ؟ » « لكي نؤمّن وجودنا حتى الصدام العسكري القادم بين الغرب الامبريالي والمعادي للثورة والشرق الثوري والقومي Nationaliste ، بين أرقى بلدان العالم مدنية وبين بلدان الشرق المتأخرة التي هي الغالبية ، يجب أن تصبح هذه الغالبية متمدنة . نحن ايضاً نفتقر إلى مدنية كافية تمكننا من الانتقال مباشرة إلى الاشتراكية وان كنا نملك المقدمات السياسية لذلك .. »

هذه بعض أطروحات لينين. هل يعتقد الاخ بسام انها أو بعضها ثانوي؟[1] وهل عند ديفيس ما يناقضها باسم لينين ؟

---

١ — قسم منها ورد في كل طبعات « المختارات » منذ ثلاثين سنة إلى اليوم. لا سيما نصوص ١٩٢٣ . النص الأخير مأخوذ من آخر مؤلف للينين ، أملاه وهو يلازم الفراش ، قبيل النوبة الأخيرة التي أفقدته ملكة النطق. وموضوع هذا المؤلف: روسيا ومستقبل وسبل بناء الاشتراكية فيها ، تناقضات الامبريالية العالمية (أميركا ضد اليابان ...) ، الشرق ، المانيا فرساي ..

إن الزميل يدعو إلى « البحث في الاربعين مجلد (مؤلفات لينين) » . وهو على حق . هذا ما سأنجزه بدون إبطاء . والمجموعة ليست بعد كاملة عندي . ولعلّ حظ الاخ بسام أفضل من حظي ، هنا أيضاً . لعل المجموعة ، بالالمانية ، ناجزة وعنده . على أي حال ، أنا لا أدعو أحداً الى « البحث في الاربعين مجلداً » ولكنني أدعو ودعوت كل من يتمسّك بالماركسية أن يدرس (لا أن يبحث في) المختارات (٤ مجلدات أو ٦) . هذا كاف وزائد في وضعنا « الماركسي » ! واذا أراد أحد أن يركّز على « المسألة القومية » — وهذا ما أتمناه لكل ماركسي عندنا وفي العالم — فإن هناك بعض مؤلفات صغيرة للينين (اضافة لما ليس في المختارات) صدرت في كتب أو كراسات خاصة ، بأي لغة اوروبية كبرى ، وفي أحيان كثيرة بالعربية : ١) مجموعة « حركة التحرر القومي لشعوب الشرق » (طبع موسكو) ٢) ملاحظات نقدية ، حق الامم ، ومؤلفين لاحقين . هذا يفي بالحاجة تماماً . حين يدرس الماركسي هذه المؤلفات التي لا يتجاوز مجموعها أربعة آلاف أو خمسة آلاف صفحة ، فانه سيدرك انه اصبح يعرف الماركسية — اللينينية جيداً ، وانه في غنى عن النبش الذي قام به هوراس ديفيس في الاربعين مجلداً .

اما بصدد اقتراح الاخ بسام على دار الطليعة بأن تترجم كتاب ديفيس ، فاني اقول : اهلاً وسهلاً . اذا كان الكتاب مفيداً ، سيستفيد القارىء ونستفيد. والا فستكون له فائدة اخرى : ان نكتشف ونكشف آلية التزييف من منابعها الاولى ، آلية « التركيب » على ماركس ولينين .

وبالمناسبة ، أليس ديفيس هذا وفي الكتاب ذاته ، هو الذي اطلعنا على مقالة انجلز عن آرندت واحالنا الى الصفحة ١٠٨ من الجزء الاول ، المجلد الثاني ، ماركس — انجلز — المؤلفات — الكاملة بالالمانية ؟ !!

ولقد فرضت الامانة للحوار الذي يتمسك بها الاخ بسام ، فرضت عليه ان يعود الى موضوع جان جوريس .

«اما بشأن جان جوريس فأنا ما زلت اعتقد انه قد سمّم الفكر الاشتراكي بدفاعه عن القومية الفرنسية بعد ان اصبحت هذه القومية قومية امبريالية . بالطبع لم يكن جوريس قومياً بمعنى nationalist اذ انه حاول ان يمزج الفكر الاشتراكي الانساني بالتفكير الوطني بمعنى patriotisme لكنه بهذا برر الامبريالية الفرنسية ودافع عنها وان كان ذلك بشكل غير مباشر ، ودون وعي منه بنتائج عمله » . (ص ١١٢ – ١١٣) .

انا اوافق الاخ بسام ، هذه المرّة . لم اخالف جوهرياً هذا الرأي . « ما زلتُ اعتقد .. » . هذا الاعتقاد اقرب الى الصواب والعقل من الاعتقاد السابق ، من الجملة المتكررة والمجحفة . « جوريس سمم الفكر الاشتراكي » . اعتراضي كان على قول الاخ بسام ان « جوريس سمم الفكر الماركسي » وانه « دافع دائماً عن افكار تحت اسم الماركسية » . وكما يقول الاخ بسام « جوريس لم يكن قوميا بمعنى nationalist » ... بينه وبين الموقف القومي nationalist مسافة غير صغيرة .

واكرر ما قلته : جوريس، التحريفي اليميني القاصر في موضوع الاممية لانه يميني وغير ماركسي، جامع الوطنية والانسانية، سقط في عام ١٩١٤ شهيد قناعاته الانسانية شهيد عدائه لحرب الاوطان الامبريالية. وانا الماركسي، الذي اعارض التحريفية حتى في شكلها الجوريسي المثالي و «الاخلاقي» ، لا اخجل من شهادة هذا التحريفي الدامية ، ولا من مواقفه الصحيحة في هذه القضية او تلك ، ولا اشرشح « اطروحات » له تستحق غير الشرشحة ... جوريس له مآثره . وغير الماركسي البروليتاري الذي خان في ١٩١٤ الماركسية والبروليتاريا له قبل ذلك مآثره الهائلة . والرحمة للأموات والاحياء .

(١٢) « القضية القومية في يومنا هذا » . هل اختفت المسألة القومية من الغرب المتقدم ؟ مرة أخرى حول الطبقة والامة .

وينتقل الزميل الى الزمن الحاضر : « تبقى مسألة اخيرة وهي القضيـــة القومية في يومنا هذا . في الدول الصناعية المتقدمة لا يوجد شيء في ايامنا هذه اسمـــه المسألة القومية ، وكلمة « قومي » في اوروبا وامريكا ترادف كلمة « رجعي » ويميني . ونرى الكاتب الماركسي الالماني هانس ماغنوس انتسنز برغر يتحدث « عن الصعوبة كيف يكون الانسان المانياً » (١٢) . لكن الامر في العالم الثالث يختلف كثيراً . هنا تلعب المسألة القومية دوراً رئيسياً ، فشعوب العالم الثالث لم تصل بعد لمرحلة «تكوين الامة» بالمعنى التحرّري التقدمي (١٣)»

اولاً : ان « يومنا هذا » هو عصر الامبريالية وعصر لينين . في عصر لينين في ١٩٦٩ و ١٩٨٠ كما في ١٩١٦ و ١٩٢٣ ، عـــبر ١٩٣٩ – ١٩٤٥ ، المسألة القومية قائمة في كل مكان بما في ذلك الدول الصناعية المتقدمة ايضاً . يمكن ان تكون موجودة في اي مكان . ان عصر الامبريالية لم يلغ المسألة القوميـــة . بالعكس ، اعطاها ابعاداً جغرافية وتاريخية جديدة ، ربطها بالامبريالية كمقدة تناقضات وبالثورة الاشتراكية المناهضة للامبريالية . اعطاها معاني جديـــدة .

انها موجودة الآن في بلدان الغرب الرأسمالي المتقدم بأشكال وانواع شتى .

في بلجيكا مسألة اللغتين . في اسبانيا ، مسألة الأمة الكاتالانية ، والباسك . في كنـــدا ، مشكلة الكنديين الفرنسيين . في الولايات المتحـــدة مسألة الزنوج الاميركان . في فرنسا ، مسألة البرتون . في بريطانيا ، مسألة الغايل ... بين بلدان اوروبا الغربية والامبريالية الاميركية ، مسألة التغلغل والتسلّط الاميركي. إن هذه المسألة الأخيرة مثلاً ليست من نوع ما كان يسمى في ١٨٤٨ أو في ١٩٠٠ « مسألة قومية » . ولكن إحدى مزايا منهج لينين انه وسّع « المسألة القومية » ، كشف وأكّد شموليتها. الرأسمالية عالمية أي أنها تتخطى الاطار القومي الى اطار متعدد الأمم ، وتتضمن لامساواة الأمم ، استغلالها بعضاً لبعض ، امكانيـــة استغلال بلد صناعي لبلد صناعي آخر ، الـــخ . ولهذا السبب ، ليس من ثورة اجتماعية خالصة . مفهوم الطبقات لا يستنفد واقع الانقسام والصراع . هناك استغلال واضطهاد طبقة لطبقة داخل الامة الواحدة وداخل العالم . وهنـــاك استغلال واضطهاد أمة لأمة داخل العالم ، وأحياناً داخل البلد الواحد اذا كان في البلد الواحد أكثر من أمة واحدة ، واستغلال اقليم لإقليم وطائفة لطائفـــة وعرق لعرق الخ الخ . العالم ، الواقع ، متنوع تنوعاً لا حد له . الماركسية — اللينينية تحدد ، تصنّف ، تؤكد الحدود والانقسامات الاساسية ، وتستكشف كل الباقي ، وتمسك « التدرّجات » و « الانتقالات » ...

المسألة القومية متنوعة . احتمالاتها متنوعة رجعية وتقدّمية . حركة البرتون أداة تشويش ضد الامة الفرنسية ، يمكن ان تكون الصهيونية وراءها . قضيـــة الباسك والكاتالان يمكن أن تلعب دوراً ثورياً ، يمكن ان تكون رافـــداً في الثورة الاسبانية ضد فرانكو وخلفائه . حركة الزنوج الاميركان حركة تقدمية وثورية ...

وثانياً : « شعوب العالم الثالث » نضالها الحاضر موجه بالدرجة الاولى ضـــد الامبريالية ، ضد الاستغلال والاضطهاد الامبرياليين . ونضالها ضد الرأسمالية الكومبرادورية والاقطاعية والبرجوازية وعملاء وأعوان الامبرياليين ، يرتبط بالنضال ضد الامبريالية ، ويتخذ مكانه في اطار النضال الكبير كجزء منه ،

وكتشخيص عياني له . « المسألة القومية والكولونيالية » – التعبير الذي صاغه الكومنترن اللينيني – « لا تزال » هي المسألة الرئيسية بالنسبة لغالبية شعوب الشرق . أما « تكوين الأمة » فتعبير صحيح تماماً بالنسبة لعدد كبير من شعوب « العالم الثالث » . ولكنه ليس صحيحاً كتعبير إلا بشكل جزئي بالنسبة لبعض الآخرين . بالنسبة للعرب ، الأمة « مكونة » جوهرياً ، وقديمة . « إكمال التكوّن » جزء من مهمة القضاء على الامبريالية وبنى التخلف . والقسم الأكبر من هذا العمل كله ، فيما يتصل بالأمة ليس تكوينها بل توحيدها السياسي والاقتصادي . العرب والهنود والزنوج الافريقيون والصينيون والفيتناميون والاميركيون – اللاتين ليسوا في موقع تاريخي واحد أمام مسألة « تكوين الأمة » . هذا ما فهمه ماوتسي تونغ وهوشي منه منذ ثلاثين أو أربعين سنة .

وأريد هنا أن أعود مرة أخرى إلى بعض صيغ الزميل طيبي الواردة في مقاله المنشور في عدد نوفمبر ١٩٦٨ .

يقول الزميل في معرض إبرازه وشرحه لآثار الماركسيين النمسويين :

« وحسب هذه التفسيرات الرائعة يعرف الماركسي النمسوي باور القضية القومية على انها « صراع طبقي بين الامم الحاكمة والامم المحكومة » . ولاول مرة تصاغ هنا وبشكل منهجي نظرية الصراع الطبقي الدولي كما نعرفها في أيامنا هذه كصراع طبقي بين الدول الامبريالية وشعوب العالم الثالث » (ص ٤٢، الاسطر ٦ – ١٠). و «خلاصة نظرية باور هي «ان القضية القومية ليست إلا قضية استيقاظ الشعوب اللاتاريخية» ... وإن الوعي القومي لهذه الشعوب ، هكذا يقول باور ، ليس الا وعي طبقي وان « الكراهية القومية هي نوع من الكراهية تختبىء فيه الكراهية الطبقية » . (ص ٤٢ ؛ الاسطر ١٤ – ١٥ و ١٨ – ١٩) .

ولا ريب أن في صيغ أوتو باور من الصواب التاريخي والعمق الاقتصادي ما لا نجده في بعض صيغ ستالين النظرية وبشكل أدق ستالين ١٩١٣ . واذا كنت لا أعرف المضمون الكامل لصيغ باور الاطار أو السياق الذي تأتي فيه هذه الصيغ ، الا انني نوّهت وأريد أن أنوّه بأنني أشعر أن الاخ بسام ينزلق في هذا المقطع (بواسطة هذا المقطع) وفي مقاطع أخرى من مقاله ، نحو الغاء مفهوم « الامم » باسم ما يسميه هنا « نظريـــة الصراع الطبقي الدولي » ، « الصراع الطبقي بين الدول الامبريالية وشعوب العالم الثالث » اللاقومي . (لا ننسى أن ماكس آدلر « أحد كبار منظري الماركسية النمسوية » هو صاحب « النظرية الماركسية القائلة أن مفهوم « الامة » كمصطلح سوسيولوجي لا وجود له في الحقيقة » ، لان « الامة تتألف من طبقات متعددة متعارضة » ، كما يقول الزميل طيبي) .

وأعتقد ان صيغ اوتو باور تتضمن شيئاً كبيراً من الصواب ، تتفق فيه مع عـــدد من أفكار ماركس وانجلز ولينين وأفضل خلفائه . الا انها تنطوي خصوصاً في مرآة الزميل طيبي على اتجاه واضح نحو العدمية القومية ، نحو الغاء مفهوم الامـــة ، بتحويل الامم الداخلة في الانتاج العالمي الواحـــد الرأسمالي الامبريالي الى « طبقات » . هناك ما يبرر جزئياً هذا التحويل في تعريف لينين للطبقة شريطة ان يستبقي هذا التحويل – جدلياً – مفهوم «الامة» الماركسي كمفهوم سوسيولوجي واقعي تماماً : بتعبير آخر ، اضفاء صفة « الطبقة » نسبياً على الامة دون الغاء صفة الامة !

يقول لينين : « تسمى طبقات جماعات كبيرة من الناس ، تتمايز بالموقـــع الذي تشغله في نظام محدد تاريخياً من الانتاج الاجتماعي ، وبعلاقتها (التي غالباً ما يثبتها ويكرسها القانون) مع وسائل الانتاج ، ودورها في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وبالتالي بوسائل حصولها على القسط الذي تتمتع به مـــن الثروات الاجتماعية وحجم هذا القسط » .

المجتمع – العبودي ، الاقطاعي ، البرجوازي – يتألف من طبقات– أسياد وعبيد وآخرون ، نبلاء اقطاعيون وفلاحون اقنان وآخرون ، برجوازيون وبروليتاريون وآخرون - . هذه هي عيانياً الطبقات في كل قطر ، في كل مجتمع في كل « أمة » ، الطبقات داخل وحدة الانتاج القطرية ، القومية . تلك هي الحال حتى الآن . (وتبقى جزئياً في المجتمع الاشتراكي – عمال ، فلاحون كولخوزيون ، الخ –) . « الاقطار » ، « الشعوب » ، « الامم » ، المتنوعة ، هي منذ زمن غير قصير (واذا شئتم منذ آلاف السنين) ، توزع آخر للبشر على سطح المعمورة ، توزع شاقولي ان صح التعبير (بحدود شاقولية) – على اساس اللغة ، الارض ، اي القطر ، الانتاج ، من أجل الانتاج – : العرب ، الفرس ، الصينيون ، الهنود ، المصريون ، اليونان ، الرومان ، والفرنسيون ، الاسبان ، الطليان ، الهولنديون ، الالمان ، اي الامم الحديثة التي عرفت مسير تكوّن طويل برجوازي .

ولكن، في زمن الرأسمالية– باعتبارها نظاماً اوروبياً عالمياً منذ البداية – وبالأحرى في زمن الامبريالية ، تدخل الاقطار ، الشعوب ، الأمم (القديمة والحديثة) ، في علاقات داخل نظام الانتاج العالمي الواحد ، الصائر واحداً اكثر فأكثر . وتحتل الامم مواقع مختلفة في نظام الانتاج الاجتماعي العالمي الواحد، المحدد تاريخياً،وتنال اقساطاً مختلفة من الناتج العالمي والدخل العالمي. هناك امم مستغِلة وامم مستغَلة . توزّع البشرية التقليدي القديم الى اقطار ، الى امم ، يصبح انقساماً الى اقطار ، الى امم ، داخل الانتاج العالمي الواحد ، داخل العالم الواحد، داخل المجتمع العالمي الواحد. هذا جوهر – احدى النقاط الجوهرية – في نظرية لينين عن الامبريالية وتناقضاتها : تناقضات الامم الامبريالية ، وتناقضات الامم الامبريالية والامم المستغَلة والمضطهَدة . وهذا الفهم يسند اطروحة لينين: ليس من ثورة اجتماعية خالصة (الرأسمالية تتخطى الإطار القومي ، الرأسمالية دولية مختلطة قومياً) واطروحاته اللاحقة التي تعرف الثورة الاشتراكية العالمية (١٩١٩)، وتأكيده ضد كاوتسكي على الانشقاق الجوهري النهائي داخل حركة العمال الاوروبية بين التيار الثوري والتيار

الانتهازي (١٩١٦) ، ونظرية الثورة الاشتراكية العالمية البادئة في بلد واحد (ضد تروتسكي) .

ومن الممكن القول أن توزع البشر إلى « امم » يتخذ ، هكذا وبهذا المعنى ، صفة طبقية . والمصطلح العربي — الطبقات ، كطبقات العمارة ، فوق وتحت — يوحي بهذا المعنى . الامم الامبريالية فوق ، والامم المستعمَرة والتابعة والمضطهَدة تحت داخل بناء العالم الموحّد . كما ان البرجوازية فوق والبروليتاريا تحت داخل بناء الأمة الواحدة ، بتعبير آخر ، التوزع الشاقولي السابق والحاضر يصبح توزعاً أفقياً ايضاً .

ولكن الامة التي فوق ، تبقى منقسمة إلى طبقات ، إلى طبقات مستغِلة ومستغَلة داخل الامة . والامة التي تحت ، تبقى وتصبح أكثر من ذي قبل وبشكل جديد حديث وعصري منقسمة إلى طبقات مستغِلة ومستغَلة داخل الامة .

« العالم » لا يلغي « الامم » — أي الامم المنقسمة داخلياً الى طبقات — على مذبح « العالمية الطبقية » أو ما يسميه الزميل طيبي « الصراع الطبقي الدولي» . بالعكس : « الامم » تبقىَ وتشتد لأنها اصبحت جزءاً من « العالم » ولانها منقسمة اكثر من قبلُ الى طبقات (الأمم الشرقية التابعة تكتسب نوعاً ما وجزئياً طابع الامة الحديثة البرجوازية) . فإذا اردنا الحرص على حقيقة الواقع ،علينا أن نستبقي تماماً مفهومي الطبقة والامة الماركسيين الكلاسيكيين ، لا ان نذبح الثاني على مذبح مفهوم « الصراع الطبقي الدولي » او « الاستغلال الطبقي العالمي » الملتبس ! بدلاً من القول « طبقية عالمية » (عبارة ملتبسة وخاطئة : فالعالم = علاقات الأمم) ، نقول استغلال قومي على نطاق العالم ، استغلال امم لأمم داخل العالم الواحد . مفهوم « الطبقة » في الماركسية كما تظهر منذ ١٨٤٨ لا يستنفد ابداً مفهوم الاستغلال : الاستغلال قائم بين الطبقات

داخل « نموذج » الأمة البرجوازي ، وهو قائم بين الاقطار ، و الامم ، والاقاليم ، والمدينة والريف ، والاشخاص...هذا في بديهيات الماركسية ، منذ البداية .

ان قوة نباهة لينين المعرفية تتجلى في كون لينين يمسك بمفهوم الطبقة ، ويمسك اكثر من ذي قبل بمفهوم الامة ، في العصر الجديد ، الامبريالي . ويفهم العالمية على هذا الأساس . لينين يمسك بالمقولات الماركسية كلها ، يتقدم في بلورتها وتحديدها ، كشرط للباقي ، وبفضلها يتقدم تقدماً مفتوحاً في عملية اكتشاف « التدرجات » ، الانتقالات ، الحلقات الوسطى ، والمختلطة ، واكتشاف الروابط بين المقولات المختلفة . لينين يتمسك بمقولتي البرجوازية والبروليتاريا ويتلمّس ويحدّد واقع المجتمع الروسي (والعالم) . هناك برجوازية وبروليتاريا . وحرفيون وفلاحون وكبار ملاك ، ومراتب الفلاحين. وهناك عمال – حرفيون ، وعمال – فلاحون، وعمال – متبرجزون الخ . ويتمسّك لينين بمقولة الامة الماركسية الكلاسيكية (الامة العصرية البرجوازية ، المكوّنة على أساس اللغة المشتركة والارض المشتركة والانتاج الرأسمالي الواحد) ، دون أن يؤقلمها . ليست « الامة » و « اللا أمة » نهاية المطاف في التعريف الماركسي بالواقع القومي المتنوع للبشرية . هناك حالات وتدرّجات واختلاطات لا حدّ لها : الامم الغربية ، الصين، فيتنام ، الهند ، العرب ، الافريقيون الزنوج ، الاميركيون اللاتين ، امم وقوميات وشعوب وقبائل الدولة الروسية (ثم السوفياتية) المتعددة القوميات ... والسير قدماً في تحديد المقولات وانشاء مقولات جديدة في ضوء القديمة ، يشترط التمسّك بهذه المقولات الماركسية القديمة كاملة . وهذا التمسّك شرط لاكتشاف الروابط الهائلة التي قامت في عصرنا الرأسمالي والامبريالي والاشتراكي بين المقولات في الواقع ، بين « الطبقات » و « الامم » ، بين هذين الاستغلالين الرئيسيين ، داخل العالمية، لان اكتشاف الروابط بين موجودات الواقع، وبين الاستغلالين وبين الطبقات والامم ، ليس تخليط هذه الموجودات أو تبسيطها الخطر في

« نظرية الصراع الطبقي الدولي » الفقيرة والملتبسة .

واني اعتقد ان الزميل طيبي انزلق في هذا المنزلق، وهذه احدى أهم نقائص منهجه وأفكاره .

ومنطق الأخ بسام مفهوم ، وواضح ، يتلخّص (دونما اجحاف) فيما يلي :

١ – فهو يرفض « الأمة » ، « القومية » . (ويرفض القومية الألمانية البرجوازية وينسى الدور التقدمي للقومية في تاريخ الغرب البرجوازي ...) . هذا من جهة .

٢ – ومن جهة ثانية : هو حريص على العالم الثالث ونضاله ضد الإمبريالية الغربية ، حرصاً مطلقاً . وحريص على مفهوم وحدة الانتاج العالمي .

٣ – « نظرية الصراع الطبقي الدولي» توفّق بين ١ و ٢ ، تجمعهما. افكار باور وآدلر تسند ١ و ٢ و ٣ .

على طريق هذا الاستدلال ، وكأحد مضامين هذا المنطق أو احدى نتائجه اقامة تعارض مطلق بين نضال شعوب العالم الثالث المضطهدة والحركة القومية التاريخية في الغرب . ويحتفظ الأخ بسام بماركس وايرلندة ، وينسى ماركس والوحدة الالمانية واشياء أخرى . ويبحث (منذ عام أو اكثر) في كتاباتي ما يبرّر هذا المنطق . يصرف ، بالتي هي أحسن ، ما لا يبرره ، ما يعارضه . ويحذّرني بطريقة ما ، غير مباشرة ، باسم ما يبرره (ظاهراً) ، مما يعارضه . يتخطّاني ، في هذا الاتجاه ، مع قصف من الثناء عليّ .

ينقل عني الأخ بسام الفكرة الآتية : « وكما يقول الرفيق مرقص فان « المسألة القومية ... هي اليوم أهم بكثير مما كانت في عصر ماركس . انها قضية صراع شعوب القارات الثلاث ، ضد الامبريالية . وهذا المعنى ليس لهصلة كبيرة ومباشرة بما كان يسمى في عصر ماركس وعصر الأممية الثانية « المسألة القومية » أو « مسألة القوميات » . بل هو صلب نظرية ماركس ، عن صراع

ووحدة قوى الانتاج وعلاقات الانتاج وصلب نظرية لينين عن الامبريالية » [1]
(عدد نوفمبر ١٩٦٨ ، ص ٥١) .

هذا القول الذي نقله الأخ بسام عن دراستي « لمسألة القوميات في الاتحاد السوفياتي» (« دراسات عربية » الاعداد ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، العدد ٨ سنة ١٩٦٥ ، ص ٥٤) أخشى أن يكون قد التبس على الأخ بسام. لعله أمسك بقوة بالشطر الاوسط منه . ونسي الجملة الاولى والجملة الأخيرة .

لقد حرصت في سلسلتي المذكورة على أن أعنون الموضوع «مسألة القوميات في الاتحاد السوفياتي » (كان يمكن أن أقول «المسألة القومية» ، ولكنني فضلت « مسألة القوميات ») . هذا كان موضوع الأبحاث ، حصراً . ولكن خشية ان ينساق القارىء الى التصور بأن هذه المسألة — « مسألة القوميات في الاتحاد السوفياتي » — هي نموذج المسألة القومية كلها في عالم اليوم ، عالم الامبريالية ولينين ، لا سيما وان المدرسة الماركسية التقليدية (الستالينية المحلية في سوريا والعراق والجزائر...) ذهبت في هذا الاتجاه الذي ينسى موضوع « الامبريالية والمسألة القومية » العالمي أي جوهر واساس اللينينية ، فقد حرصت في خاتمة الدراسة المسلسلة ، على أن أخرج جزئياً عن موضوع البحث ، لأثبت هذا الجوهر والأساس . ومن الواضح انني ، اذ فعلت ذلك ، وفي هذا القول ذاته الذي أثنى عليه الرفيق طيبي ، لم اذهب باتجاه الغاء « مفهوم الامة » ، او تذويب « المسألة القومية » في شيء ما من نوع « الصراع الطبقي الدولي ». بل

---

١ — ويعلق الاخ بسام : « وهنا نرى كيف أن الرفيق مرقص يتمسك بالعصب الحيوي للماركسية . فهو يوافق مثلنا على صحة تحليلات ماركس ... فتحليلات ماركس مثلاً للقومية الألمانية ... » ثم : هجوم عنيف على القومية الألمانية باسم ماركس . وهجوم على الستالينية المحلية التي لم تميز بين القومية الألمانية وثورات العالم الثالث ، ودور كتابات الرفيق مرقص في هذا التمييز ، و « ربما هذا هو سر كره الستالينيين لمرقص » . (ص ٥١ — ٥٢) . في هذا كله ، صواب ومعه خطأ .

العكس . أكدت الأممية الهائلة العالمية للمسألة القومية في العصر الجديد ، وأسميتها المسألة القومية بدون مزدوجين . وإشارتي الوسطى إلى عصر ماركس (وعصر الأممية الثانية) غرضها أن تبرز بالتقابل الاطار الضيق الاوروبي لهذه المسألة في عصر ماركس ، وعدم ارتكازها في ذلك العصر على الامبريالية وواقعها وهيكلها الاقتصادي العالمي الاساسي [1] . غير ان الأخ بسام ، على ما يبدو ، قد تجاوز في مقالاته الأخيرة مواقفي ونصوصي (والنص الذي نقله بأمانة) ، تجاوزها نحو تذويب « المسألة القومية » في عصرنا ، آخذاً بما أسماه « نظرية الصراع الطبقي الدولي » . ومن واجبي أن أكرر مرة أخرى أن مؤلفاتي كلها لم تترك اي التباس . أبدأ دائماً ، في فهمي النظري وتشخيصي لواقع العالم ، من « الامبريالية » ولكني أتبعها دائماً بـ « المسألة القومية » و بـ « الثورة الديمقراطية » (مع تأكيد مبدأ ونظرية التحول ، تحول الثورة الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية في زمن الامبريالية وثورة اوكتوبر ، وعلى أساس المسألة القومية وأبعادها التاريخية والستراتيجية) . وفي الفصل الخامس

---

١ – عصر ماركس عصر الثورة الديمقراطية **الاوروبية** ، وماركس مع الألمان ضد الروس والتشيك . عصر لينين عصر الثورة الاشتراكية **العالمية** المناهضة للامبريالية : ولينين مع « الشرق » «ضد الغرب» .

ولم ألق في يوم من الأيام أية «شبهة» على ستراتيجية ماركس وانجلز . نقلتها دائماً بأمانة وأيدتها كلياً ونشرتها باصرار (الألمان ، التشيك ، الروس ، الثورة الديمقراطية ، الوحدة الألمانية) .

أما بخصوص خطأ الستالينيين المحليين ، فان « سرّ كرهم » لي ليس فقط دوري في التمييز الجوهري بين القومية العربية ونضال الشرق الراهن وبين تاريخ القومية في أوروبا ، بل هو أيضاً توضيحي لمخالفتهم الكاملة لستراتيجية ماركس وإنجلز ، جهلهم بماركس وانجلز ، وللمسألة القومية في الماركسية ، طيلة قرن وربع. وقد أوضحت ذلك أيضاً في أحد مؤلفاتي (موضوعات إلى مؤتمر اشتراكي عربي ، ١٩٦٣) .

من مؤلفي « الماركسية في عصرنا » (١٩٦٥) المخصص للمسألة القومية ، أسميت المسألة القومية « المسألة القومية » ، دون مواربة ، وكرّست الفقرة الثالثة الطويلة لـ « الثورة القومية المعاصرة » . وبالطبع ، كان ممكناً أن أسميها « المسألة القومية والكولونيالية » و « الثورة القومية والكولونيالية » — او حتى « الثورة الكولونيالية » فقط (أي ثورة المستعمرات) ما دام هذا هو موضوع الفقرة» — ، وهي تعابير صحيحة اعتمدها الكومنترن اللينيني (اعتمد اصطلاح « المسألة القومية والكولونيالية ») . ولكني أمام سيل الكتابات التروتسكية وشبيهاتها في العالم ، وفي محاولة مني لمنع انزلاق شبابنا « القوميين » السابقين من أحزاب شتى إلى « الطبقية » الخالصة «العالمية» اللا قومية كتعويض منهم عن خطأ الماضي بخطأ الحاضر والمستقبل ، فضلتُ اعتماد تعبير « الثورة القومية » (في العنوان على الاقل) . وكانت محاولتي بلا جدوى . بعد عام أو عامين ، كان واضحاً أن التعويض « الطبقي » ضارب أطنابه في شكل « الاقتصادية الامبريالية » القديمة المرتكزة على جهل كبير ومعلومات قليلة ومبعثرة التي « تكمّلها » شتات أفكار وعناوين مأخوذة من « التروتسكية » و « الفانونية » و « العالم ثالثية » و « الفيفارية » و « الصينية » .

وصحيح انني لم أركّز على المسألة القومية في اوروبا عصر الامبريالية ، ولكن هذا الجانب لم يغب من مؤلفاتي . انه واضح في تطرقي لموضوع الحرب العالمية الثانية وقضية ستالين ودور شيوعيي اوروبا في « المقاومة » . ولم أقل في يوم من الايام ان المسألة القومية اختفت من اوروبا في زمن الامبريالية وثورة اوكتوبر والحرب العالمية ضد الفاشية .

ومما لا ريب فيه أن نيفاً وتسعة أعشار المسألة القومية بكل معانيها ومضامينها العالمية والتاريخية هي اليوم في مشكلة «العالم الثالث» والامبريالية . هكذا تبدو الأمور في زمن ما بعد الحرب العالمية الثانية وامتداد رقعة الاشتراكية في العالم والتفاف الامبريالية حول الزعامة الأميركية . ومما لا ريب

فيه ان اطروحات لينين عن الشرق ، عن « روسيا ، الهند ، الصين ، الـخ » ، « الشرق الثوري والقومي » ، تأخذ الآن أكبر معانيها . ولكن هذا لا يعني ان المسألة القومية اختفت نهائياً من الغرب ... ولا يعني أنـــه يكفي أن يصرخ « المناضل»: شرق، شرق،عالم ثالث ، عالم ثالث ،فلاحين، فلاحين، حتى يكون لينينياً . خصوصاً إذا أضاف الى هذا الصراخ : يسار ، يسار ، يسار ، طبـق طبقا ، طبقوا ، ثورة دائمة ، تحوّل ، الى الامام ، الى الامام ، (واذا « اضاف» بعملية + « أمة عربية » ، « أمة عربية » ، « وحـدة عربية ») . اللينينية ، من فضلهم، شيء آخر. اللينينية هي اولاً نقيض الكسل،ونقيض الديماغوجية. وكما قال ماركس الشاب الناضج لفايتلنغ : « الجهل لم يساعد احداً في يوم مـن الايام»، من الإجرام أن نقود الجمهور بعملية تهييج واشعال. الجمهور لا «يمشي» . ونحـــن نرى اليوم إن الجمهور لا « يمشي » . بعضه القليل القليل ، بفضلهم ، يتخبّط . والغالبية تنتظر وتتربص ، وتتوجـــه بأحاسيسها وأفكارها نحو المعركة القومية .

هذا ما اقوله ، في ضوء قول الزميل طيبي عن المسألة القومية « في ايامنـــا هذه » ، وفي ضوء تحليله السابق . أمـــا شعوب هانس ماغنوس انتسزبرغر « بصعوبة كيف يكون الانسان المانياً » الذي افصح عنه الماركسي الالماني في كتابه « المانيا ، المانيا ، تحت ظل الآخرين » ، فقد لا يكون شعور ملايين الالمان الذين يعيشون في شرقي نهر الب . ولكنه أحياناً شعوري و « العرب ، العرب ، تحت ظل الآخرين ، تحت ظل الامبريالية والصهيونية » ، والطبقية ، الطبقية ، تظلّل بظلالها جمهوراً من المثقفين البرجوازيين الصغار الماركسيين المستحدثين الكسولين .

(١٣) هل « أرفض الايديولوجيا القومية رفضاً باتاً » ؟ كيف نؤيد الوحدة العربية « دون تحفظ » ؟ « التقليل والمبالغة في أهمية القضية القوميـــة»؟ .

« ولقد تطرقت هنا الى فانون والى الترجمة العربية لكتابه لابيّن موقفي من القومية . اني أرفض الايديولوجيا القومية رفضاً باتاً . وانا من انصار الوحدة العربية القومية دون تحفّظ ولا أجـــد في كلا الموقفين اي تناقض . فالمسألة القومية بالنسبة للشعوب العربية مسألة حيوية في نضالها ضد الامبريالية . أي انني ضد التقليل من اهميـــة القضية القومية من قبل بعض الماركسيين العرب امثال فواز طرابلسي ، ولكنني في نفس الوقت ضد المبالغة في اهمية القضية القومية كما يفعل الياس مرقص في كتاباته » (ص ١١٤) .

اولاً : « انني ارفض الايديولوجيا القومية رفضاً باتاً » .

في الصفحة السابقة (السطر ١٣) بمناسبة فانون ومترجميه السوريين ، أعلمنا الزميـــل طيبي انه يصطلح الايديولوجيا القومية كمرادف لكلمـــة nationalisme[1] ، اي النزعة القومية (بمـــا فيها من تعصب قومي وضيق

---

١ ــ وأعلمنا في السطر ٢١ أنه يصطلح كمرادف لها : « القوميّة » ، بينما اصطلح المترجمان السوريان « التعصب القومي » .

قومي في جميع الحالات) . وبالطبع ، لا اعترض هنا على اصطلاح الزميل . هذا حقه . انه يقول احياناً « الايديولوجيا القومية » ، واحياناً « القومية » (السطر ٢١) ، ويقول المترجمان السوريان « التعصب القومي » . المسألة واسعة وغنية ، ومفهومة .

شخصياً، اني لا «ارفض» الايديولوجيا الخ. وانما انقد وأفند (والايديولوجيا هي الافكار، مجموعة الافكار) . هذا ما فعلته في كتاب «نقد الفكر القومي»، الذي ثمنه الرفيق طيبي عالياً . فندت « الفكر القومي » ، أي عرضته في كل معطياته ، وأسسه ، ونظرته الى التاريخ ، والى الواقع العربي ومستقبله، كشفت الاوهام ، الاشباح ، الاقنمة ، الطابع الايديولوجي الزائف لهذا الفكر، وعجزه عن انارة الطريق الى الهدف الذي اعلنه ونعلنه : الوحدة العربية . وبتعبير آخر : ابقيت هذا العنصر الثمين في الفكر القومي : الوحدة العربية ، الامة العربية ، ووضعته على ركيزة الماركسية – اللينينية (الامبريالية ، تمييز الشرق والغرب ، والعرب واوروبا ، الاقتصاد الامبريالي ، علاقات الانتاج، الطبقات وصراعها ..) بما يتعارض كلياً مع منهج هذا الفكر القومي ، ومع منهج « الماركسية » الدارجة في بلادنا والتي تتعارض في الاساس والجوهر والافكار والنهاجية مع ماركسية ماركس وانجلز ولينين .

أبقيت اذن عنصراً اعتبرته ثميناً وعظيماً في الفكر القومي العربي والنزعة القومية العربية : الوحدة العربية ، الأمة العربية . بتعبير آخر : لم « أرفض » وانما فندت ، ولم ارفض رفضاً باتاً . حين أقرأ قول ساطع الحصري : العرب لهم لغة واحدة ، اذن فهم أمة واحدة ، اذن يجب أن يتحدوا في دولة واحدة، فاني اعتبر هذا القول ساذجاً وعاجزاً عن تحقيق الوحدة المنشودة (وقد بينت ان عرب اليوم غير المانيا القرن التاسع عشر : في المانيا تلك وحتى ١٨٧٠ ، ظل هذا المنطق « الساذج » والمتخذ مدلولات رجعية كثيرة قوة فاعلة تساعد على تحقيق الوحدة ، على تحقيق هذا التقدم الكبير) ! . ولكن حين قرأ

أطروحات الأخ بسام « مفهوم « الامة » مصطلح سوسيولوجي لا وجود له في الحقيقة » ، « الوحدة العربية .. ليست وحدة « الامة العربية » بل.. » ، فانني لا أعتبر هذه الأطروحات ساذجة الخ بل اعتبرها خاطئة ومغلوطة . أردد هذه النقطة من حواري السابق ، لأنها تلقي ضوءاً على اطروحة « ارفض الايديولوجيا القومية رفضاً باتاً » عند الاخ بسام ، وعلى موقفي منهـــا . أنا ايضـاً ارفض الايديولوجيا القومية رفضاً أكثر من باتّ ، باستثناء فكرة الامة . إذا قصدنـا بالايديولوجيا مجموعة الافكار الزائفة الوهمية الشبحية ، فاني ارفض رفضـاً باتاً . ولكن اذا قصدنا بالايديولوجيا مجموعة الافكار ، بما فيها الزائف الواهم ، والصحيح المزيّف ، فانني استبقي واعدّل الشطر الثاني ، واستبقيه على وجه التحديد ضد الايديولوجيا الزائفـة غير الماركسية لانصار العدميـة القومية والكوسموبوليتية « الثورية » من « الماركسيين » .

وما دام الزميل يرفض الايديولوجيا القومية رفضاً باتاً ، فلا بأس ان نذكّره بما كتبه في مقاله المنشور في عدد نوفمبر ١٩٦٧ من مجلة « دراسات عربية » تحت عنوان « اطروحات حول الوحدة العربية » :

« ٧ . إن البناء الفوقي النظري للوحدة العربية الاشتراكية هو الوطنيـــة والقومية العربية » (ص ١٠٣) . ثم (بعد تحطيم « ادعاء السيد فواز طرابلسي » وتأييد « الاستاذ ياسين الحافظ » والاستشهاد بماوتسي تونغ ، وقبل الوصول الى تأييد « الاستاذ مرقص » و« الرفيق مرقص ») : « إن القومية التي لا تتعارض مع الأممية تشكل الجزء الأساسي للبناء النظري الفوقي ليس فقط للحركة الوحدوية الثورية العربية ، وانما ايضاً لدى جميع الحركات الثورية في العالم الثالث . وهذه القومية معادية للامبريالية مؤمنة بالاشتراكية الأممية ، وتتناقض وتتعارض في جميع الوجوه مع القومية الامبريالية الشوفينية في غرب اوربا وامـــيركا أمّ الامبريالية » (١٠٤) .

لا اعتقد ان الرفيق مرقـــص قال ذات مرة ان القومية حتى تلك التي لا

تتعارض مع الأممية الخ « تشكل الجزء الأساسي للبناء النظري الفـوقي الخ » . تلك صيغ خاطئة . ليس من « قومية » الا وتتعارض ولو بنسبة واحد بالمئة أو واحد بالالف مع الاممية الخ . وعلى أي حال ، هذه القومية لا تتعـارض (إلا بنسبة ١ ٪) لا يمكن ان تكون الجزء الأساسي للبناء النظري لأي شيء .

وأتساءل عن الطريق الذي يقود خلال أشهر قليلة (من عدد نوفمبر ١٩٦٧ الى عدد نيسان ١٩٦٨) من هذه الأطروحة — « القومية .. الجزء الاساسي..» — الى الاطروحة القائلة « الوحدة العربية .. ليست وحدة « الامة العربية » ..» والى نفي « الوجود الحقيقي » للأمة (عدد نوفمبر ١٩٦٨ ، ولكن بسام أعلمنا أنه كتبـه في أواخر ١٩٦٧ . اذا اعتبرنا ان اطروحة عـــدد نوفمبر ١٩٦٧ « القومية » كتبها بسام في صيف ١٩٦٧ ، تكون المسافة بضعة شهور : خريف ١٩٦٧) . لعل هذا الطريق هوطريق سنايدر، ديفيس ، بويد شيفر، وآخرين. ولكنه ليس طريقاً ماركسياً .

فلننظر إذن الى موضوع التقليل والمبالغة في أهمية المسألة القومية .

هل صحيح ان فواز طرابلسي يقلل ، والياس مرقص يبالغ ، وبسام طيبي بينهما يتمسّك بالموقف الصحيح الذي يعارض التقليل والمبالغة ؟

يعلم الأخ بسام ان من مآخذ تروتسكي على ستالين الساخرة (والأخ بســـام يحب تروتسكي وأسلوبه الساخر ضد ستالين) ان ستالين يعتمد هذه الصيغة ذاتها — ضد التقليـــل وضد المبالغـــة أو التزويـــد sous - estimation sur - estimation — التي تساعده على لفلفة الأمور وضرب المعارضين. حسب ستالين ، تروتسكي يقلل من أهمية المسألة الفلاحية ، وزينوفييف (في أحـــد المواقف) يبالغ ، وستالين ضد الموقفين يتمسّك بالموقف الصحيح . فلان وفلان من شيوعيي الشرق يبالغون في المسألة القومية بينما فلان وفلان يقللون الخ .

ولئن كنت مسروراً لكون الأخ بســام لا يتبع دائماً تروتسكي ، ويرضى

عند اللزوم باعتماد صيغة لستالين ، فانني لست مسروراً لكونه لا يتقدم الى ما وراء الصيغة ، لا ينفـذ الى المضمون من تحت اللفظ ، ولا يبرهن بالشواهد على ما يقول .

التقليل في تقدير شيء ما خطأ . والتزويد خطأ . بالبداهـة . ولكن هذه البداهة ، إذا وقفت عند هذا الحد ، لا تعدو كونها تكراراً توتولوجيـاً يموّه الهروب بقشرة رقيقة . فالتقليل ليس تقليلاً والتزويد ليس تزويداً إلا بالمقارنة مع المقدار الحقيقي للشيء .

إذا كان القـدر الحقيقي لشيء ما ١٠٠ واذا قلنا انه ٩٠ نكون سقطنـا في خطأ التقليل . واذا كان القدر الحقيقي ٣٠ وقلنـا انه ٤٠ نكون قد سقطنا في خطأ التزويد . واذا كان القدر الحقيقي ١ فقط وقلنا انه ١٠ نكون اقترفنـا خطيئة فاحشة في التقدير ، مبالغة هائلة (× ١٠) . واذا كان القـدر الحقيقي للشيء صفراً وقلنا انه ١ فقط ، نكون اقترفنـا مبالغة مخيفة قدرها الحسابي اللانهاية (واحد مقسم على صفر يساوي لا نهاية) .

لو كانت بعض صيغ الاخ بسام (مفهوم الامة مصطلح لا وجـود له في الحقيقة ، « الامة العربية » موضوعة بين مزدوجين ، الوحدة العربية مفهوم..) ، لو كانت هذه الصيغ صحيحـة ، لكان الياس مرقص لا يبالغ وحسب ، بل يقترف خطيئة اللانهاية على أقل من مواقفه الحالية بكثير .

أما إذا كان صحيحـاً ان ماركس في ١٨٧٠ أيد المانيا في الفـترة الاولى من الحرب ، وايد الوحدة البسماركية ، وكان الياس مرقص في كتاباته الماضية قد نقل الشطر الاول من موقف ماركس ونسي الشطر الثاني ، فان التهمة الواجب القاؤها عليه ليست المبالغـة بل التقليل ، واذا كان صحيحاً ان لينين أكـد في ١٩١٥ – ١٩٢٣ في اوروبا الغربية ايضاً ، في ايرلندة ، والمانيا صلح فرساي ، واذا كان الياس مرقص في كتاباته السابقة لم يبرز هذه « الناحية » ، فان التهمة التي تصح عليه ليست المبالغة بل التقليل .

ولكن الأخ بسام ، بدون تحديد المقدار الصحيح يقف ضد تقليل فواز طرابلسي وضد مبالغة الياس مرقص .

وهذا موقف جديد . ولا نعترض على حق الاخ بسام في أن يتبنى موقفاً جديداً ، أو ننتقص من هذا الحق البديهي . غير اننا ، بعد الاشارة إلى الموقف السابق (بسام طيبي : أطروحات حول الوحدة العربية ، عدد نوفمبر ١٩٦٧ ، ص ١٠٤ — ١٠٥ : « ادعاء السيد فواز طرابلسي » ، « الاستاذ مرقص » ، « الرفيق مرقص ») ، نتساءل عن المواقف المحدّدة الجديدة أو ربع الجديدة التي أضافها الياس مرقص في حواره مع الأخ بسام والتي يرفضها الأخ بسام : لا نجد ! لعل الأخ بسام يخطّىء تأييد وحدة ١٨٧٠ ، ولكن هذه تخطئة من بسام لماركس (وليس لمرقص، وبسام وافق على الحقيقة التي أضافها مرقص). ثم هل تخلى الأخ بسام عن أطروحتنا التي استشهد بها واعتمد عليها في مقاله السابق المنشور في عدد نوفمبر ١٩٦٨ والتي تقول : « إن المسألة القومية . . هي اليوم أهم بكثير مما كانت في عصر ماركس . . (انها) صلب نظرية ماركس عن صراع ووحدة . . وصلب نظرية لينين عن الامبريالية . . ؟» أليس في « أهم بكثير » مبالغة حسب رأي الأخ بسام الواقف بين فواز والياس ؟

وبطبيعة الحال ، ليس التقليل والمبالغة في أهمية المسألة القومية هو ألف وياء المشكلة ، مشكلة الخلاف بين فواز طرابلسي و « أمثاله من الماركسيين العرب » وبسام طيبي والياس مرقص ، وبالحقيقة بين الياس مرقص وتسعة أعشار المتحدثين بالماركسية في العالم العربي — من المدرستين القديمة والجديدة — . كلاّ ! لو كان الأمر كذلك ، لهان الأمر . الخلاف هو على الماركسية — اللينينية كلها ، على مفهوم الثورة الاشتراكية وفروعه ، وعلى المادية التاريخية والجدلية ، على « النواحي » السياسية والستراتيجية والتاريخية والنظرية ، وعلى النهاجية . بتعبير آخر : المشكلة ليست « أهمية المسألة القومية » بالدرجة الاولى (عبارة قد تنطوي على التباس ، وهي مفهومة فهماً صحيحاً لا تستوعب الموضوع ،

لا تستوعب النظرية الماركسية للمسألة القومية ذاتها) ، بل فهم المسألة القومية، مضامينها، ارتباطاتها ، صلاتها، مفاصلها ، مع كل الباقي، مع الثورة الديمقراطية، مع الثورة الاشتراكية ، مع الامبريالية ، مع المادية التاريخية ، ومع الديالكتيك المادي التاريخي لماركس ولينين .

وأحد بنود موقفي هو شمولية المسألة القومية Son Universalité : إنها في الشرق ، بين الشرق والغرب ، وهي أيضاً في الغرب . انها في عصر صعود الرأسمالية والطور البرجوازي الصاعد من التاريخ ، وفي عصر الامبريالية عشية الثورة الاشتراكية البروليتارية . انها ترتبط بالثورة الإشتراكية عن طريق مقولة الثورة الديمقراطية ، وأيضاً بدون هذا الوسيط ، مباشرة ، باعتبار اننا في عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية (« يا عمال جميع الأقطار وأيتها الأمم المضطهَدة اتحدوا ! ») ، وباعتبار ان المسألة القومية في هذا العصر تعود الى داخل الغرب المتقدم والمتقدم جداً ، بطرق وأشكال شتى . البروليتاريا تحمل الأمة على أكتافها ضد الامبريالية والامتهان الامبريالي وضد الطبقات المرتبطة بالامبريالية والمعادية للأمة ، في الشرق، وأحياناً في الغرب . ومشاكل الديمقراطية تتجدد في داخل الغرب المتقدم ، المكوّن برجوازياً وديمقراطياً وقومياً ، في هذا العصر الجديد . شمولية المسألة القومية تنبع عيانياً من عالمية الرأسمالية والامبريالية مفهومة فهماً لينينياً .

ولقد كتب الاخ بسام طيبي « انه من انصار الوحدة العربية القومية دون تحفظ » . هذا هو القاسم المشترك بيننا ويبلغ مرة أخرى قيمته الحقيقية الهائلة بعد ان عادت الى الوحدة العربية صفتها القومية .

وهو يعلم انني (والاخ ياسين الحافظ) أول من فنّد أسطورة الطريق الرأسمالي الوطني البرجوازي الديمقراطي إلى الوحدة العربية . إن وضع الأمة العربية في ظل الامبريالية واقتصادها العالمي يختلف جوهرياً عن وضع الأمم

الغربية في زمن صعود الرأسمالية . الوحدة القوميـة للعرب لا يمكن ان تأتي لا بالطريق الفرنسي البرجوازي « الاقتصادي » الصاعد (والذي كان طيلة قرون طريق البرجوازية والملك والاكليروس الواطىء وطريق حروب وصراعات متنوعة !) ولا بالطريق البروسي الالماني البسماركي . الوحدة العربية لا يمكن ان تأتي لا من التطور الموضوعي للاقتصادات العربية لأنها كولونيالية ، ولا بالطريق البسماركي . الثاني أسطورة . والأول خرافة . المدرسة « الماركسية » الستالينية المحلية جاهلة وكاذبة ، في كل أطوار تقلباتها الفكرية ، لا علاقة لها بلينين وماركس ، وعلاقتها ليست كاملة بستالين او بمارتوف او ستروفـــه . ولكنني بالمقابل ، لم أقل مرة واحدة ان الوحدة العربية ستأتي بالطريق الذي يحمله الماركسيـون الجدد والذين يسمونه الطريق « الطبقي » « البروليتاري ». هذه الاسطورة التي نفذت ايضاً بأشكال شتى الى داخل المدرسة البكداشية سابقـــاً او حاضراً (المصلّحة أو غير المصلّحة) ، ما هي إلا عداء آخر لفكرة الوحدة العربية ، يستّره أصحابه بمنطق تيار « الاقتصادية الامبريالية » ، « كاريكاتور الماركسية » ، « الطبقية » المزعومة ، التي تثرثر ضد « الامبريالية » على الطالع والنازل ، دون ان تعرف ما هي الامبريالية ، وتثرثر ضد « البرجوازية الصغيرة » ، دون ان تعرف ان اسوأ أوصاف البرجوازية — الصغيرة — الجهل ، الديماغوجيـــا ، « اليسارية » الطفولية ، ضيق الافق ، الانقلابات المفاجئة في التفكير والعواطف — تتمثل في هؤلاء الاصحاب وثرثرتهم الراهنة .

الوحدة العربية جزء من الثورة الاشتراكية العربية . وبشكل اكثر تفصيلاً ، جزء من الثورة القومية والديمقراطية والاشتراكية العربية التي تنمو وتتحول كنضال ضد الامبريالية ، طبقاً لاطروحات لينين في ١٩١٦ ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٣ . واني أقول : ليست الاشتراكية منطقياً وتاريخياً وستراتيجيـاً الشرط المسبق للوحدة ، بل الوحدة هي منطقياً وتاريخياً وستراتيجياً الشرط المسبق للاشتراكية والشيوعية . الشرط « المسبق » للوحدة هو توجيه ضربات جدية للامبرياليـة واوضاعها وعلاقاتها وطبقاتها في الأمة ، والوحدة ذاتها ضربة من هذه الضربات ،

أهم هذه الضربات . ان وحـدة ١٩٥٨ لم تأت من الاشتراكية بل ولا مما يسميه البعض « دولة الديمقراطية الوطنية » ، بل أتت من تأمـيم السويس وضربات أخرى مصرية أولاً وعربية سورية وجزائرية الخ ثانياً ، وحملت معها ضربة جديدة في العراق .

وفي كل كتاباتي ، تمسكت بمنهج الموضوعية والقوانين . ولكنني حذرت من اقنمة القوانين ، من تأليه القوانين . وحدة ١٩٥٨ لم « تفشل » نتيجة « قوانين » التاريخ « الموضوعية » ، بل حطمت تحطيماً وسُحقت من قبل الإمبريالية وابيدت ، نتيجة تخلّف الوعي ، تشوّه الوعي ، لا سيما وعي « الماركسيين » وانصاف « الماركسيين » و « التقدميين » ، لا وعي القوانين الموضوعية وحسب (وفي هـذه المرة ، اقول القوانين الموضوعية بدون مزدوجين) ، بل بشكل عياني وعي القوى والعلاقات الواقعية في الاقطار ، في المنطقة ، في العالم . الوحدة العربية ضد شيء اساسي في «الشروط الموضوعية» ضد التجزئة الآخذة في التعمق اقتصادياً ، ضد الانفصال والتباعد الجغرافي ، ولذا فانّها تتطلب مستوى عالياً جداً من الوعي (شأنها شأن الثورة الاشتراكية في روسيا المتخلفة ، وفي الصين البالغة التخلف اقتصادياً وموضوعياً) ، تتطلب وعياً كاملاً شاملاً تفصيلياً بينه وبين احلام « الفكر القومي » بحار ومحيطات ، وبينه وبين أوهام « الماركسيين » (!) العرب بحار ومحيطات .

الوحدة العربية ليست في « بداية » الطريق الطويل الشاق الدامي ، ولكنها ليست في نهايته — وبدونها سنصل الى نهاية اخرى ، إلى اسوأ نهاية . الوحدة العربية على الطريق ، بتطورات وثورات وحروب وتفاهمات وصراعات وانفجارات وتحولات مفاجئة . والقوانين الموضوعية التي ليست انتولوجيا لا زمانية ، ليست قوانين فيزياء مرفوعة الى مرتبة ميتافيزياء ، ليست لاهوتاً جديداً مادياً ، حتى اذا سمّي مادياً جدلياً وتاريخياً ، القوانين الموضوعية تضع حدوداً ، للاحتمالات ،

للطريق الممكن . داخل هذه الحـــدود ، وعلى أساسها ، الوعي والمسؤولية والماركسيون .

إن الماركسيين الحقيقيين **يؤيدون الوحدة دون تحفظ** . يعملون ، في جملة عملهم وكتتويج لعملهم ، لكي تأتي الوحدة بالطريق الافضل والشكل الأحسن ، ولكنهم يؤيدون الوحدة اذا جاءت بالطريق والشكل الآخرين ، الاقل حسناً. الماركسيون الحقيقيون لا يؤمنون بأن الوحدة يمكن ان تأتي على طبق من ذهب ، على طبق من يقظة « شعور » و « وعي » ووجدان وضمير لدى بعض أولي الامر (لو كان هذا ممكناً ، لتحقق في ليلة ما من حزيران ١٩٦٧) ، أي على طبق تفاهم بين الدول والحكومات والاحزاب الثورية أو ربع الثوريـة ، لا . والماركسيون يحذرون من لعبة الانقلابات العسكرية الوحدوية ، لا لأن الماركسيين يكرهون الانقلابات (لا يكرهونها دائماً وبالضرورة في كل زمان ومكان ، لا يكرهون ٢٣ تموز و١٤ تموز مثلاً) ولا لأن الانقلابات تخالف القوانين الموضوعية المزعومة (القوانين – الأقانيم) ، أو لان الانقلابات عكس الثورات (!؟ كلهم كل الذين يقولون هذا القول يفعلون بعكسه) ، بل لأن التحليل الماركسي للوضع العربي – الامبريالي – العالمي أقنع الماركسيين – اللينينيين العرب منذ البدايـة أي قبل « وقوع الوقائع » إن هذا الطريق ملغوم ، بسبب العدو ذاته ، بسبب وجود الامبريالية وأجهزتها ودولتها الطبيعية والمتنوّعة . وجـــاءت الوقائع لتثبت صحة هذا الفهم والتشخيص الماركسيين . الانقلابات الوحدوية فشلت دائماً حتى وهي تتمتع بتعاطف شعبي كبير. والماركسيون – اللينينيون العرب يؤكدون تحذيرهم : الطريق الانقلابي فاشل وضار ، بالغ الفشـــل والضرر . ولكن اذا « جاءت » أو تقدمت الوحدة عن هذا الطريق ، على طبق من دم أو من يقظة وجدان (تفاهم) – أي اذا خطأت الاحـداث المنظور الاساسي للماركسيين اللينينيين العرب في هذه النقطة ، واعفت الشعب العربي وماركسييه الحقيقيين من جزء ولو صغير من مشاق الطريق الهائلة – فان الماركسيين اللينينيين العرب

مؤيدون ، مؤيدون بدون تحفظ لهذه الوحدة ،للوحدة. ليس من طريق سهل. طريق الوحدة ،طريق الثورة العربية كلها ،طريق طويل وشاق ،تغطيه دماء مئات الألوف من الشهداء . ولكن الماركسيين – اللينينيين العرب مؤيدون لأية وحدة: مدروسة ، غير مدروسة ، وحدوية ، فيدرالية ، كونفدرالية ، بين قطرين أو ثلاثة أو ثلاثة ونصف الخ عسكرية، سياسية، اقتصادية، تربوية الخ ، شريطة ان تكون وحدة فعلية. الوحدة الوحيدة التي يكافحها الماركسيون اللينينيون العرب هي الوحدة غير الفعلية ،التجزئة المسماة وحدة ،الانفصال المسمى وحدة ،ويكافحونها مرتين ،وبالاصح ثلاث مرات: مرة لأنها تجزئة وانفصال ،ومرتين اثنتين لانها تسمي نفسها وحدة . الماركسيون – اللينينيون يؤيدون كل وحدة (فعلية) . لأن الوحدة العربية ضرورة ملحة تتزايد إلحاحا. ولأن كل وحدة (حقيقية) ضربة كبيرة للامبريالية وخطوة كبيرة على طريق الثورة الطويل . ولان الوحدة ، أية وحدة (حقيقية) حتى اذا كانت بسماركية (؟) تفسح مجالاً اوسع وأرحب للتقدم ، للنضال ضد الامبريالية (البترول ، اسرائيل ...) ، لصراع الطبقات، لنمو البروليتاريا ونضال البروليتاريا ، للهدف الاشتراكي . نؤيد الوحدة كل وحدة ، لأننا نسخر بالمقارنة مع هذا المستقبل النضالي ، من « الصراعات » « الطبقية » (!) و « المناهضة للامبريالية » الحاصلة اليوم في إطار الدول والدويلات ، ليس استناداً منا على تحليل لينين لعصره وحسب ، بل ايضاً على كل عمل ومواقف ماركس وانجلز في عصرهما ، ذلك العمل وتلك المواقف التي « باعها » غالبية « ماركسيي » الوطن العربي ، فضلاً عن كونهم باعوا ذلك التحليل .

(١٤) « الديماغوجية والمتاجرة » . سعدون حمادي . فريق بيرسبيكتيف . وآخرون . الفوضوية . الماركسية كنظرية للتاريخ ونظرية للثورة .

يقول الزميل : « وانا عندما أؤيد الوحدة العربية فانني أرفض ديماغوجيات الزعماء العرب حول الوحـــدة العربية وارفض المتاجرة بالوحدة العربيـــة كشعار » .

وأنا ايضاً وعلى وجه التحديد ، من بين جميع « الزعماء » العرب أفضل ذلك الذي هو أقلهم ديماغوجية ومتاجرة بالوحدة ، وفي الوقت نفسه أقلهم ديماغوجية ومتاجرة بشعارات الاشتراكيـة و « الطبقات » و « الثورة العالمية » و « ثورة العالم الثالث » و « مقارعة الامبريالية » وهلمجراً . على وجـه التحديـد ، لانني أؤمن مثل ماركس بـ « ان العواء Hurlement والعمل شيئان لا يجتمعان » . ولانني ، إذ أحرص على الوحدة العربية ، وأؤيدها دون تحفّظ ، فاني اعتقد ان الشرط الاول لوضع قطار الوحدة وقطار المستقبل كله على الطريق السليم هو القطيعة مع ديماغوجية الوحـدة والمتاجرة بالشعارات كلها . ومن هنا ، فاني اعتقد ان احدى فوائد الكارثة الرهيبة ليس انفضاح « البرجوازية ـ الصغيرة » ـ المقولة ـ الاقنوم بل القطيعة مع الديماغوجيـة ، ـ بقدر ما هناك قطيعة مع

الديماغوجية – ، لأن الزعيم المعني ، اذ قطع مع الديماغوجيـة والمتاجرة ، مع « العروبيات » و « السياسات العربيات » ، فقد وضع القضية العربية على أرض صحيحة ، أرض العمل ، وإرغام الآخرين على العمل أولاً وأخيراً ، بما فيه العمل غير المباشر والمباشر من أجل الوحدة ، من اجل الوحدة العربيـــة ، داخل الأقطار ، لأن الوحدة بين أقطار عربية ليست علاقة « فوقية » بين هـــذه الاقطار ، بل هي أيضاً علاقـة داخل كل قطر ، أي وضع كل قطر ، وضعه الحقيقي ، سياسته الفعلية ، لأن الوحدة وحدة شعوب .

« كذلك أرفض ان تكون الوحدة العربية على حساب الاشتراكية ، كما هو الأمر عليه لدى الدكتور سعدون حمادي » .

انا لا « أرفض » . أنا أبيّن الاستحالة العملية لذلك ، ضد سعدون وضـد بسام . و « شرطي » الوحيـــد لتأييد الوحدة – « دون تحفظ » – ان تكون وحدة ، حتى إذا خطـأت جزءاً او جانباً من تشخيصي المرتكز على القوانين كما أفهمها وأؤكدها ، مؤكداً بذلك ذاته وجهها الاختباري . إن خطأ سعدون حمادي شيء ، وان يقودنا خطأه إلى خطأ مضاد شيء آخر . الدكتور سعدون حمادي يفصـــل جوهرياً بين الوحدة والاشتراكية . ولكن خطأ ثلاثة أرباع خصومه انهم لا يميزون بين الشيئين بحجة عدم فصلها . خطأهم الحاسم القائل انهم يتصورون ويصورون أن الوحدة العربية القومية ستأتي في « نهاية » الطريق ، بفضل التقـــدم « الاشتراكي » للأقطار ، الصناعي والاجتماعي والسياسي ، أو بفضل نضالهم – نضـــال هؤلاء الخصوم « الماركسيين » – « الاشتراكي » و « البروليتاري » ، بفضـــل دعوتهم « لوحـدة البروليتاريا » او « الطبقات البروليتارية » . والقرائن تدل على عكس ذلك . قرائن الاقتصاد وقرائن السياسة . خطأ الآخرين انهم – بأكثرهم – « باعوا » قضـــية الوحدة . إنهم لا يؤيدون الوحدة « دون تحفظ » . بعضهم لا يؤيدها حتى بتحفظ . الوحدة لم تعد في عملهم

ووعيهم ووجدانهم وضميرهم وشعورهم [1] . خطأهم انهم يتبنون منظورات « الاقتصاديين » الروس القدامى (١٨٩٨ - ١٩٠٢) والجدد (١٩١٦) ، باسم لينين و « ما العمل ؟ » (!) . وخطأ الاخ بسام انه يخشى من «وحدة تكون على حساب الاشتراكية » !

حين قرأت دعوة سعدون حمادي التي وقعها عدد كبير من المثقفين العرب التقدميين (وبعضهم ماركسيون يؤمنون بالاشتراكية) في سوريا ولبنان والعراق الخ الخ ، ابتسمت ولم أغضب . بل كان بالامكان أن أوقع هذه الدعوة . النواب الماركسيون القلائل في المانيا ١٨٧٠ لم يصوتوا لقروض الحرب لبسمارك وأيد ماركس هذا الموقف الصحيح مع تأييده لالمانيا ضد فرنسا وللوحدة حتى البسماركية . ولكن دعوة سعدون والمثقفين إلى الوحدة ، الوحدة ، ليست دعوة بسماركيين تحمل معها الاستيلاء على الالزاس وأشياء اخرى كثمن سيىء لوحدة الامة . كان بالامكان ان اوقع. لم اوقع لاقتناعي اولاً بمخالفة النداء لبعض قناعاتي المبدئية ، النظرية والستراتيجية ، وثانياً لانني لا اريد المشاركة في ما ينطوي على جانب وهمي خيالي ننشره على الناس ، جنباً إلى جنب مع اتجاه عاطفي سليم ، ومع ردّ معقول على التبسطات « الاشتراكية » لبعض « الماركسيين و « اليساريين » .

وبعد ، حين أدخل في نقاش مع مثل هذا الوهم ، (وقد دخلت في تفنيد طويل لوهم ساطع الحصري ، ومن خلاله لكل الوهم «القومي» حول «الوحدة» ، لكل موقف من الوحدة لا يمسك لا أقول بـ « الطبقات » و « المفهوم العلمي الطبقي » لبرنامج الشيوعيين اللبنانيين الجديد ، المفهوم التجريدي القطري القليل اللينينية ، بل اقول بالاممبريالية وواقعها العالمي والعربي) ، فانني احفظ في ذهني رد لينين على روزا لوكسمبورغ حول حق تقرير المصير في ١٩١٤ : اذا قال الحزب الاشتراكي القومي البولوني البرجوازي الصغير (جماعة الفراك)

---

١ – اشارة الى رد الزميل طيبي على الدكتورين اتاسي ودروبي حول ترجمة conscience دروبي ترجمها سيكولوجياً وبرغسونياً « شعور » . بسام ترجمها « وعي » . بسام على حق.

« نعم » ، قالت روزا « لا » . وهذا في تصورها دليل على الاستقلالية تجاه الفراك ، ولكنه في الحقيقة تبعية ! (انظر مقالي السابق ، عدد يناير ١٩٦٩ ، ص ٩٣) . واحفظ في ذهني كل مساجلات لينين ضد خصومه : أكثر هؤلاء – الاقتصاديون القدامى ، (واحياناً خلفاؤهم المنشفيك)، روزا لوكسمبورغ ، « الاقتصاديون الامبرياليون » ، « اليساريون » – كانوا «ويؤمنون » بأنهم ممثلو الطهر الطبقي العمالي ضد لينين جامع «الماركسية العمالية » والنارودية واليعقوبية والبرجوازية الصغيرة بشكل عام (حسب تصوّرهم) ، وكلهم كانوا هم البرجوازيون الصغار .

إن النقاش الحالي على المسألة القومية العربية بين الماركسيين العرب ، يكرر نقاش لينين مع خصوم اليسار في ١٩١٤ – ١٩١٦ وفي سنوات ومناسبات لاحقة . كان النقاش يدور حول « نقطة » اعتبرها الاخ بسام واعتبرناها (بمعنيين مختلفين) تاكتيكية هي شعار تقرير المصير للأمم ، وهو اليوم « يدور » حول «نقطة» قد نعتبرها (ولكن بمعنيين متعارضين كلياً) تاكتيكية هي الوحدة العربية . الحجج واحدة في الحالتين . اذا استعضنا في نصوص لينين عن « تقرير المصير للامم » بـ « وحدة الامة العربية » ، أصبح الكلام من الطرفين ، واحداً ، في ١٩١٦ وفي ١٩٦٩ . حتى لو كنت أعتقد بأن احتمال تحقق الوحدة العربية بدون زعامة البروليتاريا العربية وقبل هذه الزعامة (وهي زعامة بعيدة بعض الشيء ، أبعد قليلاً – ! – مما كانت الثورة البروليتارية في ١٩١٦) ، لا يزيد عن واحد من مئة أو واحد من خمسمئة (انقل لينين !) فانني أؤيد هذا الاحتمال أيضاً ، وأرفع الشعار عالياً ، وأحارب خصومه : هذا شرط للباقي كله . ولكل النقاش مع غير الماركسيين . لا يمكن أن « نذهب الى الحرب » ضد افكار سعدون حمادي (من أجل « الوحدة والاشتراكية ») بأفكار الرفيق بسام طيبي . وهذا بالطبع شرط أولي لتقدم قضية زعامة البروليتاريا ، أي قضية زعامة الماركسيين للبروليتاريا (= الحزب) وزعامة البروليتاريا للأمة (شيئان اثنان هما شيء

واحد) . ويقول بسام: « وأنا أعتقد مثل فريق الدراسة والعمل التونسي (فريق بيرسبيكتيف) من ان « كل انتصار للاشتراكية في مختلف البلدان العربية يقرب من ساعة الوحدة بينهما . وبعبارة اخرى ، فان شعار الوحدة العربية ، إذا لم يصحب بعمل حقيقي لبناء الاشتراكية ، يبقى مجرد لعبة ديماغوجية » (١٦) » .

وأنا أيضاً . يبقى أن نعرف ما هو «انتصار للاشتراكية » ، وما ليس انتصاراً للاشتراكية « في مختلف البلدان العربية » .

ويبقى ان الوحدة لن تأتي مما يسمى بناء الاشتراكية في كل قطر ، ولا تأتي من « العمل الحقيقي لبناء الاشتراكية » (؟) . لا اشتراكية بلا اشتراكيين ، ولا وحدة بلا وحدويين . ويقال ونقول : بلا وحدويين حقيقيين . ونضيف : الانفصاليون ليسوا وحدويين حقيقيين .

وبعد ليس هنا مكان مناقشة افكار وتحليلات جماعة بيرسبيكتيف التي هي ، على حد علمي ، من الجماعات الماركسية القليلة في العالم العربي ، التي تؤيد الوحدة العربية ، منذ زمن غير قصير .

اذا كان الرفاق التونسيون يؤمنون بان الاقطار العربية تسير او سارت في السنوات الثلاث الاخيرة في طريق الوحدة ، بفضل اجراءاتها التقدمية في الحقل الاقتصادي (وهي اجراءات محدودة) وان المطلوب من اجل تحسين وتصحيح المسيرة الى الوحدة هو تعزيز وتوسيع الاجراءات المذكورة ، فان الرفاق التونسيين واهمون بمقدار ١٠٠ ٪ .

اذا كان آخرون يؤمنون بأن بلداً عربياً تقدمياً ما (البلد الكبير ، ناهيك عن الصغير) عليه ان يصبح نموذجاً (!) اشتراكياً متقدماً (او مراعاة لمفردات البعض نموذجاً ديمقراطياً وطنياً ثوريا لا رأسمالياً الخ الخ)

تلتف حوله البلدان الاخرى، وهذا هو درب الوحدة العربية ، فانهم ينشدون على الشعب وهماً كاذباً ، تختلط فيه أفكار الخير ونوايا السوء بمينيتهم الستراتيجية « ويساريتهم » التاكتيكية [1] .

وهنا نعود الى ماركس ١٨٧٠ ، وموقف باكونين من ماركس .

لقد ذكرنا (« الماركسية والشرق » ، وحوارنا السابق مع الأخ بسام) ان باكونين في ١٨٧٠ اتهم ماركس بالعمالة لبسمارك . وروّج ايضاً هذه « الاشاعة » برودونيون فرنسيون. وهنا يسعفنا الاخ بسام : تهمة قذرة ! الا يعلم باكونين وصحبه « ان بوليس بسمارك كان يطارد ماركس في جميع انحاء اوروبا » ... قذارة التهمة ليست الشيء الأهم (ماركس ايضاً اتّهم باكونين بالعمالة للقيصر. تهمة باطلة أيضاً . معلّمنا ليس إلهاً) . الشيء الأهم هو دلالة التهمة . القارىء يلاحظ دون عناء ان تهمة باكونين والبرودونيين لماركس على مدى حرص ماركس على الوحدة الالمانية (أيد حتى الوحدة البسماركية). ولكن القارىء يجب ان يجهد نفسه قليلاً ليستوعب التهمة فيما يتعلق بالنظرية كلها ، بمفهوم التاريخ ونظرية الثورة الاجتماعية ، عند ماركس وانجلز، وعند باكونين والبرودونيين ، اي في الماركسية وفي الفوضوية .

الفوضوية تؤمن بإشعال الثورة الاجتماعية ، تكتشف ارضاً قابلة للاشتعال في كل لحظة ، تعارض « التنظيم » ، تعارض « الدولة » ، تطلق ثوراتها و « تجاربها » من «الكومونة »، من مدينة ، من منطقة ، من قرية، لا تحتاج الى « دولة » (تكره كل « دولة ») ، الى تكوين البروليتاريا كـ « طبقة قومية » على نطاق الأمة ، كـ « أمة » [2] يكفيها الكومونة و « العالم » وهلمجرا . في

---

١ – هذه بالضبط ايديولوجيا قسم من اليسار المصري في فترة ما قبل حزيران ١٩٦٧ .

٢ – مع ان باكونين اول من ترجم « البيان الشيوعي » الى الروسية !

الفوضوية الباكونينية ، نظرية التاريخ «محاولة» منحلّة ، في نظرية الثورة ، ليس لنظرية التاريخ أية استقلالية . — في ماركسية ستروفه ، كاوتسكي ، بليخانوف ، بدرجات متفاوتة ، الحالة بالعكس : نظرية الثورة تنبثق انبثاقاً من نظريـــة التاريخ ، من المادية التاريخية (« نضج الشروط الموضوعية » و « القوانين ») . ماركس ، انجلز ، لينين ، يرفضون منهج ستروفه ، كاوتسكي ، بليخانوف — سوخانوف ولكنهم بعيدون بعد الارض عن السماء عن الفوضوية . هناك نظرية الثورة ونظرية التاريخ . هذه تسند تلك . تلك تعزز وتعدّل وتطوّر وتنمي هذه . ولكنها لا تذوّبها . المجموع = الماركسية ، علم تطور المجتمعات البشرية ، وعلم الثورة والمبادرة الثورية ، في آن واحد . .

(١٥) خاتمة : أخطاء الاخ بسام . وعمل الماركسيين — اللينينيين العرب

ويختم الزميل مقاله : « بعد هذه التوضيحات اعتقد ان الخـلافات النظرية بيني وبين الزميل مرقص أعمق مما كنت أعتقد . لكن رغم كل هذا فثنائي للزميل مرقص واحترامي الكامل له كأحد الماركسيين العرب القـلائل الذين يتمتعون بالنظرة العلمية الشاملة وتقديري له كأحـد الكتاب العرب الثوار الذين ساهموا بتعريف المناضل العربي بالتراث الماركسي » .

مرة أخرى ، أشكر الزميل طيبي على تقـــديره الكبير لي . لم أعد ذلك الماركسي الوحيد الذي اعاد الماركسية الى الينبوع . ولكني « من الماركسيين القلائل الذين يتمتعون بالنظرة العلمية الشاملة » . وهذا أيضاً كثير . وأنا اعتز به بالغ الاعتزاز ، لأنه يأتي من رجل أحترمـــه وأقدره على صدقه واخلاصه وأمانته وعلى سعة اطلاعه ودأبه وتفانيه .

إن احد العوامل الرئيسية التي دفعتني الى هذا البحث هو تقديري بالدرجة الأولى لصفات العالم ، ولاسيما صفات العالم الخلقية المتمثلة ، في رأيي ، في شخص بسام طيبي ، قصدت : حب الحقيقة ، الشجاعة الخلقية ، الصدق مع الذات ، الاستقامة الذهنية . هذه هي الصفات التي تعددها كتب المنطق والاخلاق ، المدرسية . وليس من الممكن ان يكون ماركسياً من يفتقد الى إحدى هذه الصفات . والاخ بسام طيبي شاهد للماركسية على أعدائها . مقاله الأخير درس لبعض الآخرين ، وعبرة يعتبر بها الجيل الطالع اذا لم يعتبر بها الجيل النازل ، انه عبرة للجميع ، لكل واحد منا . ما أسهل ان يقول رجل العلم انه أخطأ اذا كان فعلاً رجل علم . ما أسهل ان يقول الماركسي أنه أخطأ اذا كان ماركسياً ورأى الخطأ . والماركسي لا بد أن يرى الخطأ .

إن أخطاء الأخ بسام ناجمة عن التسرّع والتشوّش اللذين يلازمان عنده مرحلة التكوين – (ونحن كلنا في تكوّن ، ويجب ان نبقى كذلك حتى نهاية عمرنا وعملنا) – في ظروف سعة الاطلاع وضخامة الاهتمام . واني لا اعتقد ان المفكر يمكن ان يكون اليوم ماركسياً وان يواجه تحديات العصر وان يعمل لمستقبل البشرية بدون هذا التنوع في الاطلاع والاهتمام . والماركسية في اساسها ومنابعها « محصّلة » وامتداد لكل التراث الانساني الاكثر تقدماً ، في شتى مجالات العمل والمعرفة . ومن هنا فإن عدداً من بحوث الأخ بسام تنال لا تقديري وحسب بل إعجابي ايضاً .

غير أن سعة الاهتمام تتطلب اولاً التركيز والمنهجية ، وتتطلب معرفة ماركس وانجلز ولينين معرفة مباشرة . إن البحوث « الخاصة » التي يجريها البروفسور فتشر (الذي ذكره الأخ بسام في مقاله السابق) قد تكون عظيمة فعلاً . ولكنها تحتاج عند من يتمثلها ولكي يتمثلها تماماً أي بصورة نقدية ايضاً ، إلى معرفة الماركسية – اللينينية ذاتها ، مباشرة ، في أسسها و « تفاصيلها »

ونهاجيتها كما تظهر في مؤلفات ونصوص ماركس وانجلز ولينين . إن تحليلات سنايدر وديفيس وبويدشيفر قد لا تخلو من فائدة جدية . وتحليلات لوكاكش مصدر لا غنى عنه . ولكن كل هذا يساوي لا شيء اذا لم يستند الى معرفة مؤلفات الرواد الثلاثة .

وكثيراً ما يتصوّر الماركسي ان هذه القضية او تلك لم يعالجها ماركس ولا انجلز ولا لينين، فيتوجه بدافع من هذا التصوّر الى معالجتها وحلها بدون ماركس وانجلز ولينين ، وفي أحسن احتمال بالاستناد الى ماركسيين جيدين . وكثيراً ما يكون التصور الاصلي خاطئاً . شخصياً ، أتمسّك مبدئياً بهذه القاعدة الذهبية : ماركس ، انجلز ، لينين ، اولاً . ثم الآخرون . وفي كل مرة خالفتُ فيها هذه القاعدة ، ندمتُ . واول مثال على المخالفة والندم عرضي في ١٩٦٣ أو ١٩٦٥ لموقف ماركس وانجلز في ١٨٧٠ . لا اذكر بالضبط ما هي المراجع التي اعتمدت عليها . ولم أقترف خطأ في عرض الموقف (وجاء عرضي الايجابي متفقاً مع كل الصورة الصحيحة التي قدّمتها عن الماركسية) .

ولكنني « أنقصتُ » في عرضه ، أنقصت هذه النقطة : تأييد ماركس وانجلز لوحدة ١٨٧٠ ، وخلافهما مع ممثلها فيلهلم ليبكنشت . وثاني مثال قصوري او تنقيصي في عرض خط لينين في المسألة القومية في ١٩١٦ ، ١٩٢٠ الخ . كان قصوري نسبياً جزئياً ، كان عرضي تقدماً كبيراً ، بل انقلاباً على الصورة الرائجة البالغة الجهل . ولكن العودة ثانية (او خامسة) الى لينين أظهرت لي ما فاتني ، أظهرت لي نقائص فهمي ومنهجي. إن ما أقوله في ١٩٦٨ او ١٩٦٩ امتداد لا يخالف اطلاقاً ما قلته في ١٩٦٥ او١٩٦٣ او قبلها. ولكنه امتداد ، اي تقدم ، تقدم في عملية إعادة الماركسية — اللينينية الى الينابيع . هذه العملية او المحاولة التي مدحني عليها الزميل طيبي والتي تبلغ الآن وغداً مداها الكامل ، العودة الى الينابيع ، كاملة . وفي هذا ، ليس الموضوع « المسألة القومية » بل الماركسية كلها ، منهجها . والذين يحرصون على نقدي

ومساعدتي ، يجب ان يسلّطوا نقدهم على هذه النقطة : تقصيري الماضي والحاضر في العودة الى الينابيع . ما اطلب ان احاسب عليه هو « التنقيصات » التي ذكرتها سابقاً ، وأسبابها المعرفية ، ومدلولاتها ، ونتائجها ، وأثرها الممكن على تطور وشطط الشباب في السنوات الخمس الأخيرة . إن كل ذي عقل وعين يعلم علم اليقين ان شطط الشباب هو عكس ونقيض كل مواقفي الواضحة المعلّنة المكتوبة خلال الفترة التاريخية المنصرمة كلها (ولا سيما مؤلفاتي في ١٩٦٣ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦) ، وان مؤلفاتي ليست في قفص الاتهام الى جانب الشطط والشاطين ، بل في هيئة المحكمة . هذا من حيث الجوهر ، وبشكل أدق من حيث ما كتبتُ . ولكن من حيث ما لم اكتب ، من حيث ما « أنقصتُ » يختلف الأمر بقدر ما . وجهلي الجزئي ليس حجة لصالحي . لماذا أنقصتُ في التعرف والكتابة ؟ الكتب – المراجع – الينابيع التي تسمح لي اليوم بالاكمال ، ألم يكن بعضها موجوداً عندي ! فلماذا قصرّت ؟ لم اقرأها ؟ هذا يكون ذنباً ! ام اني قرأت ولم أفهم ولم استنتج وأعلن ، بدافع الفطنة والحذر او الخوف الفكري او التمسّك – بقية من تمسّك – بالشيء المألوف والذي ليس دوماً الشيء الصحيح ؟ – هذا أيضاً ذنب وتقصير ، مراعاة ولو بنسبة ٥ ٪ للجو « الماركسي » الدارج السخيف . التقدم الذي أحققه الآن كان يجب ويمكن أن أحققه منذ سنوات . هذا ما يجب ان أحاسب عليه ، وما أحاسب نفسي عليه ، امام الاخ بسام طيبي .

لقد تحدّث الزميل طيبي ذات مرة (مجلة الآداب ، العدد ٨ ، ١٩٦٨) عن الانتلجنتسيا الثورية الروسية والاغتراب الثوري الروسي الماركسي . كم يختلف هذا الاغتراب عن اغتراب « الثائرين » العرب الى عواصم عربية اخرى والى عواصم عربية اخرى والى عواصم اشتراكية وغربية ! كم يختلف عن « الطلبة العرب في المانيا الغربية » الذين وصفهم الاخ بسام (عدد قليل منهم يتفاعل مع الفكر الانساني !) والاخ بسام طيبي نموذج أضمّه دون تحفّظ الى فصيلة

الانتلجنتسيا الثورية الروسية .

هذه الانتلجنتسيا الروسية صنعت معجزة ، اكبر معجزة في التاريخ ، حين وصلت الى الماركسية وتمثلتها ، وواجهت اكبر مسائلها النظرية في روسيا غير الغربية وحلت هذه المسائل ، هذه المسألة ، فكان حلها ذاته إثباتاً عيانياً لشمولية الماركسية وتطويراً عظيماً للماركسية ، فتح لها العالم الكبير . تكوّن الماركسيون في روسيا كماركسيين روس ، على يد بليخانوف ولينين وعشرات الآخرين . وتكونت البولشفية واللينينية ، ماركسية العصر الجديد .

كان هذا التطور ممكناً ، لأن روسيا كانت مركز تناقضات العصر ، لأن روسيا كانت نوعاً ما نموذج العالم الواقعي ، واقع الطبقات العياني (بالجمع) ، العالمي (ـ القومي) ، ولأن البروليتاريا الصناعية الروسية الفتية القليلة العدد والمكافحة ، استوعبت هـــذا الواقع ، بفضل لينين ونضالات لينين من اجل « التفاصيل » (!) ونظرية الوعي والحزب عند لينين . وفي المواضع ذاتها التي يؤكد فيها لينين على الوعي وعلى النظرية الثورية ، يؤكد لينين على واقـــع روسيا جامع التناقضات... بل وعلى الأهمية الكونية للأدب الروسي الكلاسيكي (في « مـــا العمل ؟ » ، ١٩٠٢ ، في الفصول الاولى من « اليسارية ، مرض الطفولة » ، ١٩٢٠) .

ولا أقول أن موقع الوطن العربي اليوم من العالم وتناقضاته هو نفس الموقع المركزي لروسيا لينين وبليخانوف ومارتوف وتروتسكي وبوخارين .

ولكني أسجل اولاً الموقع التاريخي والجغرافي للوطن العربي في عالم وتاريخ الاستعمار الطويل وتزعه الطويل . بحكم الموقع الجغرافي ، بدأ الاقتحام الاستعماري الاوروبي للدنيـــا الكبيرة في سواحل المغرب (ثم جنوبي جزيرة العرب) مع بزوغ فجر الاستعمار « التجاري » وبدايات الرأسمالية ، وفي الجزائر مع بدايات زخم الرأسمالية الصناعية ، وفي مصر وتونس مع طور الانتقال من الرأسمالية

الحرة الى الامبريالية[1]. وتحتل الثورة المصرية والثورة الجزائرية وتأميم السويس والكفاحات العربية المشرقية والوحدة السورية – المصرية الخ مكاناً مركزياً في الصراع العالمي في زمن النزع الطويل لاستعمار طويل .

وأسجل ثانياً ، اننا في هذا اليوم ، نواجه ، بشكل حاد ، مشكلة التجزئة والوحدة العربية ، ومشكلة فلسطين والزحف الصهيوني . وهاتان المسألتان مسألتان من مسائل العصر الجوهرية ، من مسائل الامبريالية والنضال منذ الامبريالية ، من مسائل الثورة الاشتراكية كما عرّفها لينين في صيغة ١٩١٩ وصيغ اخرى (عالمية !) . هذا اولاً . وثانياً ، هاتان المسألتان من مسائل عصر الامبريالية وانفلاتها من عقالها هما مسألتان قوميتان ، مسألتان قوميتان بجميع المعاني التي اتخذتها « المسألة القومية » عند ماركس وانجلز ولينين والتي نجد حاصلها التفصيلي والجوهري عند لينين ، واضع نظرية الثورة الاشتراكية ، في صيغتها المتقدمة « الكاملة » . وهذا الموقع الفريد الاستثنائي الذي يعيش فيه الماركسيون – اللينينيون العرب يتيح لهم أن يفهموا ويستوعبوا نضالات لينين ضد روزا لوكسمبورغ وضد تيار «الاقتصادية الامبريالية» بكل اشكاله ، وان يبعثوا هذا التراث اللينيني ، ويرفعوه عالياً في وجه شتى صنوف الزيف « الايديولوجي » « اليساري » الكاريكاتوري الذي يتستّر احياناً بلينين . ويتيح لهم ان يستوعبوا اللينينية ونضالها ضد «الاقتصادية» «الطبقية المزعومة» « العمالية » Ouvriérisme الخ ، من اجل الوعي ، من اجل البولشفية ، من اجل ماركسية العصر الجديد ، في ظرف قصور « المراجع الماركسية العالمية العليا » عن لينين ، القصور الذي ندفع ويدفعون ثمنه مع العالم أجمع .

إن الماركسيين–اللينينين العرب لا يضعون لأنفسهم مهمة إنشاء « ماركسية

---

١ – وتعرّض الوطن العربي للزحف الصهيوني المدعوم من كل الدول الامبريالية طيلة طور الامبريالية منذ بدايته .

جديدة » أو « لينينية جديدة »، وهم يزدرون الخلائط الفانونية الغيفارية العالم ثالثية الالتوسرية التروتسكية الماوتسي تونغية الخ ..، الزائفة القاصرة المخربة. هناك لينينية واحدة ، لينينية لينين .

ولكن الماركسيين – اللينينيين العرب يضعون لأنفسهم مهمة التكوّن ، إكمال التكوّن كماركسيين – لينينيين عرب ، كما تكوّن الماركسيون الروس كماركسيين روس قبل ستين وتسعين عاماً. وفي هذا التكوّن ، يجابهون التيارات المعادية للماركسية – اللينينية داخل صف المنادين بالماركسية – اللينينية . والقاسم المشترك لأكثر هذه التيارات هو اليوم تيار الماركسية الكاريكاتورية ، « الاقتصادية الامبريالية » لشباب ١٩١٦ ،منقولاً و « مطوّراً الى الامام » (!) على يد شباب ١٩٦٨ في الوطن العربي في ظروف النكبة القومية . ضد هذا التيار ، ضد « الاقتصادية » بوجه عام ، أي ضد « الطبقية » « العمالية » «البروليتارية»المزعومة التي ترفع لواءها فصائل متنوعة من المثقفين البرجوازيين الصغار غير المثقفين والمقطوعين عن البروليتاريا ، عن البروليتاريا الواقعية والواعية ، يعمل الماركسيون – اللينينيون العرب ، من اجل النظرية ، من اجل الوعي ، من اجل المذهب البروليتاري الحقيقي ، من اجل شمولية البروليتاريا وزعامتها ، من اجل التنظيم .

لقد كان سحق « الاقتصادية » الروسية المغلفة بوهم الطهر الطبقي البروليتاري لجيل من الشباب البرجوازيين الصغار المتخمسين غير المثقفين ماركسياً ،المدخل الى حزب البروليتاريا الماركسي البولشفي ، أي الى زعامة البروليتاريا الروسية للثورة الديمقراطية . وسيكون سحق « الاقتصادية الامبريالية » العربية المغلفة بوهم الطهر الطبقي البروليتاري لجيل من الشباب البرجوازيين الصغار الاكثر تحمّساً والأقل ثقافة ، المدخل الى زعامة البروليتاريا العربية للثورة القومية والديمقراطية والاشتراكية التي بدأت .

إن عظم المهمات الملقـــاة اليوم على عاتق الماركسيين – اللينينيين العرب فرضت علينا مواصلة الحوار على رفيق عزيز .

وسندخل في الحوار، وسنفتح الحوار ، مع كل المنادين بالماركسية ، وبشكل خاص مع الرفاق الخصوم « البروليتاريين » المستحدثين (المثقفين البرجوازيين الصغار غير المثقفين) في شتى فصائلهم (من المدرستين الجديدة والقديمة سواء بسواء) . هذا أمر تلكّأنا فيه كثيراً . ولن نتلكأ فيه بعد الآن . النضال من أجل اللينينية يبلغ اليوم ، في ظروف التجزئـــة والنكسة والضياع ، مرحلة جديدة ، عالية ، تتضاعف فيها المسؤوليات ، ويتضاعف فيها الصراع الفكري حدة وعمقاً واتساعاً . « موضوع » المعركة ومستقبلها واحد : اللينينية والأمة العربيـة !

اللاذقية ، ١٣ / ٥ / ١٩٦٩

ملحق

نصوص لماركس، انجلز، لينين ...

(١) ماركس ، انجلز ، ١٨٦٦ : عن الحرب البروسية ـ النمسوية ، البرودونيون والمسألة القومية

آ ـ من انجلز الى ماركس

مانشستر ١٣ / ٤ / ١٨٦٦ .

... هكذا ، فقد وجّه بسمارك ضربته ـ الاقتراع العام [١] ـ حتى بدون لاساله [٢] . تبدو الامور وكأن البرجوازية الالمانية ستوافق عليه بعد شيء من المقاومة ، لأن البونابارتية هي ، في النهاية ، الدين الحقيقي للبرجوازية الحديثة . ويزداد وضوحاً لديّ ان البرجوازية لا تملك في ذاتها المادة التي تمكنها من ان تحكم

---

١ ـ انجلز يلمح الى المشروع الذي قدمه بسمارك امام المجلس الاتحادي بالدعوة الى عقد برلمان يرتكز على مبدأ الاقتراع العام ، لكي يصادق على الدستور الاتحادي. كان غرض بسمارك من هذا الاقتراح تأمين دعم الجماهير الشعبية في الحرب الوشيكة ضد النمسا .(هذا الشرح مرجعاه عن الاصل السوفياتي : ماركس ـ انجلز : الرسائل المختارة ، موسكو ، بالانكليزية) . ا . م .

٢ ـ لاسال توفي قبل عامين . على حد تعبير ماركس وانجلز ولينين ، لاسال عقد صفقة وطنية مع بسمارك ، وعارض البرجوازية ، ولكنه تجاهل المسألة الفلاحية في المانيا نصف ـ الاقطاعية . ا . م .

بنفسها مباشرة ، وأنه بالتالي ، حيث لا توجد اوليغاركية -كما هنا في انكلترة- قادرة على ان تتولى بثمن جيد إدارة الدولة والمجتمع لصالح البرجوازية ، تكون شبه دكتاتورية بونابارتية هي الشكل الطبيعي . فهي تساند المصالح المادية الكبرى للبرجوازية حتى ضد ارادة البرجوازية ، ولكنها لا تشاطرها سلطة الحكومة . وبالمقابل، هذه الدكتاتورية مضطرة ضد ارادتها الى تبني هذه المصالح المادية للبرجوازية كمصالحها ذاتها . وهكذا يكون معنا الآن مسيو بسمارك حامل برنامج الوحدة القومية . إن تنفيذ هذا البرنامج شيء مختلف تماماً بالطبع، ولكن ليس لبسمارك حظّ كبير في ان يصادف حادثاً مؤسفاً خلال هذه البرجوازية . إن رجلاً المانياً عاد مؤخراً يروي انه وجد من الآن أناساً كثيرين بلعوا هذا الطعم . حسب رويتر ، وافق سكان كارلسروه على الامر ، والفلق العميق الذي تبديه « صحيفة كولن » على حساب هذا الأمر يُظهر بوضوح التطور القادم للأحداث .

ب – من ماركس إلى انجلز

لندن ٧ / ٦ / ١٨٦٦

... هكذا ، تأتي الحرب ، بعد كل شيء ، ما لم تحدث معجزة ما [١] . وسيدفع البروسيون ثمن تبجّحهم ، وعلى أي حال ، فان الغزل في المانيا شيء طي الماضي . الزمرة البرودونية بين طلاب باريس (جريدة « بريد فرنسا ») تعظ بالسلام ، تعلن الحرب شيئاً بالياً والقوميات حماقة ، تهاجم بسمارك وغاريبالدي الخ . كمجادلة ضد الشوفينية ، أعمالهم مفيدة ويمكن أن تُفهَم . ولكنهم ، كمؤمنين ببرودون (لافارغ ولونغه وهما اثنان من أعز أصدقائي هنا ،

---

١ – الحرب بين بروسيا والنمسا وقعت بعد ايام . واستمرّت شهرين . ا . م .

ينتميان هما ايضاً اليهم) ، يعتقدون أن اوروبا بأسرها يجب ان تجلس وستجلس على قفاها بهدوء بانتظار ان يقضي السادة في فرنسا على « الفقر والجهل » ، الجهل الذي تحت لوائه هم أنفسهم يعملون بما يتناسب طرداً مع صرخاتهم عن « العلم الاجتماعي » ، مثيرون للضحك .

جـ — من ماركس إلى انجلز

لندن ٢٠/٦/١٨٦٦

... عليك ان تضعني في موقع ترقب نقدي للامور في ايطاليا والمانيا .

البارحة ، حدث نقاش في الجمعية الأممية حول الحرب الحاضرة . المسألة كان قد أعلن عنها سابقاً ، والقاعة كانت شديدة الازدحام . السادة الطليان هم ايضاً ارسلوا مندوبين . المناقشة ، كما كان منتظراً ، دارت حول « مسألة القوميات » عموماً والموقف الذي نتخذه ازاءها . وقد أجّل الموضوع الى يوم الثلثاء القادم .

الفرنسيون ، وكان عددهم كبيراً ، أطلقوا العنان لكرههم الودّي تجاه الطليان .

وأكثر من ذلك ، إن ممثلي « فرنسا الفتاة » (ليسوا عمالاً) أتوا باعلان مفاده ان كل القوميات بـــلٌ والأمم هي « أباطيل عتيقة » . هذه شتيرنيرية برودونية . كل شيء يجب ان يُحلّ في « جماعات » صغيرة أو في « كومونات » ، يكون عليها ان تشكل بالمقابل « حلفاً » أو « اجتماعاً » Association ، ولكن ليس دولة . وهذا التفريد للبشرية Individualisation [1] وهذه التبادلية التعاونية Mutualism المقابلة له يجب ان يستمرا بينما يتوقف

---

١ — أي تحويل إلى أفراد ا.م.

التاريخ في سائر الاقطار وبينما ينتظر العالم أجمع حتى ينضج الفرنسيون للثورة الاجتماعية . عندئذ سيبرهنون لنا على التجربة ، وباقي العالم ، تحت دفع قوة تجربتهم ، سيلحق بهم . بالضبط هذا ما كان فورييه Fourier قد توقّعه من تنظيمه المثالي « الفالانستير » . أما من يربك المسألة « الاجتماعية » بـ «أباطيل» العالم القديم فهو « رجعي » .

لقد ضحك الانكليز كثيراً حين بدأتُ خطابي بالقول ان صديقنا لافارغ والآخرين ، الذين صرفوا القوميات ، قد تحدثوا الينا بالفرنسية ، أي بلغة لم يفهمها تسعة أعشار الحاضرين . وألمحت ايضاً الى أن لافارغ حين ينفي القوميات انما يقصد بصورة لا شعورية امتصاصها في الأمة الفرنسية النموذجية .

تعليق ا . م . : هذان النصان لماركس (٦/٤ و ٦/٢٠) استشهد بهما لينين في مؤلفات كلاسيكية (مثلاً : « عن حق الامم في تقرير مصيرها » ، الفصل الثامن) . غير اننا حرصنا على ان نأخذ أيضاً القسم الذي يلي مباشرة جملة « هذه شتيرنيرية برودونية » ، حتى يفهم القارىء ماهية الفوضوية (شتيرنير — برودون — باكونين) وحتى يتثبت من صحة المقارنة التي عقدناها بين الفوضوية والماركسية ، بمناسبة تهمة باكونين والبرودونيين لماركس في ١٨٧٠ :الفوضوية — نصيرة « الجماعات » الصغيرة و« الكومونات » ، نافية الدولة الخ — تتجه بطبيعة الحال إلى العدمية القومية ، الى نفي الأمم ، وتتجه إلى التسرع والجهل، إلى نفي نظرية التاريخ وحلّها في نظرية الثورة وبالأصح في الهوس الثوري (وعند الفرنسيين تتلوّن فرنسياً) . وسنرى ذلك في نص للينين يعود إلى عام ١٩١٥ .

د — من انجلز إلى ماركس

مانشستر ٢٥ / ٧ / ١٨٦٦

...القضية في المانيا تبدو لي بسيطة الآن. منذ اللحظة التي قام فيها بسمارك، مستخدماً الجيش البروسي، بتنفيذ مخطط البرجوازية في إقامة المانيا الصغرى بهذا النجاح الهائل، فان التطور في المانيا قد اتخذ هذا الإتجاه بقوة تجعل من واجبنا، كغيرنا، ان نعترف بالأمر الواقع، سواء أحببناه أو لا[1]. بصدد الجانب القومي من القضية، إن بسمارك سيقيم على أي حال الامبراطورية الالمانية الصغيرة ضمن المقاييس التي أرادتها البرجوازية، أي بما في ذلك المانيا الجنوبية الغربية — أما الجمل عن خط نهر الماين وعن الاتحاد الاختياري المنفصل لالمانيا الجنوبية فالفرض منها بلا شك تطمين الفرنسيين[2]، وفي هذه الاثناء يتقدم البروسيون نحو مدينة شتوتغارت. واكثر من ذلك، قبل مضي وقت طويل، ستنضم الولايات الالمانية في النمسا الى هذه الامبراطورية، ما دامت النمسا مضطرة الآن إلى ان تصبح مجرية، وما دام الالمان سيصبحون القومية الثالثة في الامبراطورية بعد السلاف انفسهم.

سياسياً، سيضطر بسمارك إلى الاعتماد على البرجوازية، التي يحتاج إليها ضد الامراء الامبراطوريين[3]. ربما ليس الآن ما دام نفوذه والجيش كافيين. ولكنه سيكون عليه ان يعطي شيئاً ما للبرجوازية حتى ولو فقط ليؤمن

---

١ — ماركس وانجلز لم يريدا الحرب بين بروسيا والنمسا، وحين نشبت وقفا على الحياد. ا.م.

٢ — نابوليون الثالث سلّم بالأمر الواقع، وغازل بروسيا. ثم فاوض بسمارك من أجل أن يأخذ بلجيكا مقابل ان يكتفي بسمارك الاستيلاء على المانيا الجنوبية المذكورة الخ. ا.م.

٣ — اي الامراء الموالين لامبراطور النمسا ا.م.

من جانب البرلمان الشروط الضرورية للسلطة المركزية ، والمجرى الطبيعي للقضية برغمه او برغم حلفاءه دائماً على الاستنجاد بالبرجوازية من جديد . حتى اذا لم يعط بسمارك للبرجوازية شيئاً اكثر مما هو مرغم ان يعطيها الآن – وهذا ممكن – ، فانه سينجرّ اكثر فأكثر الى معسكرها .

القضية لها جانبها الجيد : فهي تبسّط الموقف . انها تجعل الثورة أسهل بقضائها على الصيحات والدمدمات بين العواصم الصغيرة وعلى أي حال ستعجل التطورات . على أي حال ، إن برلماناً المانياً شيء مختلف تماماً عن جمعية بروسية . إن الدول الصغيرة في مجموعها ستنجرف في الحركة ، وأسوأ المؤثرات المحلية ستتوقف ، والاحزاب ستصبح أخيراً أحزاباً قومية حقاً بدلاً من ان تكون محلية .

نقطة السوء الرئيسية – وهي كبيرة جداً – هي الفيضان البروسي على المانيا ، الفيضان الذي لا يمكن تجنّبه . وبالتالي – انفصال النمسا الالمانية الموقت [1] ، الذي سيولد تقدماً مباشراً للعناصر السلافية في بوهيميا ومولانيا وكارينتيا . لسوء الحظ ، لا يمكن علاج أي من هذه الامور .

في رأيي ، كل ما يمكن ان نفعله هو ان نقبل بالحقيقة الواقعة ، دون الموافقة عليها ، وان نستخدم الى آخر حد نستطيع التسهيلات الأكبر المحتومة الآن من أجل تنظيم وتوحيد البروليتاريا الالمانية قومياً .

أ – أحد اسباب حياد انجلز وماركس في الحرب بين بروسيا والنمسا ،ودعايتهما المسبقة ضد هذه الحرب ، وضد بسمارك وامبراطور النمسا ، هو حرصهما على إقامة وحدة المانية شاملة (تضم ايضاً النمسا الالمانية) ، تنهي فعلاً المسألة القومية الالمانية ، تكون سداً في وجه « الشرق » لروسيا القيصرية) والغرب (فرنسا نابوليون الثالث) ، وتكون اطاراً سليماً وطبيعياً لتطور المانيا والبروليتاريا والحزب . الحرب بين بروسيا والنمسا حرب داخل الأمة الالمانية ! ! . م .

لم يكن ثمة حاجة لكي يكتب لي ستمبف Stumpf ان الأخ ليبكنشت Liebknecht يتخبط ويتلوّث في حبه المتعصّب للنمسا . ما كان يمكن ان يكون على غير ذلك . بل إن « صحيفة فرانكفورت الجديدة »نشرت مقالات مليئة بالغضب كتبها (ليبكنشت) بالتأكيد وأرسلها من لا يبتسيغ . هذه الصحيفة محترفه العمى وآكلة الأمراء ذهبت الى حد لوم البروسيين على معاملتهم لأمير ولاية هس Hesse المحترم .

٥ – من ماركس إلى انجلز

لندن ٢٧ / ٧ / ١٨٦٦

... أنا من رأيك تماماً في ان هذه البضاعة الزائفة يجب ان تؤخذ كما هي . ولكن مما يسر ان يكون المرء على مسافة اثناء الفترة الاولى من هذا الحب الأول. صلف البروسيين وحماقة غليوم الجبيل [١] الذي يعتقد ان شيئاً لم يتغيّر منذ احرازه ذلك النصر الشبيه بالحلم ، ما عدا كونه قد أصبح ملكاً قوياً الخ ، سيكون لها ايضاً تأثيرهما. إن النمسويين هم اليوم في الموقع الذي أراده لهم متعصبو براغ السلافيون في ١٨٤٨ . ومع ذلك ، في الوقت الحاضر ، إن خسارتهم لمدينة البندقية ومزيد من تمركز قوتهم ليسا أبداً لصالح الروس . بما ان النمسويين هم ايضاً امبراطورية سلافية فانهم سيصبحون أكثر عداءاً للموسكوف[٢]. إن الانتقال الكبير لقاعدة آل هابسبورغ [٣] يقود المرء الى ان يخشى ما اذا كان سيدّعون الروس يداعبونهم من اجل هجوم مشترك على تركيا .

---

١ – ملك بروسيا : غليوم بالعربية ، فيلهلم بالالمانية ، وليم بالانكليزية . ا . م .

٢ – اي الروس . ا . م .

٣ – الاسرة المالكة في امبراطورية النمسا . ا . م .

إن أي شيء يمركز البرجوازية هو بطبيعة الحـــال لصالح العمال . في جميع الحـــالات ، إن الســـلم حتى اذا عقد غداً سيكون موقتـــاً اكثر مما كان صلح فيلا فرانكا وزوريخ . وما ان يتحقق « إصلاح الاسلحة » في جميع الجهات ، حتى ينطلق « الضرب بالعصي » من جديد ، كما كان شابر Schapper يقول . وعلى أي حال، بوناپارت ايضاً يحمل على ظهره عبئاً ، وإن كان تشكيل الممالك العسكرية يمنة ويسرة يدخل في اطار مشروع – مشروع « الديمقراطية الكونية »[1] .

و – من ماركس الى كوجلمان

لندن ١٨٦٦/١٠/٩

... الســادة الباريسيون لهم رؤوس مليئة بالجمل البرودونية الفارغة . فهم يثرثرون عن العلم ولا يعلمون شيئاً . وهم يحتقرون كل عمل ثوري ، أي كل عمل ينهض من الصراع الطبقي نفسه ، كل الحركات الاجتماعية الممركزة ، وبالتالي كل الحركات التي تقوم عبر وسائل سياسية (مثلاً تقصير يوم العمـــل بموجب القانون) . تحت حجة الحرية ، والفردية المعادية للحكومة وللسلطة ، هؤلاء السادة – الذين تحملوا ولا يزالون يتحمّلون الاستبداد الاكثر حقارة – ينشرون اليوم اقتصاداً برجوازياً عادياً ، حُسّن مثالياً برودونياً .

---

١ – الذي يُعلنه نابوليون الثالث . ا.م.

(٢) ماركس ، انجلز ، ١٨٦٩ : عن مسألة ملكية الأرض في المانيا ، واللاساليين .

آ — من ماركس الى انجلز

لندن ١٨٦٩/١٠/٣٠

... حتى تفهم رسائل غوغ وبورنهورست تماماً ، عليك ان تعلم ان الفروع العمالية اللاسالية (أو بالاحرى ممثليها) في سويسرة والنمسا والمانيا يصرخون صرخات الموت بسبب قرار بال عن **ملكية الأرض**[١] .

إن الطريقة السخيفة والضعيفة (التي استغلتها شفايتسر الاكثر ذكاء) التي ردّ بها فيلهلم[٢] ورفاقه على عواء ماير الشوابي وبقية السيئي الرغبة من حزب الشعب ، طريقة فظيعة . إن احداً من هؤلاء الحمير لم يفكر يوماً بأن يسأل الذئاب الليبراليين ما اذا لم يكن صحيحاً ان ثمة في المانيا الى جانب الملكية

---

١ — قرار الأممية الاولى في مؤتمر بال ، أيلول ١٨٦٩ ، الذي نص على « حق المجتمع في إلغاء الملكية الخاصة للأرض » . (نقلا عن الناشر السوفياتي) ا.م.

٢ — فيلهلم ليبكنشت (نقلا عن الناشر السوفياتي) ا.م.

الفلاحية الصغيرة ، ملكية للارض كبيرة، هي قاعدة الاقتصاد الاقطاعي الباقي، وما اذا لم يكن من الضروري اثناء الثورة القضاء على هـذه الملكية ، ولو فقط من أجل انهاء الحالة الحاضرة ، وما اذا كان يمكن تحقيق ذلك بطريقـة ١٧٨٩ القديمة. كلا لم يفكروا. هؤلاء الحيريؤمنون بقول مايرالشوابي ان مسألةالارضهي ذات اهمية عملية مباشرة بالنسبة لانكلترة فقط !

ب – من ماركس الى انجلز

مانشستر ١٨٦٩/١١/١

... القرار حول ملكية الارض أحـدث معجزات حقيقية . لأول مرة ، منذ ان بدأ لاسال نشاطه ، يُفرَض على هؤلاء الشبان في المانيـا ان يفكروا ، وهو أمر كان الى الآن يُعتبر نافلاً لا لزوم له . هذا يظهر بوضـوح من رسـالة بورنهورست . وحتى بصرف النظر عن ذلك ، فقد احببتُ تلك الرسالة ، رغم الادعاء وضحالة الثقافة الظاهرين فيها ، فهي تمتاز بروح شعبية صحيّة من المرح الساخر ، وفيما يتعلق بمسألة الرهن فانها تصيب مباشرة النقطة الصحيحة . فضلاً عن ذلك ، ان الناس ينسون الى جانب النقطة الرئيسية ، الملكية الكبـيرة للارض ، ان هناك انواعاً متنوعة من الفلاحين :

١) المزارع مستأجر الارض ، وهو لا يهمّـه ما اذا كانت الارض ملكاً للدولة او لملاّك كبير . ٢) المالك : اولاً ، الفلاح الكبير ، الذي يجب ان نحرّض ضد طبيعته الرجعية الفلاحَ المياوم وأجيرَ المزرعة ؛ وثانياً ، الفلاح المتوسط الذي سيكون هو ايضاً أجيراً رجعياً والذي ليس كثير العدد ؛ وثالثاً ، الفلاح الصغير المديون الذي يمكن إثارة اهتمامه بمعالجـة مسألة الرهن . والى جانب ذلك يمكن بالطبع ان نضيف ان البروليتاريا ليس لها مصلحة في إثارة مسألة الملكية الصغيرة للأرض .

(٣) ماركس ، انجلز ، ١٨٧٠ : الحرب الالمانية ــ الفرنسية الوحدة البسمارركية .

أ ــ من ماركس الى انجلز
لندن ١٨٧٠/٧/٢٨

في يوم الثلثاء الماضي ، أمر المجلس العام بطبع الف نسخة من البيان [١] . وانتظر اليوم البروفات .

إن إنشاء المارسيز في فرنسا مهزلة ككل الامبراطورية الثانية . ولكن هذا الكلب [٢] يشعر على الأقل بأن « الذهاب الى سوريا » [٣] ليس نزهـــة . في بروسيـــا ، إن مسرحية كهذه المسرحية الهزليـــة ليست ضرورية . ونشيد « يا ربّ ، أضع فيك كل ثقتي » ، ينشده غليوم الاول ومعه بسمارك على اليمين وستيبر على اليسار ، هو المارسيز الالمانية . كما في ١٨١٢ ، يبدو البرجوازي ــ

---

١ ــ البيان الاول الصادر عن المجلس العام للأممية عن الحرب الفرنسية البروسية الناشبة . وقد اعتبر الحرب حرباً دفاعية من قبل المانيا ... ا. م.

٢ ــ نابوليون الثالث ، امبراطور الامبراطورية الثانية ١٨٥١ ــ ١٨٧٠ ا. م.

٣ ــ تلميح الى حملة نابوليون الثالث في لبنان ١٨٦٠ ا. م.

الصغير Philistine الالماني مفتوناً ومسحوراً ، ما دام الآن يستطيع ان يطلق العنان لعبوديتـــه الفطرية . مَنْ كان يتصور انه بعد مضي ٢٢ عاماً على ١٨٤٨ ، ستُعطى حرب قومية في المانيا مثل هذا التعبير النظري [١] ؟!

لحسن الحظ ، كل هذا التظاهر ينبع من الطبقة الوسطى . الطبقـة العاملة ، باستثناء المنتسبين مبـاشرة الى شفايتسر ، لا تشـاطر فيه . ولحسن الحظ ، إن حرب الطبقات في البلدين ، فرنسا والمانيـا ، نامية الى درجة انه مـا من حرب تستطيع جدياً ان تعيد عجلة التاريخ الى وراء ...

*

ب – ننقل هنا ماكتبه ماكسيمليان روبل M. Rubel في الكرونولوجيا (الزمنية المسلسلة) الطويلة التي تقدم لطبعـــة « كارل ماركس – المؤلفات – الاقتصاد . الجزء الاول . مكتبة لابلياد ، غاليمار ، باريس، ١٩٦٥ » ، ص١٤٤ بالأرقام الرومانية . ونحن ، اذْ ننقل كلام الخبير الفرنسي الكبير ، فاننـــا لا نشاطره ملاحظاته الشخصية ، بل قَصَدْنا أن ننقل فقرات وجملاً وأفكاراً وردت تحت قلم ماركس ، ولا نجدها دائماً في الرسـائل المنشـورة في الطبعـة السوفياتية « الرسائل المختارة لماركس وانجلز » ، بالانكليزية ، والتي أخـــذنا منها الرسائل السابقة واللاحقة .

يقول روبل – ننقل حرفياً ، كلام ماركس وارد بين مزدوجات . البـاقي

---

١ – هامش ننقله عن الناشر السوفياتي : يقول انجلز في رسالة جوابية تعليقاً على هذا المقطع: « كلما كان البرجوازي الصغير الالماني يركع أكثر أمام ثقته بالله وأمام غليوم الواثق بالله ، كان يصبح اكثر وقاحة إزاء فرنسا . الدعوة القديمة لضم الالزاس – لورين ترفع من جديد بلا تحفظ وفي الصف الاول « صحيفة اوغسبورغ » . ولكن فلاحي اللورين سيعلّمون البروسيين أن القضية ليست بهذه السهولة » .

كلام روبل وتلخيصه لكلام ماركس – :

منذ اعلان الحرب من فرنسا على بروسيا ، يستشعر ماركس ، الذي خيّبت أمله المظاهرات الوطنية في الاوساط الجمهورية الفرنسية ، هزيمة فرنسا . « الفرنسيون بحاجة الى ان يُؤدّبوا . اذا انتصر البروسيون ، فان تركّز سلطة الدولة سيكون مفيداً لتركز الطبقة العاملة الالمانية » . إن هيمنة حركة العمال الالمانية بدلاً من حركة العمال الفرنسية « ستكون في الوقت نفسه هيمنة نظريتنا على نظرية برودون» (رسالة من ماركس إلى انجلز، ٢٠ تموز) . هذا الانشغال ، هذا التحيّز ، دون ان يبرز بوضوح في البيان الأول الذي حرره ماركس باسم المجلس العام للأممية عن الحرب الفرنسية – البروسية ، الا انه يظهر شفافاً في تلميح سريع : « من جهة المانيا ، الحرب حرب دفاعية » . بتعبير آخر ، المانيا تلعب في الحرب وجودها القومي . ولا ينسى ماركس في هذا البيان « وجه روسيا المشؤوم » (٢٦ تموز) . ويكتب ماركس الى بول ولورا لافارغ ، مبدياً قرفه من التظاهرات الوطنية في المعسكرين. « ولكن مما يبعث على العزاء ان الشغيلة يحتجّون في المانيا كما في فرنسا . بالحقيقة إن حرب الطبقات ناميـة في البلدين إلى درجة لا تستطيع معها حرب سياسية ان تعيد عجلة التاريخ الى وراء (...) . أما أنا فأتمنى ان يدمّر البروسيون والفرنسيون بعضهم بعضاً وان ينتصر الالمان في النهاية ، وعلى كل حال هذا ما سيحدث . أتمنى ذلك لأن هزيمة بونابرت ستؤدي على الارجح إلى الثورة في فرنسا ، بينما هزيمة الالمان الاخيرة لن تؤدي إلا الى اطالة وضع الاشياء الراهن لعشرين سنة أخرى » (٢٨ تموز) .

تعليق ا. م. : سنرى ان كون الحرب من جهة المانيا حرب دفاعية أي حرب وجود قومي ليس مجرد « تلميح سريع » بل فكرة اساسية يؤكدها ماركس وانجلز ولينين . وتدخل في النظرة الماركسية – اللينينية للتاريخ .

ا. م.

جـ – من انجلز إلى ماركس

مانشستر ١٥ / ٨ / ١٨٧٠

القضية تبدو لي كما يلي : المانيا قد جُرفت من قبل بادنغه [١] في حرب من أجل وجودها القومي . إذا هزمها بادنغه ، البونابارتية ستعزّز لسنوات والمانيا ستتحطّم لسنوات وربما لأجيال . وفي هذه الحال لا يمكن أن يكون ثمة مجال لحركة عمالية طبقية ألمانية مستقلة ، والنضال من أجل إحياء وجود المانيا القومي سيمتص كل شيء . وفي أحسن احتمال ، سينجر العمال الالمان وراء العمال الفرنسيين ، إذا انتصرت المانيا ستتحطّم البونابارتية الفرنسية حتماً ، وستتخلص أخيراً من الرتل الطويل حول إقامة الوحدة الالمانية ، وسيصبح العمال الالمان قادرين على تنظيم أنفسهم على نطاق قومي مختلف تماماً عن الاطار المهيمن حتى الآن ، والعمال الفرنسيون أياً كان نوع الحكومة التي ستعقب هذه ، سيكون لهم بالتأكيد مجال أكثر حرية مما هو الحال في ظل البونابرتية . إن كل جمهور الشعب الالماني في كل طبقة قد أدرك أن المسألة ، أولاً وفوق كل شيء ، هي مسألة وجود قومي واندفع في المعركة ، وان يعظ حزب سياسي الماني ، في هذه الظروف ، بسياسة المعارضة على طريقة فيلهلم [٢] ، واضعاً شتى ضروب الاعتبارات الثانوية قبل الاعتبار الرئيسي ، يبدو لي شيئاً مستحيلاً .

الى ذلك يجب ان نضيف ان بادنغه ما كان يقدر على القيام بهذه الحرب لولا شوفينية جمهور السكان الفرنسيين : البرجوازية ، البرجوازية الصغيرة ، الفلاحون ،

---

١ – بادنغه : اسم تحقير لنابليون الثالث (نقلا عن الناشر السوفياتي) . ا.م.

٢ – فيلهلم ليبكنشت . ا.م.

وبروليتاريا البناء الهاوسمانية [1] الامبريالية النابعة من الفلاحين ، التي أنشأهـا بوناپارت في المدن الكبرى . وإلى أن تصاب هذه الشوفينية بضربة في رأسها ، بضربة جيدة ونظيفة ، يبقى السلام بين المانيا وفرنسا مستحيلاً . كان يمكن أن يتوقع المرء ان تتولى هـــذا العمل ثورة بروليتارية ، ولكن ما دامت الحرب قد قامت ، لا يبقى للألمان سوى أن يتولوا المهمة بأنفسهم وسريعاً .

والآن تأتي الاعتبارات الثانوية . أن يكون ليبان [2] وبسمارك وشركاهما على دفة القيادة في هذه الحرب ، وان يكون ذلك سيساعـد على تمجيدهم الوقتي اذا ما قادوا الحرب بنجاح ، فان الفضـــل في ذلك يعود إلى وضع البرجوازية الالمانية البائس الحقير . هذا بلا شك شيء مزعج جداً ولكن لا يمكن تبديله . ولكن اذا انطلقنا من هذا الاعتبار لتضخيم خط مناهضة البسماركية ولتحويله إلى مبدأ توجيهي وحيد ، نكون قد ارتكبنا حماقة كبيرة . في المقام الاول ، إن بسمارك ، اليوم كما في ١٨٦٦ ، يؤدي جزءاً من عملنا ، بطريقتـه الخاصة وكأنه لا يقصد ذلك ، ولكنه مع ذلك يؤدي العمل . انـــه يفتح الطريق لنا بشكل أفضل من ذي قبل . فضلاً عن اننـا لم نعد في سنة ١٨١٥ . ان الالمان الجنوبيين هم الآن ملزمون بالدخول في الرايشتاغ [3] وهذا سينمي ثقلاً مقابلاً للبروسية . ثم هناك الواجبات القومية التي ستقع على عاتقـــه والتي ، كما كتبتَ ، ستمنع الحلف الروسي من الخارج . وبوجه الاجمال ، من الحماقـة أن نحاول ، كما يفعل ليبكنشت ، ان نعيد عجلة التاريخ إلى الوراء رجوعاً عن كل ما حصل منذ ١٨٦٦ لمجرد ان ذلك حصل بما لا يتفق مع ميله . بيد أننا نعرف

---

١ ــ نسبة إلى هاوسمان ، محافظ باريس في زمن نابوليون الثالث ، أشرف على إعادة بناء العاصمة وتنظيمها بفتح الشوارع الكبرى العريضة ... ا.م.

٢ ــ اسم تحقير لملك بروسيا غليوم الأول (نقلا عن الناشر السوفياتي). ا.م.

٣ ــ أي برلمان الدولة الألمانية .

ألمانيا الجنوبيين النموذجيين . ليس من شيء يمكن عمله مع هؤلاء المجاذيب .

اعتقد ان جماعتنا تستطيع :

١ — الانضمام الى الحركة القومية — يمكنك ان ترى من رسالة كوجلمان مدى قوة هذه الحركة — بقدر ما وطالما هذه الحركة مقتصرة على الدفاع عن المانيا (الأمر الذي لا يستبعد الهجوم ، في بعض الظروف ، حتى مجيء السلم) .

٢ — في الوقت نفسه ، التأكيد على الفرق بين المصالح القومية الالمانية والمصالح السلالية البروسية .

٣ — العمل ضد أي إلحاق للالزاس — لورين . بسمارك يعرب الآن تلميحاً عن نيته في ضمها الى بافاريا وبادن .

٤ — ما ان تقوم حكومة جمهورية غير شوفينية في باريس ، العمل على صلح شريف معها .

٤ — التأكيد الدائم على وحدة المصالح بين العمال الالمان والفرنسيين الذين لا يؤيدون الحرب والذين لا يحارب بعضهم بعضاً .

٦ — روسيا ، كما في بيان الأممية .

مضحكٌ قول فيلهلم (ليبكنشت) انه نظراً لأن بسمارك شريك سابق لبادنفه (نابوليون الثالث) ، فإن الموقف الصحيح هو البقاء على الحياد . لو كان ذلك هو الرأي السائد في المانيا ، سرعان ما كان سيقوم « اتحاد الراين » من جديد [١] ، والنبيل فيلهلم (ليبكنشت) كان سيرى اي نوع من الادوار سيلعب

---

١ — « اتحاد الراين » (كونفيديراسيون الراين) : عمل « توحيدي » قام به نابوليون الأول في غربي وجنوبي بروسيا وضد الوحدة الالمانية . رغم ان هذا العمل كان « توحيدياً » ، إلا أنه كان موجهاً نحو إبقاء وتحسين وتعميق التجزئة الالمانية — هذا ما نراه في مؤلفات ماركس ، انجلز ، لينين — لصالح فرنسا وهيمنتها . ا.م.

في ذلك، وما اذا كانت ستؤول اليه حركة العمال. إن شعباً لا ينال إلا الضربات والصفعات هو بالحقيقة الشعب المؤهل لصنع ثورة اجتماعية ، وفي الدول الصغيرة العديدة التي يحبّها فيلهلم !!

د – من ماركس الى انجلز

رامسجيت ١٨٧٠/٨/١٧

... فيلهلم يستنتج اتفاقه معي :

١ – من بيان الأممية ، الذي ترجمه اولاً وبالطبع الى لغته الفيلهلمية الخاصة .

٢ – من ظرف كوني قد أيدت البيان الذي أذاعه مع بيل في الرايششتاغ [١] . تلك « لحظة » كانت فيها الصرامة Stickling من أجل المبدأ عملاً شجاعاً ، ولكن لا ينبع من ذلك ابداً ان اللحظة ما زالت مستمرة ، وبالاحرى لا ينبع منها ان موقف البروليتاريا الالمانية تجاه حرب غدت حرباً قومية متضمن في كره فيلهلم لبروسيا . ذلك كما لو اننا ، بسبب كوننا في لحظة محددة رفعنا أصواتنا ضد تحرير ايطاليا « البوناپارتي » ، اعتبرنا من واجبنا

---

١ ــ عند التصويت على قروض الحرب في الرايششتاغ ، استنكف بيل وليبكنشت، وأعربا عن احتجاجهما ضد أي حرب سلالية(نقلا عن الناشر السوفياتي). ونرى في الجملة التالية من رسالة ماركس أن ماركس يعتبر هذا الموقف لحظة جيدة وشجاعة . ولكنه ليس ، بأي حال ، كل الموقف الماركسي من حرب ١٨٧٠، بل ولا جوهر الموقف الماركسي من هذه الحرب «القومية». وهذه النقطة سقطت جزئياً من مقدمة جورج لوكاكش عند وصوله إلى ١٨٧٠ ، على نحو ما ذكرنا . ماركس يدين بوضوح وقوة آراء ليبكنشت الذي ادعى انه لم يخالف ماركس . كما يدين (أنظر نهاية النص) رأي كوجلمان الذي اعتبر الالمان معتدين لانهم يتابعون الحرب حتى النصر على فرنسا ا.م.

الاعتراض على الاستقلال النسبي الذي نالته ايطاليا كنتيجة لتلك الحرب .

إن التعطش الى ضم الالزاس – لورين يبدو مهيمناً في وسطين : وسط زمرة البلاط البروسي ، ووسط وطنيي البيرة في جنوبي المانيا . ذلك سيكون أكبر مصيبة تقع على اوروبا وخصوصاً على المانيا . لا شـــك انك رأيت كثيراً من الصحف الروسية تتكلم منذ الآن عن ضرورة قيام تدخل ديبلوماسي اوروبي يهدف إلى ابقاء ميزان القوى في اوروبا .

كوجلمان يخلط بين حرب دفاعية وعمليات عسكرية دفاعية . وهكذا ، فاذا انهال عليَّ أحد بالضرب في الطريق ، يكون من حقي أن أرد ضرباتـــه وحسب لا أن أسدّد اليه ضربة تسقطه على الارض ، والاّ تحولت إلى معتد ! الحاجة إلى الديالكتيك تفوح من كل كلمة يلفظها هؤلاء .

٥ – من ماركس الى لجنة حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في المانيا ، مدينة برنسفيك .

لندن حوالي ١ / ٩ / ١٨٧٠

... اذا استولى المنتصرون الالمان على الالزاس واللورين فستنضم روسيا إلى فرنسا في الحرب ضد المانيا . ولا حاجة للاشارة الى العواقب الوخيمة .

اذا عقـدوا صلحاً شريفاً مع فرنسا ، فإن هذه الحرب ستحرر اوروبا من الدكتاتورية الموسكوفية ، وستَحُلّ بروسيا في المانيا ، وتسمح للقسم الغربي من القارة ان « يتطور في سـلام ، واخيراً ستساعد الثورة الاجتماعية الروسية – وعناصر هذه الثورة لاتحتاج الا الى دافع كهذا من خارج تطورها – على الانفجار لصالح الشعب الروسي ايضاً .

بيد أنني أخشى ان يتابع اللصوص والمجاذيب لعبتهم المجنونة دونما عائق ما لم ترفع الطبقة العاملة الالمانية صوتها في كورس جماهيري ...

الحرب الحاضرة تدشن عهداً جديداً في التاريخ العالمي بالبرهان الذي أعطته المانيا حتى بدون النمسا الالمانية على أنها قادرة ان تسير في طريقها بشكل مستقل عن الاقطار الاخرى . أما كونها وجدت وحدتها اولاً في البراكات البروسية فعقاب استحقتته تماماً . ولكن نتيجة قد تحققت مباشرة حتى بهذا الشكل . إن العوبات من نوع النزاع بين الحزب القومي الليبرالي لألمان الشمال وحزب الشعب لألمان الجنوب لن تعرقل الطريق دون فائدة بعد الآن . ستنمو العلاقات على نطاق واسع وستصبح أبسط . واذا لم تلعب الطبقة العاملة الألمانية بعد ذلك الدور التاريخي المؤهلة له فان ذلك سوف يكون خطأها هي . هذه الحرب قد نقلت مركز ثقل حركة الطبقة العاملة في القارة من فرنسا الى المانيا . وهذا يضع مسؤولية مضاعفة على عاتق الطبقة العاملة الالمانية .

(٤) من مؤلفات كلاسيكية لأنجلز : الوحدة الالمانية ، التاريخ العالمي .

آ ـ من مؤلف « حرب الفلاحين » ، صدر في ١٨٥٠

في هذا المؤلف يدرس انجلز حرب الفلاحين التي هزت المانيا في القرن السادس عشر . و ينتهي الى عقد مقارنة بين فشل حرب الفلاحين وفشل ثورة ١٨٤٨ فيقول :

« هنا ايضاً ، يظهر التشابه مع حركة ١٨٤٨ — ١٨٥٠ . في ١٨٤٨ ايضاً ، دخلت مصالح الطبقات المختلفة المتعارضة في تصارع ، اذ كانت كل طبقة تعمل

لنفسها (...) أما فيما يتعلق بالضيق المحلي اخيراً ، فان هذا الضيق ما كان يمكن أن يكون في ١٥٢٥ عند الفلاحين أكبر منه في سائر الطبقات التي شاركت في حركة ١٨٤٨ . إن المئة ثورة محلية ، التي أعقبتها مئة ردة محلية لم تصادف أية مقاومة كالاولى ، وبقاء الدول الصغيرة ، تخاطبنا بلغة واضحة بما فيه الكفاية . إن من يستطيع ، بعد الثورتين الالمانيتين لعام ١٥٢٥ وعام ١٨٤٨ والنتائج التي حصلنا عليها ، أن يواصل التخريف عن الجمهورية الفيدرالية الاتحادية جدير بأن يوضع في مستشفى المجانين » [١].

ب – من مؤلف « الثورة والثورة المضادة في المانيـــا » ، صدر في ١٨٥١ ، ١٨٥٢

في هذا المؤلف – الذي يشكل أهم المؤلفات الثلاثة التي جمعها الناشر الفرنسي Editions Sociales في كتاب واحد بعنوان « الثورة الديمقراطية البرجوازية في المانيا » ، تحتل الوحدة الالمانية مكاناً مركزياً .

يقول انجلز : « ان فكرة الوحدة الالمانية ... كانت واسعة الانتشار ، لاسيما في الدول الصغيرة . منذ حل الامبراطورية الالمانية من قبل نابوليون الاول [٢] ، كانت الدعوة الى وحـدة الاعضاء المبعثرة لجسد المانيا التعبير الأعمّ عن السخط ضد الاوضاع القائمة ، وبالحقيقة خاصة في الدول الصغيرة ، حيث نفقات البلاط ، والادارة ، والجيش ، أي باختصار ثقل الضرائب كان يزداد بما يتناسب طرداً

---

١ – علامة التشديد من انجلز وهي الفكرة الوحيـــدة التي عليها علامة التشديد في كل مؤلفه .

٢ – عاشت هذه الامبراطورية – الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة – رسمياً حتى ١٨٠٧ . ولكنها كانت منذ قرون عديدة امبراطورية شكلية ليس لها وجود حقيقي .

مع صغر وعجز الدولة . ولكن الاحزاب كانت متخالفة على مسألة ماذا يجب ان تكون عليه هذه الوحدة الالمانية عند تحقيقها . البرجوازية التي كانت لاتريد هزة ثورية عميقة ، كانت تكتفي بالحل الذي كانت تعتبره ، كما رأينا ، «عملياً» ، أي بوحدة لكل المانيا ، باستثناء النمسا ، تحت سيادة حكومة دستورية لبروسيا ؛ وبالتأكيد ، ذلك كان كل ما يمكن عمله في ذلك الوقت دون إطلاق عواصف خطرة . البرجوازيون الصغار والفلاحون ، بقدر ما كان هؤلاء الاخيرون يهتمون بأشياء كهذه ، لم يتوصلوا في يوم من الايام الى تعريف ما لهذه الوحدة الالمانية التي كانوا يطالبون بها بكل هذه الضجة ، عدد صغير من الحالمين ، معظمهم من الرجعيين الاقطاعيين ، كانوا يحلمون باحياء الامبراطورية الالمانية ؛ حفنة من الجهلة ، الراديكاليين المزعومين ، المعجبين بالمؤسسات السويسرية ، التي لم يكونوا بعد قد اختبروها عملياً ، والتي فيما بعد خيّبت آمالهم بشكل هزلي جداً ، كانوا ينادون بجمهورية فيدرالية ، والحزب الاكثر تطرّفا [1] هو وحده الذي تجرأ آنذاك على المناداة بجمهورية المانية ، واحدة لا تتجزأ . بحيث ان الوحدة الالمانية كانت هي نفسها مسألة حاملة انقسام ، وخلاف ، بل وفي بعض الحالات ، حاملة حرب أهلية » .

ويحمل انجاز بشدة على الجمعية الوطنية التي انعقدت في فرانكفورت . يقول انجاز :

«لو كان لهذه الجمعية أقل طاقة ... لكانت قد أعلنت نفسها التعبير الشرعي الوحيد لإرادة الشعب الالماني السيدة وأعطت كلاً من مراسيمها قوة القانون .

---

١ — « المقصود الشيوعيون برئاسة ماركس ، والعناصر المتقدمة اليسارية من الحزب الديمقراطي الذين كانوا تحت نفوذ الشيوعيين، لا سيما في ولايات الراين » . (ملاحظة من «هيئة التحرير ») » . نقلاً عن الناشر الفرنسي Editions Sociales ، دار الحزب الشيوعي الفرنسي .

لكانت ، قبل أي شيء ، أمّنت قوة منظمة ومسلّحة في البـــلاد ، قادرة على سحق أية معارضة من جانب الحكومات . وذلك كله كان شيئاً سهلاً سهلاً جداً، في تلك الفترة الاولى من الثورة . ولكن ذلك معناه انتظار شيء كثير من جمعية غالبية أعضائها من المحامين الليبراليين والاساتذة المذهبيين المدّعين ... وهكذا رأينا مشهداً فريداً ، مشهدَ جمعية تدعي انها الممثل الشرعي الوحيد لأمة عظيمة سيدة ، ولا تملك لا إرادة ولا قوة فرض الاعتراف بحقوقهـــا ... بدلاً من ان تحقق الوحدة الالمانية التي طال انتظارها ، لم تسقط من عرشه أتفه أمير من الأمراء الذين يحكمون المانيا ؛ لم تبادر إلى أي عمل يستهدف توثيـــق الروابط بين ولاياتها المختلفة ؛ لم ترفع إصبعها الصغير لإسقاط الحواجز الجمركية التي كانت تفصل هانوفر عن بروسيا وبروسيا عن النمسا؛ لم تقم بأدنى محـــاولة لإلغاء الرسوم البشعة التي تقيد في كل مكان الملاحـة النهرية في بروسيا . ولكن بقدر ما كان عملها قليلاً ، كانت خطبها كثيرة . أنشأت أسطولاً المانياً ... على الورق . ضمت بولونيا وشلسفيغ ، سمحت للنمسا الالمانية بأن تشن الحرب على ايطاليا ، ولكنها منعت الطليان من ملاحقة النمسويين إلى عقر دارهم (...) إن الشعب الالماني ، الذي كان يستشعر بعمق ضرورة الانتهاء مـــن التجزئـة البغيضة التي تفتّت وتبيد القوة الجماعية للأمة ، كان ينتظر ، لفترة ما على الاقل أن يرى في الجمعية فجر عهد جديد . ولكن السلوك الطفولي لهذا الاجتماع مـن الحكماء بَرَّدَ بسرعة الحماس القومي ... » .

جـ – مقدمة لمؤلف « حرب الفلاحين » ، ١٨٧٤

يقول انجلز : « (...) وهكذا ، فان مصير بروسيا الغريب قد أراد أن تُنجز ، حوالي نهاية هـــذا القرن ، تحت شكل البونابارتية السعيد ، ثورتهـــا البرجوازية التي كانت بدأتها في ١٨٠٨ – ١٨١٣ وأوصلتها بعض الشيء في ١٨٤٨

وإذا سار الأمر على ما يرام ، إذا بقي العالم هادئاً ، وإذا بلغنا درجة كافية من الشيخوخة ، سيكون ربما بامكاننا ان نرى ، حوالي سنة ١٩٠٠ ، ان حكومة بروسيا قد ألغت حقاً كل المؤسسات الاقطاعية ، وان بروسيا وصلت أخيراً الى النقطة التي كانت عندها فرنسا في ١٧٩٢ ... ان البرجوازية تشتري تحررها الاجتماعي التدريجي لقاء تخلٍ مباشر عن سلطتها السياسية ذاتهـــا . وبطبيعة الحال ، ان الدافع الرئيسي الذي يجعل هذا الاتفاق مقبولاً للبرجوازية ، ليس خوفها من الحكومة بل خوفها من البروليتاريا .

بالنسبة لمؤرخ المستقبل ، ان زئـــير مدافع سبيكرن ومارس — لا - تور وسيدان وكل ما نجم عنه سيكون له أهمية أقل في تاريخ المانيا ١٨٦٩ - ١٨٧٤ مما لنمو البروليتاريا الالمانية غير المدّعي الهادىء والمتواصل . في سنة ١٨٧٠ ، كان على العمال الالمان ان يعانوا محنة قاسية : الاستفزاز البونابارتي الى الحرب ، ونتيجتها الطبيعية : الحماس القومي العام في المانيا . العمال الالمـــان لم يدّعوا أنفسهم لحظة للتضليل . ولم يبدوا أدنى شوفينية قوميـــة . في وسط سكرة الانتصارات، ظلوا باردي الرأس، وطالبوا بـ « سلم عادل مع الجمهورية الفرنسية وبدون الحاقات » (...) .

ان العمال الألمان لهم ، على عمال باقي اوروبا ، مزيّتان رئيسيتان . اولاً ، انهم ينتمون الى الشعب الأكثر ميلاً للنظرية والتنظير في اوروبا ؛ وفضلاً عـــن ذلك ، فقـــد احتفظوا بالحسّ النظري الذي زال تماماً في المانيـــا « المثقفة » المزعومة . لو لم يكن هناك سابقاً الفلسفة الالمانية ، ولا سيما فلسفة هيغل ، لما تأسست أبداً الاشتراكية العلميـــة الالمانية الاشتراكية العلمية الوحيدة التي وُجدت — (...) والمزية الثانية أن الألمان جاؤوا الى حركة العمال الأخيرين (...) ان الاشتراكية منذ أن أصبحت علماً ، تريد أن تُمارَس، أي أن تُدرَس ، كعلم (...) » .

٥ . مقدمة انجلز لمؤلف ماركس « الصراعات الطبقية في فرنسا ١٨٤٨ – ١٨٥٠ » ، ١٨٩٥

في هذه المقدمة – التي تعرف أحياناً باسم « وصية انجلز » – يقول انجلز : ان التاريخ قد خطأنا . ان انتصار الثورة البروليتارية كان مستحيلاً في ١٨٤٨ بل وفي ١٨٧١ .

بانتصار انقلاب لويس – بونابارت (أي نابوليون – الثالث) في ١٨٥١ « انغلق طور الثورات من تحت ، للحظة ؛ وأعقبه طور ثورات من فوق . ان الردة الامبراطورية لعام ١٨٥١ أعطت دليلاً جديداً على نقص نضج المطامح البروليتارية لهذا العهد . ولكن كان يترتب عليها ان تخلق هي نفسها الشروط التي لا بدّ أن تنمو هذه المطامح في اطارها . الهدوء الداخلي أمّن النمو الكامل للنهوض الصناعي الجديد ؛ وضرورة اشغال الجيش وتحويل التيارات الثورية نحو الخارج ولّدا الحروب التي سعى فيها بونابارت ، بحجة احقاق « مبدأ القوميات » ، الى لَمْلَمَة بعض الالحاقات لفرنسا . ومقلده بسمارك تبنى السياسة ذاتها لبروسيا ، قام بانقلابه ، بثورته من فوق في ١٨٦٦ بوجه الكونفيدراسيون الالماني والنمسا وبوجه غرفة المجلس البروسي . ولكن اوروبا صغيرة لا تتسع لبونابارتين ، فأرادت سخرية التاريخ أن يقلب بسمارك بونابارت وان يقيم غليوم ملك بروسيا ليس الامبراطورية الالمانية الصغيرة [1] وحسب ،

---

١ – أي الامبراطورية الالمانية بدون النمسا التي انشئت في ١٨٧١ تحت هيمنة بروسيا . (نقلاً عن الناشر السوفياتي ، ماركس – انجلز : المختارات ، طبع موسكو) . ا . م .

بل أيضاً الجمهورية الفرنسية أيضاً . فكانت النتيجة العامة أنه في اوروبا ، تحقق فعلاً استقلال وتوحيد الأمم الكبرى ، باستثناء بولونيا وحدها . ان ذلك تمّ في حدود متواضعة نسبياً ، ولكن مع ذلك في مقاييس كافية تتيح لسير نمو الطبقة العاملة أن يتقدم دون أن يصادف عقبات جدية في التعقيـــدات القومية . ان قابري ثورة ١٨٤٨ كانوا قد أصبحوا منفذي وصيتها . والى جانبهم ، كان ينتصب وريث ١٨٤٨ ، البروليتاريا ، في الأممية .

بعد حرب ١٨٧٠ – ١٨٧١ ، اختفى بونابارت من المسرح ، وانتهت رسالة بسمارك ، بحيث أمكنه أن ينزل من جديد إلى مرتبة نبيل إقطاعي عـادي . ولكن كومونة باريس هي التي تؤلف نهاية هذا الطور . إن محاولة خبيثة قام بها تيير Thiers ليَسرق من الحرس الوطني في باريس مدافعه ولّدت انتفاضة منتصرة . وتبين من جديد ان في باريس لم يعد هناك ثورة ممكنة سوى ثورة بروليتارية . بعد النصر ، آل الحكم بصورة تلقائية تماماً وبشكل لا جدال فيه اطلاقاً الى الطبقة العاملة . ورأينا مرة أخرى كم ان حكم الطبقة العاملة هـذا لا يزال مستحيلاً بعد مضي عشرين سنة على العهد الذي نصفه هنا [1] . من جهة ، فرنسا خطأت باريس ، ومن جهة ثانية ، تآكلت الكومونة في الخلاف العقيم بين حزبيها ، الأكثرية البلانكية والأقلية البرودونية ، ولم يكن أحد مـــن الحزبين يعرف ما يجب عمله . ان هدية النصر في ١٨٧١ لم تعط ثماراً اكثر مـا أعطت ضربة ١٨٤٨ » .

ويتابع انجلز شارحاً تغـــير ظروف الانتفاضة وشروط النضال ، مبيّناً النمو الهائل لحزب البروليتاريا الالمانية الظاهر في الانتخابات المتعاقبة .

---

١ – المقصود : عهد ١٨٤٨ – ١٨٥١ الموصوف في كتاب ماركس . ا . م .

(٥) لينين : من كتاب « الاشتراكية والحرب » : عهد ١٧٨٩ — ١٨٧١ الحرب الالمانية — الفرنسية لعام ١٨٧٠

فيما يلي ننقل ما ورد على لسان لينين في مؤلفه الكلاسيكي « الاشتراكية والحرب » الصادر في ١٩١٥ بالروسية والالمانية والفرنسية والنرويجيـــة [١] . ننقل المقاطع الـــتي تتصل بتاريخ القرن التاسع عشر والمسألة القومية وحرب ١٨٧٠ ، الخ . والمعروف أن المؤلف المذكور يكشف الطابع الامبريالي للحرب العالمية التي نشبت في ١٩١٤ ويندد بالاشتراكية الشوفينية المهيمنة في الأمميـــة الثانية . وفي مطلع المؤلف ، يميز لينين تمييزاً صارماً بين الطورين التاريخيين، بين حرب ١٩١٤ وحروب ما قبل ١٨٧١ (حتّى ١٨٧١) .

آ . يبدأ لينين بتحديد « **موقف الاشتراكيين من الحروب** » : الاشتراكيون يدينون الحروب كأعمال بربرية . « ولكن موقفنا يختلف عن موقف المسالمين البرجوازيين والفوضويين » ... « نحـن نعترف بضرورة دراسة كل حرب على حدة تاريخياً (من وجهة نظر المادية الجدلية لماركس) » (ص ١) . ثم يخصّص المقطع الثاني لموضوع « **النماذج التاريخية لحروب الزمن الجديد** » فيقول (ننقل المقطع كاملاً) :

« لقد دشنت الثورة الفرنسية العظمى عهـــداً جديداً في تاريخ البشرية . منذ ذلك الحين حتى كومونـــة ، باريس ، أي منـــذ ١٧٨٩ حتى ١٨٧١ ، كان أحـــد نماذج الحروب هو الحروب ذات الطابـــع التقدمي

---

١ — موجود في كراس خاص بالفرنسية ، بالانكليزية ، **بالالمانيـــة** ، **بالعربيـــة** ، الخ طبع موسكو ، وفي المؤلفات الكاملة . هذا المؤلف صدر بتوقيع لينين وزينوفييف ، في مجموعة مؤلفات وضعها القائدان البولشفيان .

البرجوازي ، حروب التحرر القومي . بتعبير آخـــر ، كان المحتوى الرئيسي والمدى التاريخي لهذه الحروب هما الإطاحة بالاستبداد والاقطاعية ، نسفها ، زعزعـــة النير الاجنبي . تلك كانت إذن حروباً تقدمية ؛ ولذا ، فـــان كل الديمقراطيين الشرفاء والثوريين وكذلك كل الاشتراكيين ، في الحروب من هـــذا النوع ، قد أظهروا دائماً تعاطفهم مع نجاح البلد (أي البرجوازية) الذي ساهم في قلب أو تقويض أخطر قواعد الاقطاعية والاستبداد والاضطهاد المفروض على الشعوب الاجنبية . هكذا ، كان هناك في حروب فرنسا الثورية عنصر استيلاء ونهب أراضي الغير من قبل الفرنسيين ، غير أن ذلك لا يغير شيئاً في المـــدى التاريخي الجوهري لهذه الحروب ، التي كانت تدمّر وتزعزع إقطاعية واستبدادية كل اوروبا القديمة ، كل اوروبا القنانة . وفي الحرب الفرنسية – الالمانية ، المانيا سلبت فرنسا ، ولكن هذا لا يغير شيئاً من المدى التاريخي الجوهري لهـــذه الحرب التي حررت عشرات الملايـــين من الالمـــان من التجزّؤ الاقطاعي ومن الاضطهاد المفروض عليهم من قبـــل حاكمَيْن مستبدين هما القيصر الروسي ونابوليون الثالث » (ص ٢) .

ب . ويتابع لينين في المقطع التالي تحت عنوان « **حرب هجومية أم حرب دفاعية ؟** » (ص ٢) فيقول :

« ان عهد ١٧٨٩ – ١٨٧١ قد ترك آثاراً عميقة وذكريات ثورية . قبـــل الإطاحة بالاقطاعية والاستبدادية والنير الاجنبي ، لم يكن ثمة مجال لنمو نضال البروليتاريا من أجل الاشتراكية . عند الحديث عـــن الطابع المشروع للحرب « الدفاعية » بالنسبة لحروب عهد كهذا ، ان الاشتراكيين قد سعوا دائمـــاً إلى الاهداف الرامية الى ثورة ضد نظام العصور الوسطى والقنانة . ان الاشتراكيين قصدوا دائماً بحرب « دفاعية » حرباً « عادلة » بهذا المعنى (ف . ليبكنشت قال ذلك ذات يوم) . بهذا المعنى فقط كان الاشتراكيون يقرّون ومـــا زالوا

يقرون الطابع المشروع ، التقدمي ، العادل لـ « الدفاع عن الوطن » او لحرب « دفاعية » . مثلاً ، إذا قامت مراكش غداً باعلان الحرب على فرنسا ، والهند على إنكلترة ، وفارس والصين على روسيا ، الخ ، تلك ستكون حروباً « عادلة » ، « دفاعية » ، أياً كان المعتدي الأول ، وكل اشتراكي سيتعاطف مع انتصار الدول المضطهَدة ، التابعة ، التي لا تتمتع بكامل حقوقها ، ضد الدول « العظمى » المضطهِدة ، الاستعبادية ، الغاصبة » .

ج . وفي مقطع آخر من وسط الفصل الاول ، تحت عنوان « **الاستشهادات الكاذبة بماركس وانجلز** » ، يفنّد لينين منطق بليخانوف ، لنش ، دافيد ، كاوتسكي ، الذين يستندون على مواقف ماركس وانجلز من حروب القرن التاسع عشر (١٨٥٤ – ١٨٥٥ ، ١٨٧٠ – ١٨٧١ ، ١٨٧٦ – ١٨٧٧ ، أزمة ١٨٩١) ويسحبونها على الزمن الحاضر ، لتبرير سياسة « الدفاع عن الوطن » في الحرب الامبريالية العالمية ، فيقول :

« كل هذه الاستشهادات ما هي إلا تشويه بغيض لمفاهيم ماركس وانجلز خدمة للبرجوازية والانتهازيين ، كما ان كتابات الفوضويين غيوم Guillaume وشركاه تشوه مفاهيم ماركس وانجلز تبريراً للفوضوية . إن حرب ١٨٧٠ – ١٨٧١ كانت من جهة المانيا حرباً تقدمية تاريخياً حتى هزيمة نابوليون الثالث الذي كان بالاشتراك مع القيصر ، قد اضطهد طويلاً المانيا ، بتغذيته فيها النبعثر الاقطاعي . وما ان تحولت الحرب الى نهب فرنسا (ضم الالزاس واللورين) حتى أدان ماركس وانجلز الالمان بحزم . فضلاً عن ان ماركس وانجلز ، منذ بداية هذه الحرب ، كانا قد أيدا رفض ببل وليبكنشت التصويت على القروض وأوصيا الاشتراكية – الديمقراطية بعدم الاندماج مع البرجوازية بل النضال من أجل صيانة المصالح الطبقية البروليتارية الخاصة . إن سحب تقييم هذه الحرب ، التقدمية البرجوازية والقومية التحررية ، على أرض الحرب الامبريالية الحاضرة ، هو ضحك على الحقيقة . والأمر كذلك ، وبشكل اكثر

حدّة ولفتاً للانتباه ، بالنسبة لحرب ١٨٥٤ – ١٨٥٥ ، وبالنسبة لجميع حروب القرن التاسع عشر، حين لم يكن هناك لا امبريالية راهنة ، ولا شروط موضوعية ناضجة للاشتراكية ، ولا احزاب اشتراكية جماهيرية في كل الاقطار المحاربة ، أي ان الشروط كانت غير متوفرة ، نقصد الشروط التي منها استمد بيان بال [1] خطة « الثورة البروليتارية » بالارتباط مع الحرب بين الدول الكبرى .

الاستنجاد اليوم بموقف ماركس إزاء حروب عصر البرجوازية التقدمية ونسيان قول ماركس « ليس للعمال وطن » ، وهو القول المرتبط على وجه التحديد بعصر البرجوازية الرجعية التي فات أوانها ، بعصر الثورة الاشتراكية ، هو تشويه مقصود لماركس وإحلال وجهة النظر البرجوازية محل وجهة النظر الاشتراكية » .

د . تعليق . ا . م :

هذه النصوص اللينينية – وهناك نصوص أخرى كثيرة مشابهة – واضحة كل الوضوح . ولكن ليس خسارة لأحد ان نقدم بعض الملاحظات المتعلقة مباشرة بحوار الزميل بسام طيبي معنا ، ما دام الزميل مصرّاً في مقاله الثاني ورغم وضوح مقالنا الاول على عدم رؤية بعض الأشياء ، وما دامت هذه الملاحظات تأتي على لسان لينين (الذي عاش بعد وقوع وقائع القرن الماضي ، بعد مضي التجربة) وما دام أكثرها يبدو معروفاً بديهياً لدى ماركسيي عصر لينين وقبله (فيلهلم ليبكنشت ، كاوتسكي ، بليخانوف ، لينين، كارل

---

١ – بيان المؤتمر الاشتراكي الدولي في بال ١٩١٢ ضد الحرب الامبريالية القادمة . ا . م .

ليبكنشت [1] الخ) ، بل ولدى التحريفيين لنش ودافيد وبرنشتاين الذين يستندون على مواقف ماركس وانجلز (يعرفونها جيداً بعكس الزميل طيبي) ويسحبونها على حرب ١٩١٤ .

أما الذين يرفضون مواقف ماركس وانجلز فهم « المسالمون البرجوازيون والفوضويون » (الذين يتبنون أيضاً مواقف جزئية مبتورة لماركس وانجلز ويشوّهونها) . هذا أولاً .

وثانياً – خلافنا مع الزميل طيبي في مقاله الثاني على فترة ١٧٨٩ – ١٨٧١ . هذه الفترة بالذات هي كما يقول لينين « عصر جديد في تاريخ البشرية » . وبخلاف ما يقول الاخ بسام ، إن « الدور التقدمي للقومية » لا ينتهي في نهاية القرن الثامن عشر . بالعكس ، هذا الطور التاريخي ١٧٨٩ – ١٨٧١ هو الطور الهام الحاسم في مفهوم التاريخ ومفهوم الثورة الماركسيين اللينينين . وهو يشهد أكثر من الطور السابق (السابق لعام ١٧٨٩) « حروباً ذات طابع تقدمي برجوازي حروب تحرر قومي » . وهذه الحروب ليست موجهة « ضد الاقطاع والاستبداد والكنيسة » فقط ، بل ضد « النير الاجنبي » ايضاً . والحروب القومية الالمانية مثال ونموذج عنها [2] ، بما فيها حرب ١٨٧٠ .

---

١ – تذكر مقدمة الناشر السوفياتي أن « جماعة كارل ليبكنشت » (وروزا لوكسمبورغ في قيادتها) هي التي تولت نشر كراس لينين بالالمانية في ألمانيا .

٢ – في حملة لينين على « شيوعيي اليسار » ، « فرسان الجملة الثورية » (بوخارين ورفاقه) أيام أزمة صلح برست ليتوفسك (شباط ١٩١٨) ، ذكر لينين عشرات المرات صلح تيلسيت الذي فرض على بروسيا والمانيا في ١٨٠٧ من قبل نابوليون الاول وقيصر روسيا . وما من مرة اعتبر التقدمية في صف نابوليون الأول والرجعية في صف بروسيا بالتمام والكمال . بالعكس ، لم يخشَ لينين من عقد مشابهة دائمة متكررة بين روسيا السوفياتية في صلح برست الاستعبادي =

ثالثاً – حرب المانيا ضد فرنسا في ١٨٧٠ تقدّمية مثل حروب الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ ضد اوروبا الرجعية . « لقد حرّرت عشرات الملايين من الالمان من التجزئة الاقطاعية ومن اضطهاد نابوليون الثالث وقيصر روسيا » . هذا هو « مداها التاريخي الجوهري » رغم عنصر النهب الملازم لها (كما في حروب الثورة الفرنسية !) .

رابعاً – المانيا في ١٨٥٠ – ١٨٧٠ تعاني من الاضطهاد الاجنبي الفرنسي – الروسي – والتجزئة الالمانية هي الشكل الرئيسي لهذا الاضطهاد – مثل مراكش والهندوايران والصين في ١٩١٥ . ومثلهم « دافعت عن الوطن »، قامت بحروب « دفاعية » تقدمية مشروعة .

خامساً – « قبل الاطاحة بالاقطاعية والاستبداد والنير الاجنبي ، لم يكن ثمة مجال لنمو نضال البروليتاريا من اجل الاشتراكية » . هذا ما لم يره « الفوضويون » . وهذا ما لا يراه ٩٠ ٪ من « ماركسيي » العالم العربي اليوم . عاشوا حياتهم في اليمين ، نافين مبدأ تحويل الثورة القومية والديمقراطية الى ثورة اشتراكية ، ثم قفزوا الى أقصى « اليسار » ، إلى ثورة « اشتراكية » بلا قومية ولا ديمقراطية . انهم « يحرقون المراحل »، يمزقون حركة الجماهير ، بحجة انشاء « حزب البروليتاريا »(!)، فيمرقلون ويخربون انشاء حزب البروليتاريا الجماهيري .

= وبروسيا الملكية الاقطاعية البرجوازية في صلح تيلسيت الاستعبادي (واعتبر صلح تيلسيت كثر إجحافاً وخطراً !) ، مشابهة بين إمبريالية نابوليون الاول وامبريالية الماني ١٩١٨ ، أبين النهوض القومي الألماني على يد الوزراء المصلحين البروسيين شتاين وشارنهورست وغنايزناو في ١٨٠٧ – ١٨١٢ في ظل الصلح الاستعبادي والنهوض المطلوب لروسيا السوفياتية والثورة البروليتارية العالمية على يد الماركسيين الثوريين في ظل صلح برست الأمبريالي . لينين بعيد كلياً عن مفهوم « القومية الانسانية » و « القومية المضادة » للماركسيين الاميركان وتلميذهم العربي في فرانكفورت . ا.م.

سادساً – هناك فرق كبير ، جوهري ، بين وضع شعـــوب المستعمرات في القرن العشرين (عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالمية) ووضع المانيا في اواسط القرن التاسع عشر (عصر البرجوازية الصاعدة رغم ظهور « البيان الشيوعي ») . ولكن هناك قاسم مشترك بين الوضعين ، وهذا القاسم المشترك هو ما يجعل ان الوضعين مسألة قومية ، وحركة تحرر قومي .

سابعاً – الأحزاب الشيوعية الستالينية في الوطن العربي – وامتداداتهـــا الحالية ، بما في ذلك الجماعات « الصينية » المحلية ، ومضافاً اليهـا تسعة أعشار الماركسيين الجدد – أخطأت وتخطىء على كل اللوحات :

آ – لم تر الفرق بين « القومية العربية » و « القومية الالمانية » ، بين الوحدة العربية والوحدة الالمانية . وهذا الفرق هو الكولونياليـة وعصر الامبريالية ، عصر الثورة الاشتراكية العالمية .

ب – أدانت « القومية الالمانية » و البسماركية ووحدة ١٨٧٠ ، دونمـــا تمييز ، مخالفة على طول الخط مواقف ونصوص ماركس وانجلز ولينين .

حـ – ثم رأت الفرق بين عرب القرن العشرين والمان القرن التاسع عشر – . بعض الماركسيين الجـــدد رأوا الفرق منـذ سنوات – . ولكنهم – لكن الفريقين – جعلوه مطلقاً واستمرّوا على ب: الحملة على القومية الالمانية البسماركية الخ وعلى « القوميات الاوروبية » الخ مما دفعهم في اتجاه اخراج « العنصر » (؟) élément (؟) القومي من النضال العربي الحاضر . في منظوراتهـــم ، يبدو النضال العربي الراهن نضالاً « وطنيـــاً » ونضالاً « ضد (!؟) الامبرياليـة » وهلمجرا ، ولكنه لا يبدو نضالاً قومياً . الوحدة القومية العربية خارج حقل النظر والعمل. الاستغلال والاضطهاد الامبرياليان يظهران في شكل «اقتصادي» صرف أو في شكل اقتصادي أضيف اليه الاحتلال والقواعـــد و «المشاريع »

والحملات الاستعمارية التآمرية الخ الخ ولا يظهران في شكل تجزئة ، في شكل تغذية التجزؤ والتبعثر القومي . مع ان ماركس وانجلز ولينـــين وسلسلة من الماركسيين بينوا ان التجزئة الالمانية كانت الشكل المكثف والمركز للاضطهاد القومي النازل بألمان القرن التاسع عشر ، بألمان ما قبل عصر الامبريالية !

(٦) لينين : عن شمولية وعالمية المسألة القومية في عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالمية

إن أحـد الاخطاء الكبيرة التي يقع فيها الزميل بسام طيبي وتسعـة أعشار الماركسيين في البلاد العربية من المدرستين القديمة والجديدة هو تصورهم ان المسألة القومية في العصر الجديد قد انطفأت تمامـاً في الغرب ولم تنبعث ولن تنبعث . إنها في نظرهم محصورة في الشرق ، في « العالم الثالث » الـخ ، حيث تظهر فقط كـ « مسألة كولونيالية » لا كمسألة « قومية » ، فقط كـ « حركة تحـــرر وطني » لا كحركة قومية قوامها وهدفهـا ، أي « محتواها الجوهري ومداها التاريخي » الأمة ، الدولة القومية ، الخ .

وقد بيّنا ان هذا الموقف يتعارض مع اللينينية ، ومع المفهوم الماركسي — اللينيني للعصر كله ، لكل عصور الرأسماليـــة ، وخصوصاً لعهد الرأسمالية الامبريالية المحتضرة : لأن الرأسمالية عالمية (تتضمّن استغلال أمة لأمة وشعب لشعب وقطر لقطر وإقليم لإقليم وطائفة لطائفة وقارة لقارة وعرق لعرق الخ الخ داخل عالم متنوع موحـــد) ولينن فقط استغلال طبقة لطبقة داخل أمـــة برجوازية نموذجية خيالية ، لذلك ليس من ثورة اجتماعية خالصـة ، طاهرة . وقد نقلنا عدداً من افكار ونصوص لينين الرئيسية (١٩١٦ — ١٩٢٣) . فيما يلي بعض النصوص :

أ – من خطاب لينين أمام المؤتمر الثاني لعامة روسيا للمنظمات الشيوعية لشعوب الشرق ١٩١٩/١١/٢٢

يقول لينين : «... بريطانيا وفرنسا منتصرتان ، ولكنهما غارقتان في الديون لاميركا . . إن كون الامبريالية الاميركية تعمل بوقاحة يظهر في كون العملاء الاميركان يشترون الرقيق الابيض ، النساء والبنات ، ويشحنونه إلى اميركا لغرض الدعارة . . وتقع صدامات مع العملاء الاميركان في بولونيا وبلجيكا . ذلك مثل صغير عما يحدث على نطاق واسع في كل بلد صغير ينال مساعدة من دول الاتفاق[١] . خذوا بولونيا مثلاً : تجدوا فيها العملاء والمستغلين الاميركان يشترون كل ثروات بولونيا . . بولونيا يشتريها العملاء الاميركان . لم يعد فيها معمل أو فرع صناعي الا وتذهب أرباحه إلى جيوب الاميركان . حتى ان الاميركان شرعوا يستعبدون فرنسا « العظيمة الحرّة المنتصرة » ، التي كانت قبل قليل بلد مرابين . .

لقد حاولت دول الاتفاق ان تقود الحرب[٢] بقوى بلدان أخرى – فنلندة، بولونيا ، لاتفيا – دون جدوى .. إن الحقد على دول الاتفاق قد أرسل جذوره في كل قطر صغير . ولئن كانت فنلندة لم تتحرك للاستيلاء على بتروغراد حين استولى يودينتش على كراسنويه سيلو[٣]، فلأنها ترددت وأدركت ان باستطاعتها ان تعيش مستقلة جنباً الى جنب مع روسيا السوفياتية ، ولكن ليس بامكانها ان تعيش في سلام مع دول الاتفاق . كل الأمم الصغيرة استشعرت ذلك.

---

١ – أي « الحلفاء » الغربيون المنتصرون في الحرب . ا.م.

٢ – حرب التدخل ضد روسيا السوفياتية . ا.م.

٣ – الجنرال القيصري يودينتش وصل الى مشارف بتروغراد . ا.م.

انه شعور فنلندة وليتوانيا واستونيا وبولونيا، حيث الشوفينية زاحفة ، ولكن حيث الحقد على دول الاتفاق التي تبسط استغلالها في هذه البلدان .. ».

– وهنا يأتي تعريف لينين للثورة الاشتراكية : لن تكون فقط ولا بصورة رئيسية نضال البروليتاريا في كل بلد ضد برجوازيتها ، بل ستكون نضال جميع الشعوب والبلدان التابعة ضد الامبريالية العالمية ... (وقد نقلنا هذا التعريف في مقالنا الثاني) . وينتقل لينين ، بعد ذلك ، الى « الشرق » : الصين ، الهند ، تركيا ، فارس . الحزب الشيوعي اللبناني ، في برنامجه الجديد (١٩٦٨) ، نقل هذا التعريف . بتره في اطار خطاب لينين ، شوّه ترجمته باضافة كلمة ، لم يفهمه ، حصره في مفهومه غير اللينيني عن « حركة التحرر الوطني في الشرق »، ولم يفهم انه يتعلق بجوهر مفهوم اللينينية عن العصر الامبريالي وعن الثورة الاشتراكية العالمية . ا.م.

ب – من مسودّة لينين الاولى عن الموضوعات المتعلقة بالمسألة القومية والكولونيالية
(الى المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية) ١٩٢٠

يقول لينين في مطلع هذه المسودّة :

« اني ، اذ أطرح على المناقشة الموضوعات الآتية ... أرجو من جميع الرفاق لا سيما اولئك الذين يحوزون معلومات عيانية عن مسألة أو اخرى من هذه المسائل البالغة التعقيد، ان يقدموا لي آراءهم وتعديلاتهم واضافاتهم وملاحظاتهم الخطية في الشكل الاكثر اقتضاباً (ليس اكثر من صفحتين أو ثلاث صفحات)، لا سيما عن النقاط التالية :

التجربة النمسوية .

التجربة البولونية – اليهودية والاوكرينية .

الزاس – لورين وبلجيكا .

ايرلندة .

العلاقات الدانماركية – الالمانية ، الايطالية – الفرنسية ، الايطاليـــة – السلافية .

تجربة البلقان .

الشعوب الشرقية .

النضال ضد فكرة الجامعة الاسلامية الكبرى .

العلاقات في القوقاس .

جمهوريتا الباشكير والتتر .

قيرغيزيا .

تركستان ، تجربته .

الزنوج في اميركا .

المستعمرات .

الصين – كوبا – اليابان » .

حـ – من خطاب لينين في اجتماع مناضلي الحزب في موسكو . ١٩٢٠/١٢/٦

في هذا الخطاب ، برّر لينين شعار « يا عمال العالم وأيتها الأمم المضطهَدة اتحدوا ! » وأضاف : « العلاقات أكثر حدة . المانيا بأسرها في حالة اختمار ، وكذلك آسيا . لقد قرأتم التقرير عن كيفية تشكل الحركة الثورية في الهند . وفي الصين حقد عنيف على اليابانيين والاميركان . في المانيا حقد يتلظى على دول الاتفاق، لا يمكن تقديره حق قدره الا بتشبيهه بحقد العمال الالمان على رأسماليهم. وكانت النتيجة أن جُعِلت روسيا الناطق المباشر بلسان كل مضطهَدي العالم . التطورات تعلم الشعوب أن تنظر إلى روسيا كمركز الجذب » .

تعليق ا. م. : هكذا يرى القارىء الترابط بين نظرة زعامة البروليتاريا للثورة الديمقراطية ، وتعريف الثورة الاشتراكية البروليتارية العالمية كحقيقة عيانية مُزدوجة أحد فرعيها الرئيسيين نضال الأمم المضهَدة في العالم ، ومبدأ زعامة روسيا لشعوب العالم . إن لينينية ١٩١٦ و١٩٢٠ (تحليل الامبريالية ، والمسألة القومية ، في الغرب أيضاً ، النضال ضد كاريكاتور الماركسية «اليسارية» ، « الاقتصادية الامبريالية ») لا تلغي بل تواصل لينينية ١٨٩٩ و١٩٠٢ (زعامة البروليتاريا للثورة الديمقراطية في روسيا ، النضال ضد « الاقتصادية » الاولى ونزعتها « العمالية » الصافية ، نظرية الوعي والحزب) ، ولا تلغي بل تواصل وتطوّر وتكمّل ماركسية ماركس وانجلز (١٨٤٨ ، ١٨٧٠ ، الخ) . خط واحد متصل . يقظة شعوب الشرق على هذا الخط (لينين ١٩٠٨ ، ١٩١٢ ، ١٩٢٠) . تنبيه إلى مبتكري «الماركسية» الجديدة المقطوعة الجذور والأصول . والى من سار وراءهم من سدنة « الماركسية » الازليين . ا. م.

د – من مؤلف لينين الاخير : « من الافضل أقل شرط أن يكون أفضل » . ٢/٣/١٩٢٣ .

هناك عشرات النصوص للينين تبيّن أن المانيا مضطهَدة قومياً (صلح فرساي) وان نظام الامبريالية وحروبها نظام اضطهاد واستغلال قوميين داخل عالمها الغربي أيضاً وان هذا الواقع يؤثر على سير الثورة الاشتراكية العالمية ككل ، بما في ذلك الفرع البروليتاري في هذا التيار المزدوج . نكتفي ببعض ما ورد في هذا المؤلف باعتباره آخر مؤلفات واضع ماركسية العصر الجديد .

يقول لينين :

« إن نظام العلاقات الدولية الذي تشكّل الآن هو نظام يتميّز بان احدى الدول الاوروبية ، المانيا ، قد استُعبدت من قبل البلدان المنتصرة . بل ان عدداً من البلدان – البلدان الغربية الاقدم – هي في وضع يتيح لها أن تستخدم انتصارها لكي تحقق عدداً من التنازلات الثانوية لطبقاتها المضطهَدة – وهي تنازلات ، وان كانت صغيرة ، الا انها تؤخر الحركة الثورية في تلك البلدان وتخلق ما يشبه « السلم الاجتماعي » .

... لقد نجح الامبرياليون في شق العالم الى معسكرين، ويزيد هذا الانقسام تعقيداً كون المانيا ، وهي بالحقيقة بلد تطور رأسمالي متقدم ومثقف ، تجد صعوبة بالغة في الوقوف على قدميها . كل الدول الرأسمالية في ما يسمّى الغرب تنقرها وتحول دون نهوضها ، ومن جهة أخرى ، كل الشرق ، مع مئات الملايين من شغيلته المضطهَدين المنزَلين الى آخر درجات العذاب الانساني، قد أُرغم إلى موقع يجعل من غير الممكن تشبيه قوته الطبيعية والمادية بالقوة الطبيعية والمادية والعسكرية لأية من الدول الصغرى في الغرب ... » .

في هذا المؤلف الاخير، يتحدث لينين عن بناء أسس الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وعن الهدنة التي يحتاج اليها الاتحـــاد السوفياتي (ويرجو لينين أن تكون طويلة) والصراع بين الامبريالية الشرقية والامبريالية الغربية ، أي بين اليابان واميركا ، وعن حاجة الشرق الى التمدّن وحاجة روسيـــا الى التمدّن بانتظار « الصدام العسكري القادم بين الشرق الثوري والقومي والغرب الامبريالي والمعادي للثورة » . ولكن « نتيجة النضال سيقررها واقع ان روسيا والهنـد والصين الخ تؤلف الغالبية العظمى من سكان المعمورة » ...

(٧) بوخارين وبريوبراجنسكي ، ستالين : نفس المواضيع السابقة ...

هذا التشخيص الأساسي – شمولية المســـألة القومية ، وجودها في الغرب الصناعي المتقدم في زمن الامبريالية وثورة اوكتوبر ، مفهـوم الامبريالية ذاته كواقع « سياسي » ، وكواقع اضطهاد قومي آخذ في التزايد والتوسع ، ومفهوم الثورة الاشتراكية العالمية كواقع يتضمن ثورة الأمم المضطهَـدة – ليس رأي لينين وحده بل رأي البلاشفة الروس جميعاً ، تحت تأثير لينين ونضـــالاته . ومن المفيد ان ننقل هنا كلام بوخارين وبريوبراجنسكي في كتابهما التعليمي « ألفباء الشيوعية » ، وكلام ستـالين في كتابه الذائع الصيت « مبـادىء اللينينية » . لا سيما وان بوخارين وستالين حملا في أوقات ما أفكاراً متنوعة تشكل انحرافاً عن اللينينية باتجاه « التقليل من أهمية المسألة القومية » (على حد عبارة الزميل طيبي) . غير ان هناك بديهيات أولية يؤكدانها في الكتابين الكلاسيكيين المذكورين .

أ – من كتاب بوخارين وبريوبراجنسكي « ألفباء الشيوعية » ١٩١٩

« الفصل : المسألة القومية والشيوعية . الفقرة : الاضطهاد القومي: الاضطهاد القومي هو أحد أشكال اضطهاد الانسان من قبل الانسان (...) الأمة هي جماعة من البشر توحدها لغة مشتركة وتسكن أرضاً محددة (...) الحكومة الالمانية كانت تغلق المدارس البولونية . حكومة النمسا كانت تفرض على التشيك اللغة الالمانية بالعنف . البرجوازية الانكليزية كانت ولا تزال تضطهد ابنـــاء افريقيا وآسيا . انها تخضع الشعوب غير المثقفة وتستغلها وترميها بالرصاص عند كل محاولة للاستقلال (...) **الفقرة : من يعبّر عن الارادة القومية ؟...** أكثر من ذلك ، في مجموعة البلدان المضطهَدة دخلت البلدان المهزومـــة حديثاً : المانيا ، النمسا ، بلغاريا الخ التي كانت قبل الحرب بلداناً حرة . وهكذا فان تطور النظام البرجوازي ، بدلاً من أن يقلل عدد البلدان المضطهَدة ، يزيـد هذا العدد ، والسيطرة البرجوازية تقود إلى الاضطهاد القومي الكوني . العـــالم بأسره يحني ظهره تحت سوط مجموعة الدول الرأسمالية المنتصرة »[1] .

تعليق ا.م.: هذا ما يقوله كتاب « ألفباء الشيوعية »: الامبريالية=الاضطهاد القومي الكوني ، في الغرب أيضا . تطور ، نمو ، تقـــدم النظام البرجوازي (الامبريالي) يوسّع نطاق الاضطهاد القومي، يزيد عدد البلدان المضطهدة قومياً.

---

١ – نقلا عن طبعة دار ماسبرو ، باريس ، بالفرنسية ، ص ١٩٥ ، ٢٠٤ .

ب – من كتاب ستالين « في مبادىء اللينينية » ، ١٩٢٤
« الفصل الثالث : النظرية .. الفقرة : نظرية الثورة البروليتارية

... أين ستبدأ الثورة ؟ في أي بلد ستُخترق جبهـــة الرأسمال بادىء ذي بدء ؟ حيث الصناعة أكثر نمواً ، حيث البروليتاريا تشكل أغلبية السكان، حيث الثقافة والديمقراطية أكبر، ذلك كان الجواب الذي يعطى سابقاً . كلاّ – تعارض النظرية اللينينية للثورة – ليس بالضرورة حيث الصناعة هي الأكثر نمواً الخ . إن جبهة الرأسمال ستخترق حيث سلسلة الامبريالية هي الأضعف... في ١٩١٧ ، كانت سلسلة الجبهة العالمية الامبريالية في روسيـــا أضعف مما هي في البلدان الاخرى (...) .

أين ستنقطع السلسلة في المستقبل القريب ؟ حيث ستكون الأضعف . ليس مستبعداً أن تنقطع مثلاً في الهند . لماذا ؟ لأن في الهند بروليتاريا ثورية متوقّدة، لها كحليف حركة التحرر القومي ، وهو دونما جدال حليف هام وجدي . لأن الثورة في هـــذا القطر لها خصم معروف من الجميع هو الامبريالية الاجنبية ، الفاقدة كل حظوة معنوية والتي استحقت حقد كل الجماهير المضطهَدة والمستغَلة في الهند .

كذلك من الممكن تماماً أن تنقطع السلسلة في المانيـا . لماذا ؟ لان العوامل التي تعتمل مثلاً في الهند بدأت تعتمل في المانيا ايضاً . وبالطبع ، فان الفرق الهائل بين مستوى تطور الهند ومستوى تطور المانيا لا بـــد أن يترك أثره على سير الثورة ونتيجتها في المانيا .

ولهذا السبب يقول لينين :

« ... إن الدول الرأسماليـــة في اوروبا الغربية ستكمّل تطورهـــا نحو

الاشتراكية ... ليس بـ «نضج» نظامي متدرّج للاشتراكية فيها، بل باستغلال بعض هذه الدول من قبل بعضها الآخر باستغلال اول دولة مهزومة في الحرب الامبريالية، مجتمع مع استغلال الشرق باسره . . » (لينين : « من الافضل أقل شرط ان يكون أفضل ») .

باختصار، إن سلسلة الجبهة الامبريالية، كقاعدة عامة، ستنقطع حيث السلسلة هي الأضعف، وعلى كل حال ليس بالضرورة حيث الرأسمالية أكثر نمواً، حيث النسبة المئوية للبروليتاريين هي كذا، والنسبة المئوية للفلاحين هي كذا، وهلمجرا ... »

تعليق ا.م : هذا ما يقـــوله ستالين (١٩٢٤) في تعريفه **لنظرية الثورة البروليتارية**، ضد « شراح الأممية الثانية الذين لم يفهموا ما هي الامبريالية والذين يخافون الثورة كالطاعون » . الامبريالية هي هذا الاضطهاد القومي العـــالمي، داخل اوروبا الغربية ايضاً (نص لينين) . وسيرُ الثورة الاشتراكيـة العالميـة يرتكز على هذا الواقع العالمي الامبريالي – القومي .

ويجب القول ان خلفاء لينين – ومنهم ستالين – قد ابتعدوا الى حد لا بأس به عن منظورات لينين، التي ثبّتتها كل تجربة الحرب العالمية الثانية وكل تجربة ما بعد الحرب : النازية، الصهيونية، الامبريالية الاميركية، التكالب على تعميق وإدامة التجزئة العربية، بعث الماركسية الكاريكاتورية « اليسارية » «الطبقية» (!؟) « الاقتصادية الامبريالية » في الوقت الذي يشتد فيه هذا التكالب .ا.م.

ملحق أخـــير

رسالة من الزميل بسام طيبي وجوابي عليها

في المقال الثاني للزميل – حواره المباشر معي حول المسألة القومية – وفي حدود الخمس أو الست صفحات التي يؤلفها نص هذا المقال ، تحدث الزميل بسام طيبي عن مراسلاته مع سهيل ادريس بخصوص أسلوب الاستشهاد ، وذكر نديم البيطار ... وحمل بشدة على ترجمة جمال أتاسي وسامي الدروبي لكتاب فانون... وأطال قائمة مراجعه ، معززاً أسلوبه في « إسناد » النصوص .

وتساءلتُ : ما شأني والدكاترة ادريـــس والبيطار واتاسي والدروبي ؟ تصورتُ انني مقصود ، جزئياً على الاقل . وعالجتُ الأمر في حدود الحـــوار ومواضيعه .

وما ان فرغت من تحرير مقالي الثاني والملحق ، حتى وصلتني من الزميـــل طيبي رســـالة شخصية ثبتت تصوري :. انني مقصود جزئياً على الأقل . فقد تضمنت رسالة الزميل انتقادات مباشرة موجهة لي شخصياً ، و «بدون وساطة» ، حول أسلوب الاستشهاد وإسناد النصوص ، وأسلوب التأليف والعمل الفكري والماركسي . – في رأي الزميل انني لا أسند استشهاداتي بشكل كاف . وهذا

علم مبتذل . بل ربما أبتر النصوص من سياقها فأشوّه مدلولها . وكتاباتي تفتقر الى التسلسل والتماسك. وهي علمية بالمقارنة مع الكتب العربية ، ولكنها ليست علمية بالمقارنة مع الكتب الالمانية والاوروبية ... —

وقد رحبت بهذه الرسالة أشد الترحيب — ما عدا شيء واحـــد سيعرفه القارىء بعد قليل — . ورأيت ان اول واجباتي هو ان أضع انتقادات الزميل تحت أنظار القارىء ، فرفقة بجوابي عليها . هكذا يستطيع القارىء ان يحكم ، لا غيابياً بل حضورياً .

رسالة الزميل

(النرويسة ، مطبوعة ، بالالمانية :)

بسام طيبي : ٦ ، فرانكفورت على الماين
ابشتاينر شتراسه ، ٢٥

عزيزي الياس مرقص

لقد حصلت على عنوانك من دار الطليعة وأكتب لك لأعلمك انني نشرت بالالمانية كتاباً تحت عنوان « اليسار العربي » يحتوي على دراسات وتعليقـات ووثائق إضافة الى نصوص مترجمـة عن العربية . وقد نشرت في هذا الكتاب ترجمة كاملة لفصل « دروس التجربة » من كتابك عن الاحزاب الشيوعية العربية وقد اضطررت فقط لحذف استشهاد من انجلز في هذا الفصل لأنه لم يكن مسنداً ولم استطع العثور على مصدره (دون اسم الكتاب ... الخ) وبالالمانية لا يجوز ايراد استشهاد دون اسناده وإلا اعتبر ذلك « علم مبتذل » والكاتب ذا السمعة العلمية الجيدة يسيء لأسمه حين لا يتمسك بأساليب الاستشهاد العلمية . للأسف

فالامر عندنا ليس كذلك . الكتاب سيصدر خلال هـــذا الاسبوع . اذا أردت أرسل لك نسخة منـــه . الترجمة حصلت باذن من دار الطليعة ونشرت تحت اسمك مع اسناد المصدر والصفحات في كتابي المذكور .

ارجو أن تسمح لي أن أقدم بعض الملاحظات على كتاباتك والتي أرجو أن تتقبلها كنقد بناء وأخوي بنفس الوقت:

١ — لقد وجدت لدى ترجمة نصك صعوبة بالغة وبشكل خاص لمدة أسباب أهمها عدم التسلسل المنطقي وعدم المنهجية (Systématique) في التحليل فأنت مثلاً تذكر نقطة معينة ثم تقفز فجـأة الى نقطة أخرى دون صلة بين الاثنتين . ولدى ترجمة نصك اضطررت للترجمة الحرة وليس للترجمة الحرفية لتجنب ذلك ولإظهـــار النص للقارىء الالماني بشكل متسلسل ومتماسك منطقياً .

٢ — انك تعيد الفكرة نفسها مرات عديدة دون داع كذلك تشرح كثيراً الى درجة الاسهاب فيبدو القارىء وكأنه تلميذ لا يعـــلم اي شيء بينما تظهر انت وكأنك تعلم كل شيء .

٣ — انك لا تسند الاستشهادات التي توردها في ابحاثك غالباً وعندما تسند الاستشهاد تقوم بذلك بشكل غير كافي فتقول مثلاً قال ماركس في رأس المال كذا ولا تقول أي طبعة تقصد ورقم الصفحة .. الخ مما يجعـــل تفحص الاستشهاد غير ممكن وانت تعلم جيداً انه يمكن الاتيان بعبارات مبتورة من سياقها فيتغير المعنى ونقول عندها هذا ما قاله ماركس..الخ

هذه فقط ملاحظات عابرة ولا أريـد الاسهاب في النقد ، كل ما أردته هو اعلامك بانني ترجمت احدى نصوصك للالمانية وبانني وجدت بعض الصعوبات بسبب أسلوبك . لكن النص بالالمانية جميلاً وكانت الترجمة ناجحة جداً كما قال لي العلماء المختصون الذين أشرفوا على طبع الكتاب . وسيصبح اسمك معروفاً

الآن في الأوساط العلمية واليسارية الالمانيـة ويتوقع ترجمة الكتاب الى لغات أخرى .

إن نقدي أعلاه لا يقلل من قيمة كتاباتك مطلقاً فـأنا اعتبرها من الكتابات العلمية العربية القليلة (رغم انها بالمقارنة مع الكتب الاوروبية ليست علمية كفاية) . وأنا لا أعرف موقفك من النقد لكنني أتمنى ان لا تكون عنـدك حساسية إزاء النقد وأرجو التفكير قليلاً حول النقد الموجه اعلاه ورجائي لك هو إعادة النظر مرات عديدة في كتاباتك قبل إرسالها للطباعة لحذف الاعادات وايجاد التسلسل المنطقي . كذلك ارجوك ان تذكر في المستقبـل مصادرك بالتفصيل وان تسند كل الاستشهادات التي توردها بالتفصيل (الطبعة – سنـة الصدور – وأرقام الصفحات) .

ودم للمخلص بسام على أمل السماع منك قريباً

جوابي عليهـا

اللاذقية ٢٨ / ٧ / ١٩٦٩

عزيزي بسام طيبي

« الاستشهاد من انجاز » هو تعريف الغبّاء البرلماني الوارد في الصفحة ١٦٦ من كتابي ، التعريف الماركسي – اللينيني الكلاسيكي الذائع الصيت ، الذي نجده في مؤلفات عديدة للينين فضلاً عن انجاز ، ومصدره الأصلي مؤلف انجاز « الثورة والثورة المضادة في المانيا » ، أشهر وأهم دراسات انجاز عن المانيا ، على الاطلاق . وهكذا ، أيهـا العزيز ، تـُعلمنا – مرة أخرى – انك في مقالك المنشور في « دراسات » تحدّثتَ مطولاً عن « انجاز والمانيا » (وأمطرت انجاز بوابـل من

شتائمك) دون أن تقرأ « انجلز والمانيـا » . هذا بصدد « العلم المبتذل » . فضلاً عن انك تعلمني انك ، بعد ان أغرقتني في مديحك ، لم تعد تقرأ مؤلفاتي . فلو قرأت « الماركسية والشرق » لوجدتَ فيه كل مقطع انجلز المتعلق بـ « الغبـاء البرلماني » في اطار كل كتاب انجلز عن المانيا . إن عمليتك – حذف استشهادي بانجلز – عملية تمتّ على حسابي وهي ضد الأمانة العلمية . لا أعتقد أن شخصاً من « الاوساط العلمية واليسارية » الاوروبية يجهل تعريف انجلز – لينين الذائع الصيت ، إلا إذا كان من طرازك . واني أقبل بشهادة البروفسور فتشر ، استاذك . ولقد كان باستطاعتك ان تستفسر مني (بواسطة دار الطليعة) عـــن مصدر تعريف انجلز قبل الترجمة والنشر ، ولكنك لم تفعل . لا أشكرك .

١ – أترك لقارىء كتاباتي – وبالأحرى الفصل الاخير (الخلاصة) من «تاريخ الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي » الذي ترجمتـــه إلى الالمانية – وقارىء كتاباتك ان يحكم على قضية « التسلسل المنطقي » و«المنهجية » Systématique في مؤلفاتي ومؤلفات غيري . أما ان تترجم مؤلفي « ترجمة حرة » ، فهـــذا تطاول مسؤول ، واترك للقارىء أن يحكم على « حرية » المناضل المقيم في « العالم الحر » . شخصياً لا أعتقد أن هناك ، في العلـم ، شيئاً اسمه « ترجمة و حرة » ولا اعتقد أن دار الطليعة قـد أذنت بالترجمة الحرة .

٢ – « أنت قلتَ ! » ، وكما يقول المثل الفرنسي : Qui se sent mor-veux qu'il se mouche ! من شعر بمخاط في أنفه ، فليمخط ! ومن علم جهله فليتعلم ! انت تعلم « شيئاً » في «الماركسية و المسألة القومية» ، ولكن هذا «الشيء» ليس كثيراً .

٣ – لكل منا اسلوبه في الاستشهاد اسلوبك هو : مبغا ، المؤلفات الكاملة لماركس وانجلز ، بالالمانية ، سنة الصدور كذا ، الجزء كذا ، المجلد كذا الصفحة

كذا ، أي احالة القارىء العربي المستباح إلى النجم فيغا ، إلى المريخ ، إلى نقطة صغيرة في المريخ . بتر فقرة صغيرة من مؤلف انجاز الشاب عن آرندت . وبتر مقطع صغير من كتاب لوكاكش وتشويه هـذا المقطع باسقاط كلمة «شاب» من عبارة «ماركس الشاب» ، ثم تركيب آرائك الشخصية على المقطع المبتور المشوّه . اسلوبك هو البتر والتشويه المتنوع ، مع التمويه باعطاء مظهر الامانة والدقة عن طريق ذكر « الطبعـة ، سنة الصدور ، مكان الصدور ، رقم الصفحة » .. أسلوبي هو مساعدة القـارىء العربي جدياً وبدون بَهر او تبهير ، عن طريق ذكر عنوان المؤلف (وعند اللزوم عنوان الفصـــل) حتى يستطيع الرجوع الى المصدر ، أياً كانت الطبعة التي بيده (عربية ، فرنسية ، انكليزية) وتقديم أطار النص كله الخ . نادراً ما أُخالف هذه القاعدة العـــامة « التعليمية » التي تكرره كونها تعليمية . وحين « أخالفها » فان ذلك مبرر ، كما في تعريف الغباء البرلماني الذائع الصيت . فالقارىء العربي الجيد نموذجان : واحد يعرف كلاسيكيات الماركسية ويعرف بالتالي التعريف المذكور . وآخر يجهـــل كلاسيكيات الماركسية ، فيتعلّم الماركسية ، ولا يتورط في ابداع ماركسيات وترجمات ماركسية وفي شتم الماركسيين .

ثم لماذا — ما دمت حريصاً على الامانة وعلى عدم وقوع «الاخ» ، « الصديق العزيز » ، « الرفيق » و «الاستاذ مرقص » في « البتر وتغيير المعنى » أي في التشويه المقصود او غير المقصود — لماذا لا (تمسك الثور من قرونه) في مؤلفاتي كما فعلتُ بمقالك الاخير (مبيّناً لك البتر والتشويه) ، لماذا لا تبين لي ، في أحد مؤلفاتي ، تشويهاً ما أياً كان ، وقعتُ فيـــه بشكل ما نتيجة عدم تقيّدي بـ « أسلوب الاستشهاد العلمي » الذي تعتمده أيها الزميل العالم ؟ لم يفت الأوان ! أرجوك ، يا صديق الصديق ورفيق الرفيق واستاذ الاستـــاذ ، أن لا تتأخر بعد الآن !

« ملاحظات عابرة » ؟ – أنا أفضل « الاسهاب ». أفضل الملاحظات المفصلة كل التفصيل والمحـــددة كل التحديد . أما « العبور » فأســـلوب فـــني ترفي Dilettante غير مسؤول . انتظر لقطات محددة تبيّن تشويهي . (كما فعلتُ معك ، مع مقالين محدودين من كتاباتـــك) . بصرف النظر عن النوايا ، عن المقصود وغير المقصود ، الواعي وغير الواعي .

ان يكون النص بالألمانية جميلٌ (عليّ ان ارفع خبر كان ما دمت تنصب خبر لكن) ، فهذا شيئاً جميلاً (وأنصب خبر المبتدأ ما دمت في مكان سابق رفعت المفعول به الثاني – « اعتبر ذلك علم مبتذل » –) النص الالماني جميل كلغتك العربية ؟ أمنيتي ان لا تكون قد نحتَّ في الالمانية نحواً جديداً كما فعلتَ في العربية (في مقالاتك ، وفي رسالتك) . أمنية صعبة المنال: فالمنطق الانساني واحد ، ومنطق واحد يسّير النحو العربي والالماني واللاتيني : المبتدأ (ونعته) مرفوع Nominativ (« والكاتب ذو السمعة العلميـــة ») . والمفعول به منصوب Akkusativ (لا سيما اذا كان مفعولاً به ثانياً) . والمضاف اليه مجرور Genitiv ... ويبقى عليك – اذا كنتَ تتقن النحو الالماني – ان تتعلّم – من أجل لغتك العربية – قواعد إن واخواتها وكان واخواتها وعدة اشياء أخرى في النحو وفي الصرف... واني أهنئك على كون « العلماء المختصين » قد « اشرفوا على طبع كتابك » ! وأنا آسف لكونهم لا يستطيعون ان يعلموك قواعد اللغة العربية . وآسف لكون دار الطليعة قد اعطتكم (أنت والدار الالمانية) الإذن بالترجمة . والآن ارجو ان تبلغ الدار الالمانية المعنية ما يلي حرفياً ، أي بترجمة المانية غير حرة : « سأقاضيها حتماً اذا أعطت « اذن الترجمة » الى لغات أخرى انطلاقاً من النص الالماني » . إن قبول الدار الالمانية « الترجمة الحرة » دليل كاف على علميّتها وجديتها .

مرة اخرى نحن مختلفان: ليست الكتب الاوروبية التي تقصدها مثلي الأعلى. وأنا أحذرك أخوياً من « الماركسيين » الاميركان والاوروبيين الذين اتخذتهـــم

اساتذة لك. ونصيحتي لك: ارجع الى ماركس وانجلز ولينين . هؤلاء هم العلماء الاوروبيون الحقيقيون . وليس الشراح الذين كونوا تفكيرك في المسألة القومية . وكما تلاحظ، حساسيتي كافية. واترك لك ان تكون على غير ذلك . « وارجوك» انلا تحذف استشهادي بانجلز، وان لا «تحسّن» نصي باتجاه «التسلسل» و«التماسك» والمنهجية ، وان لا تنعم بـ « حريتك » على ظهر الآخرين ، وان لا تترجمني الى الالمانية ، وان تتخلى نهائياً عن الاساتذة « الاوروبيين العلميين » وعن «الاوساط العلمية واليسارية الالمانية » ، وان تقرأ ماركس وانجلز ولينين بدءاً بالالفباء ، وان لا تشتم الآخرين .

ودمت للمخلص الياس « بعد ان سمعت منه قريباً » .

ثم وصلتني رسالة ثانية من الأخ بسام (مؤرخة هذه المرة ، فرانكفورت ١٩١٩/٨/٨ » . يعتقد انني استأت « من النقد »...« يعتذر » اذا كان في نقده إساءة . وهو « انسان محب »«ونقده بناء » . ثم يهنئني على زواجي ، ويبدي رأيه في الزواج (ضد الزواج) : الزواج قيد وبسام « يعلم ذلك جيـــداً لأنه متزوج » . ماركس ، على ما يبدو ، « لم يندم إلا على شيء واحد : كونه قد تزوج » .

والحقيقة ، يا أخ بسام ، انني استأت من « الترجمة الحرة » ، من هذا الفصل البشع. وأنا لا استاء بل أحزن لكل أسلوبك في الترجمة والكتابة والاستشهاد والعمل . وانت حر . ولكن كان عليّ الحوار مع الزميل والنصح الأخـــوي والتحذير الأخوي و... حماية نفسي من الصديق .

بصدد الزواج ، أحذو حذو ماركس ولينين ــ ناهيك عن تروتسكي صديقك وستالين عدوك ، واصدقائك ماوتسي تونغ وغيفارا وتسعة أعشار الماركسيين. أترك للمقيمين في انكلترة أو فرنسا أو المانيا أن يحذوا، إذا شاؤوا ، حذو انجلز . أنت لم تحذ حذوه عملياً ، وإن كنت نظرياً ــ في هذه القضية ــ تؤيد عدم زواجه .

فهرست

توطئة	٥
ماركس ، انجلز ، لينين والمسألة القومية	٩
حوار حول المسألة القومية	٧٥
ملحق	٢٠١
ملحق اخير	٢٤٥

٣٠٠٠/٢١٠

طبع في
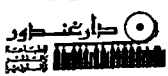

يقدم الاستاذ الياس مرقص في هذا الكتاب عرضاً لتعاليم ماركس و انجلز ، و لينين ، في « المسألة القومية » .

وتأتي اهمية هذا العرض من ارتباط هذه التعاليم ، بالوضع العربي الراهن و أزمة الثورة العربية وانتشار الفكر الماركسي في هذا الوطن .

«وسيرى القارىء هذا الارتباط على طول الخط ، وهو تثبيت لشمولية الماركسية ودوامها وحياتها » .

الثمن
٤٥٠ ق. ل.
٥٧٥ ق. س.

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت